شعر

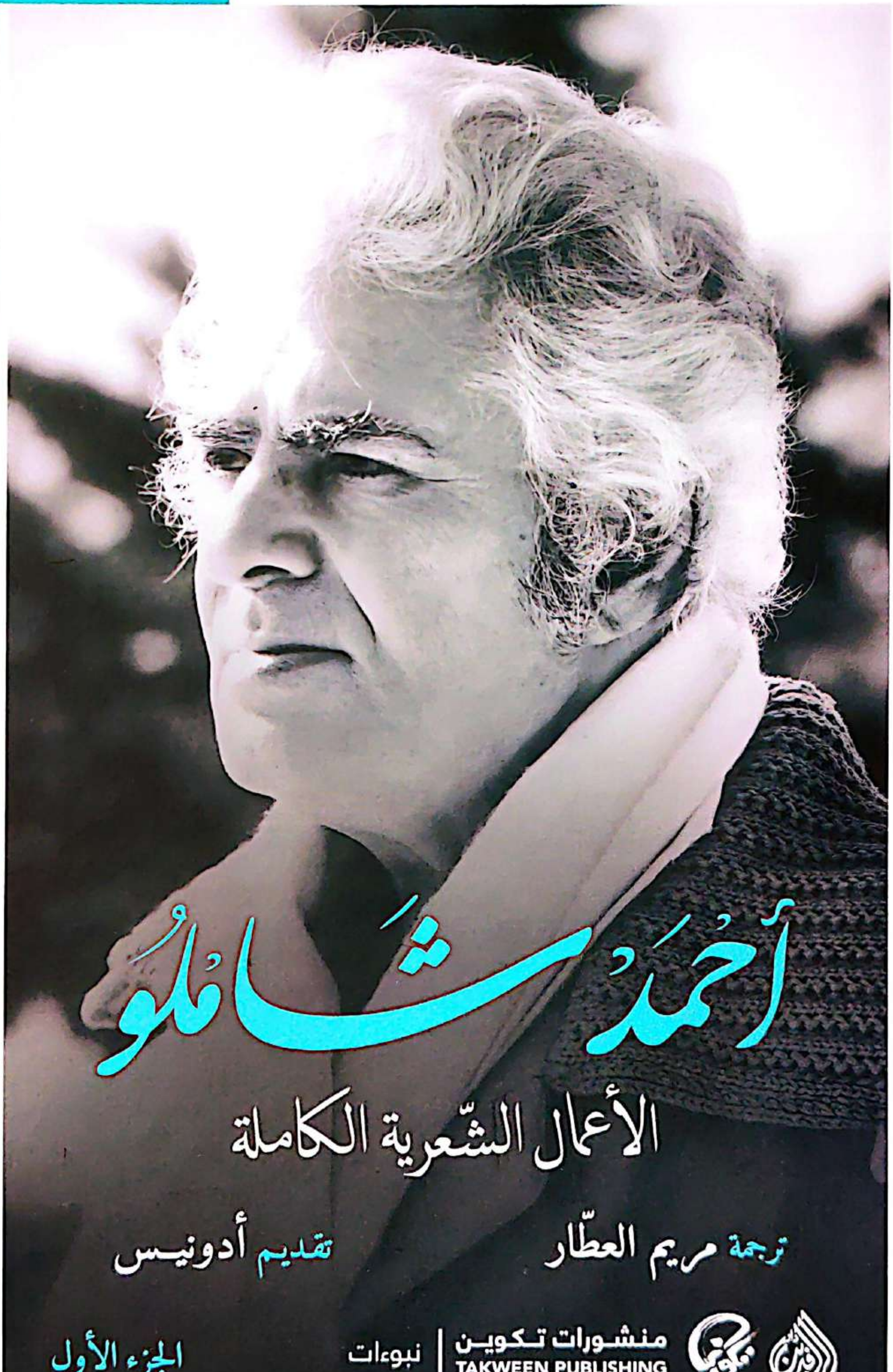

أحمد شاملو

الأعمال الشّعرية الكاملة

ترجمة مريم العطّار

تقديم أدونيس

الجزء الأول

منشورات تكوين | نبوءات
TAKWEEN PUBLISHING

أحمد شاملو

الأعمال الشّعرية الكاملة

أحمد شـاملو

الأعْمالُ الشـّعريَّةُ الكامِلةُ

ترجمة: مريم العطّار

تقديم: أدونيس

Complete Poet Works For Ahmad Shamlu

By Ahmad Shamlu

translated by Mariam Al-Attar

الطبعة الأولى: نوفمبر - تشرين الثاني، 2022 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain&Takween2022

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخة أصليّة من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكل من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين وتكوين أن تستمرّا برفد جميع القراء بالكتب.

All rights reserved © Sirous Shamlou 2022

Originally published under the title مجموعة اشعار أحمد شاملو by Negah Publishing House.

This book is licensed by Sapens Literary Agency on behalf of Sirous Shamlou.

This book may not be copied, reproduced, transmitted, broadcast, or stored in an information retrieval system in any manner and form, such as by photography, printing, recording, taping or in another comparable manner, in part or in its entirety, without the written approval of the Proprietor, translator, and publisher.

Kuwait City, 2022

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

بغداد ـــ العراق
شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: +9647714440520
+9647811005860

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 64 - 2

أحمد شاملو

الأعمال الشّعرية الكاملة

الجزء الأوّل

ترجمة
مريم العطّار

تقديم
أدونيس

منشورات تكوين | نبوءات
TAKWEEN PUBLISHING

الفهرس

شعرٌ فيما وراء الإيديولوجيّة 13
المُقدِّمةُ 21
أحمد شاملو: عن «الالتزام» 27
ما الشِّعرُ؟ 29
سيرةُ حَياةٍ 35
قَطَعْنامه 1951 ـ 1952 55
حتّى البُرعم الأحمر في القَميصِ 57
نَشيدُ رجُلٍ قَتَلَ نفسَهُ 70
النَّشيدُ الْعَظِيم 78
قَصِيدَةٌ لإِنْسَانٍ 83
في «بهمنَ» 83
الحديدُ والإحساسُ 1953 ـ 1954 93
طائرُ البَحْرِ 95
لأجلِ الدَّمِ وأحمرِ الشِّفاه 100
المَرثِيَةُ 107
الْهَوَاءُ النَّقِيُّ 1957 ـ 1958 111
الرَّبيعُ المُنطَفِئُ 113
الرُّجوعُ 116
مَطْرُودٌ 120
المَريضُ 123

القَصيدةُ الضَّائعةُ 126
عذابٌ آخرُ 128
اللِّقاءُ الأخير 129
قَصيدةٌ غيرُ مُكتملةٍ 130
السَّفرُ 134
زَهرةُ الجَّبلِ 137
الصَّبرُ المُرُّ 139
الضَّبابُ 141
مِنْ جُرحِ قلبِ «آبائي» 143
الرِّياحُ 147
الغُبارُ 150
انتظارٌ 153
تَردُّدٌ 154
إحساسٌ 156
خُفَّاشُ اللَّيلِ 158
مَوتُ «نازلي» 161
لا أُراقصكِ في الدُّخانِ الأزرقِ 163
ساعةُ الإعدام 165
الشِّعرُ هو الحَياةُ 166
الرَّسمُ 174
في كفاحِ الحَياة 175
التِّمثالُ 177
اللَّعنةُ 180
جُدرانٌ 183
النِّيليُّ 189
أُنثى طائرِ المَطرِ 192

البقاءُ 199
لَيْلِيَّة 1 200
لَيْلِيَّة 2 201
لَيْلِيَّة 3 202
لَيْلِيَّة 4 203
لَيْلِيَّة 5 205
لَيْلِيَّة 6 208
لَيْلِيَّة 7 211
السِّرُّ 215
المَطرُ 217
الجِّنيَّةُ 223
العَاقِبةُ 233
الأفق المضيء 236
أُنظري! 238
عِشقٌ عامٌّ 246
أُحيِّكِ 249
أحبُّك 252
لَمْ أعُدْ وحِيدًا 253
اليَنبوعُ 256
ربيعٌ آخرُ 259
أقول لكَ 262
مِن أعمامِكَ 265
وداعًا! 268
حريقٌ باردٌ 270
قصيدةٌ غير مُكتملةٍ 271
عُقدةٌ 273

لأجلِكُمْ، أنتمْ الذينَ الحُبُّ حياتُكم 275
السِّمفونيَّةُ المُظلمةُ 279
غناءٌ مسائيٌّ للأزقَّةِ 282
بإصرارِ الماسةِ 289
«روكسانا» 293
غزَلُ العُزلةِ الأخيرةِ 309
الغزلُ الكبيرُ 318
الحرفُ الأخيرُ 328
العيونُ المُظلِمةُ 335
نشيدُ الرَّجُلِ الذي يَمشي وحدَهُ 338
من حدود العَزلة 344
وحيدٌ 348
خلفَ الجِّدارِ 351
بُسْتَانُ المِرآةِ 1960 ـ 1961 355
حلمُ الحارثِ 357
على ما يبدو 358
حريقُ القلعةِ المُنطفئةِ 360
المفتاحُ 362
الحَدَثُ 364
الثَّلجُ 365
أسيرُ اللَّيلِ 367
المَغيبُ فَي «سياهرود» 370
في الأقاصِي 372
على الرَّصيفِ 373
العِقابُ 377
السَّمكةُ 380

الصَّنوبرُ 382
جسرُ (الله وردي خان) 384
لَيْلِيَّة 8 387
الرَّسمُ 389
الفقرُ 390
رثاءٌ لمَوتى آخرينَ 391
لَيْلِيَّة 9 401
المَطَرُ 404
في مُنتصفِ اللَّيلِ 405
لَيْلِيَّة 10 406
امرأةٌ نائمةٌ 407
شاهدةُ قبرٍ 408
مطرٌ 409
إلى الشَّكِّ 410
المَعادُ 412
أقفُ ثابتًا على التُّرابِ 413
الزُّقاقُ 414
الاعتراضُ 416
البابُ المُغلقُ 418
مِن مَدينةٍ باردةٍ 423
مَع رفيقِ السَّفرِ 426
بُستانُ المِرآةِ 429
المَرثيَّةُ 432
النُّبوغُ 435
شِعارُ «نابليونَ» العَظيمُ 438
حكايةُ حُوريَّاتِ ملكةِ البحرِ 439

«آيدا» في المِرآةِ 1964 ـ 1965 449
البدايةُ 451
لَيْلَيَّة 11 453
أنا وأنتِ، الشَّجرةُ والمَطرُ 455
أنا وأنتِ 458
مِنْ الموتِ 460
النَّائمونَ 461
نشيدُ العائدِ من الزُّقاقِ إلى البيتِ 465
التّكرارُ 469
أربعةُ أناشيدَ إلى «آيدا» 472
النَّشيدُ الخامسُ 477
«آيدا في المِرآةِ» 495
الميعادُ 499
الطَّريقُ، عَبْرَ الجِّسر 501
اللَّحَظَاتُ والدَّيمومةُ مُختارات من 1952 ـ 1961 505
النَّشيدُ 507
المِيلادُ 511
هاربٌ 513
عَاصمةُ العَطَش 517
ما بينَ البَقاءِ والذَّهابِ 521
لمْ يَبقَ ثمَّةَ ما يُقالُ 522
مَلحمةٌ! 524
العابرونَ 526
الجِّبالُ 528
دَوافعُ الانطفاءِ 529
غزلٌ غيرُ مُكتملٍ 531

لَيْلِيَّة 12 532
لَيْلِيَّة 13 533
أُنشودةُ المَوتِ 535
الوصالُ 537
لَيْلِيَّة 14 543
«آيدا»: الشَّجرةُ والخَنجرُ والذِّكرى 1965 ـ 1966 547
لَيْلِيَّة 15 549
لَيْلِيَّة 16 553
لَيْلِيَّة 17 554
لَيْلِيَّة 18 556
لَيْلِيَّة 19 561
لَيْلِيَّة 20 564
لَيْلِيَّة 21 570
لَيْلِيَّة 22 573
لَيْلِيَّة 23 576
لَيْلِيَّة 24 579
لَيْلِيَّة 25 583
وبدأَ الدَّمارُ 587
غزلٌ في العَجْزِ 589
نشيدُ مَنْ غادرَ ومَنْ بقي 591
مِنَ القفَصِ 602
الشَّقُّ 603
اللَّوحُ 605
مِنَ المَوتِ تحدَّثتُ 613
جِدَالٌ في المِرآةِ والصُّورةِ 617

شعرٌ فيما وراء الإيديولوجيّة

- 1 -

أحمد شاملو، الشاعر الإيراني الكبير، في ترجمة عربيّةٍ كاملةٍ لأعماله الشعريّة الكاملة، عملٌ لا أتردّد في وصفه بأنّه حدثٌ كبير. خصوصاً أنّ في هذه التّرجمة التي أنجزتها السيدة مريم العطار، ما يتيح الكلامَ على العلاقة، في التجربة الشعرية العربية، بين الإبداع والأيديولوجية، وهي هنا الماركسيّة في صورتها الشيوعيّة السّوفياتيّة. فقد ولّدت هذه العلاقة قضايا شغلت النّقّاد والشّعراء العرب، حوالى نصف قرن، منذ خمسينيّات القرن العشرين المنصرم. كانت بيروت عاصمةً أولى في طرح هذه القضايا. ونشأ مناخٌ ثقافيٌّ يعجّ بآراء وأحكام متنابذة، متصارعة، لم يُنتِجْ فنيّاً، في التّحليل الأخير، إلاّ «الثّمرَ المُرّ». والمرارةُ هنا هي في أنّ هذا المناخ لم يخدم الماركسيّة ولا الشّيوعيّة ولم يخدم في الوقت ذاته الثّقافة العربيّة ولا الإنسان العربيّ. والسّببُ الأساس أنّ الممارسة السياسيّة الفكرية التي قام بها الماركسيّون الشيوعيّون وأهل اليسار بعامّة، أحلَّتْ النّظرة الماركسيّة، عمليّاً، محلّ النّظرة التّقليديّة الدينيّة، في بنيتها وأبعادها، وكانت سائدةً ـ وهي الآن أوسعُ سيادةً. وأوجز هذا كلّه في مثالٍ أجِدُه معبِّراً:

محمد مهدي الجواهريّ، تمثيلاً لا حصراً، لم يكن، فنيّاً، إلاّ امتداداً

لأحمد شوقي الذي منحته التقاليد لقب «أمير الشعراء»: لم يقدِّم شعرُه ما يُغني أو يُعمِّق البعد الإنسانيّ الثّوريّ الماركسيّ أو الشّيوعيّ في اللغة الشعريّة العربيّة، وإنّما كان، كمثل شوقي: استعادةً، بطريقةٍ أو بأخرى، للقَدامَة العربيّة وتقليدها السّياسيّ ـ الوظيفيّ المُتَواصِل. ومع ذلك سمّاه الأيديولوجيّون الماركسيّون وأنصارُهم تيمّناً بالتقاليد إياها لقب: «شاعر العرب الأكبر» !

ـ 2 ـ

كنّا، شاملو الماركسيّ الشيوعيّ وأنا، اللاماركسيّ واللاشيوعيّ، مُختَلِفَيْن إيديولوجيّاً، مع أنني كنت ولا أزال منفتحاً على الماركسيّة والشّيوعيّة، وأصغي إليهما على أكثر من مستوى. غير أنّنا كنّا، شاملو وأنا، على وفاقٍ كاملٍ، شعريّاً، وهو ما لم يحدث لي مع أي شاعرٍ أو ناقدٍ عربيّ، ماركسيّ النّظرة، أو شيوعيّ. لكن عليَّ أن أشير إلى ما يمكن أن يُعَدَّ استثناءً يجب النّظرُ إليه على حدة. يتمثّل هذا الاستثناء أوّلاً في محمود درويش في كتاباته الأخيرة التي ابتعد عنها الإيديولوجيّون الماركسيّون والشيوعيّون قرّاءً ونقّاداً، والذين كانوا يمجّدونه في مطلع حياته الشعريّة، حين كان «ملتزماً». ويتمثّل ثانياً في شعراء ونقّاد كتبوا باللغة الفرنسيّة. أخصّ بالذّكر، تمثيلاً لا حصراً، كاتب ياسين الجزائريّ، ومحمّد خير الدين المغربيّ. أضيف استثناءين آخرين على المستوى الفكريّ: المفكّر سمير أمين المصريّ، والقائد السياسي اليمني عبد الفتّاح اسماعيل.

خارج هؤلاء، كانت «الذات» الماركسيّة ـ الشيوعيّة الكاتبة، شعراً أو نقداً، تَصالُحيّة مع الدين وموروثاته وقِيَمِهِ. مع أنّ المبادئ التي تتبنّاها هذه

«الذّات» تعارضيّة، على جميع الصُّعُد. وبدَتْ الماركسيّة، خصوصاً في الممارَسة، كأنّها «جامعٌ» آخر. وبدا الماركسيّون الشيوعيون كأنّهم يقيمون «صلاةً جماعيّةً» أخرى، في سياساتهم وأفكارهم.

هكذا اختفَت المُطالبة بمدنيّة الدّولة، وحقوق المُواطِن وحرّيّاته في معزِلٍ عن انتماءاته العرقيّة والدينيّة؛ وبدا الماركسيّون ـ الشيوعيّون كأنّهم «نظامٌ» سياسيٌّ آخر ـ متحالفٌ مع «النّظام» القائم. وفي هذا ما يفسِّر «تبعيَّتَهم» الخاصّة التي تتطابق مع تبعيّة «المتديِّنين» المسلمين، العامّة. وهو خَلَلٌ يزداد تعقيداً حين ندرك أنّ الثّقافةَ الغربيّة، خصوصاً في وجهها «الصّناعيّ» بعامّة، وفي وجهها «اللغويّ» إلى حدٍّ ما، ليست في المجتمعات الإسلامية العربيّة إلاّ نوعاً من «التّطبيع» لما ليس طبيعيّاً. إنّها ثقافةُ «مساحيق» تُلصَق على وجه العالم الإسلامي العربيّ برمّته، بحيث يبدو أنّ هذا الوجهَ المُصَنَّع أكثرُ جمالاً من «الوجه الطّبيعي» ـ وبحيث ينسى أصحابُه أو يتناسون أنّهُ، جوهرِيّاً، وجه «مسحوق». وهكذا نرى ظاهرتين مطموستين، بشكلٍ أو آخر:

الأولى، لا نرى قطيعةً أو تَحَوُّلاً في الكتابة الشعريّة العربيّة، على صعيد الثّقافة ومؤسّساتها التربويّة والتّعليميّة، منذ سقوط بغداد في السنة 1258. وما سمّيناه «الحداثة» الآتية من خارج، يُصَنِّعُه المسلمون العرب أو «يسحقونه» من داخل بمختلف أشكال «القدامة» وصورها، وولاداتها.

ولا نرى ما يغيّر قليلاً في هذه الصورة ـ العلاقة إلاّ ما يكتبه المسلمون العرب باللغة الأجنبيّة ـ الفرنسيّة أو الإنكليزيّة.

في هذا كلّه ما يتيح التّساؤل: لماذا كانت هناك، تمثيلاً لا حصراً،

ماركسيّات متنوّعة: كوبيّة، إيطاليّة، صينيّة ـ ولم تكن هناك ماركسية عربيّة؟ وإنّما كان هناك أفراد ماركسيّون عرب كبار ـ وهم قِلّة، أشرت إلى بعضهم.

يخلق الإسلامُ ـ السّياسةُ تبعيّةً كينونيّة للسّلطة القائمة باسمه مهما كانت غاشمة وجاهلة. وباسم هذه التّبَعيّة للداخل تتنافَس السّلطات الإسلامية بتبعيّتها للخارج، كاملةً أو شبه كاملة. لا بدّ لها من سيِّدٍ متبوع: على الأرض، كما في السّماء.

ـ 3 ـ

ربّما نجد في ما قدّمتُه ما يُضيء وضعَ القراءة في العالم الإسلاميّ ـ العربيّ، الذي أسهمَ الماركسيّون في ترسيخه وتعميمه. يتمثّل الخللُ الأساس الأوّل، على صعيد القراءة، في التّوحيد بين الشاعر ونصِّه الشّعريّ، تعاطفاً وتقويماً، سلباً وإيجاباً. فالقارىء المسلم العربيّ لا يقرأ النّصّ في ذاته، وإنّما يقرأ صاحبه: حياته الشخصيّة، انتماءاته الإتنيّة والدينيّة، المذهبيّة والسّياسيّة.

وعندما نقرأ الكاتب لا المكتوب، فإنّنا نضع أنفسَنا، بدئيّاً خارج الفهم، وخارج النّصّ الذي نقرأ. إعطاء الأوليّة لشخص الشاعر، وليس لشعره، عاملٌ أساسٌ يحوِّل الشعر إلى ظاهرةٍ اجتماعيّة سياسيّة ويُخرجُه من هويّته الفنّيّة ـ الجماليّة. هكذا نقتل الشعر ونُزَيِّف القِيَم، ونحوِّل الدّين إلى سيوفٍ تحزُّ رقبة الإبداع وتقطع أعناق الحرّيّات والحقوق، ونجعل، في الممارسة، من صغار الشعراء الذين «ينتمون» و «يخضعون» و «يطيعون» «شعراء كباراً».

والحقّ أنّ المشكلة في الثّقافة الإسلاميّة، منذ نشوئها هي مشكلة هذه القراءة التي لا ترى إلى النّصّ إلاّ بوصفه سياسةً وديناً، وظيفةً وسلطة. هكذا تصبح مشكلة الكتابة في اللغة العربيّة هي كيف نقرأ، لا كيف نكتب.

وتبعاً لذلك يمكن القول: قل لي ما القراءة في العالم الإسلاميّ ـ العربيّ اليوم، أَقُلْ لك ما الكتابة في هذا العالم. خصوصاً أن النّص، مهما كان عالِياً وكبيراً، يصغُر ويصبح نصّاً عاديّاً، في قراءة أشخاصٍ ذوي عقولٍ صغيرةٍ وضيِّقة.

ـ 4 ـ

آمَلُ أن تتيح هذه التّرجمة للشاعر العربيّ الشابّ أن يكتب فيما تختلج في أعماقه التّساؤلات العميقة الخاصّة بالكتابة : لماذا أكتب؟ ماذا أكتب، وكيف؟ هل يمكن الشّاعر أن يغيّر العالم إذا لم يكن هو نفسه قد تغيّر؟

وسوف يرى أنّ المشكلة الأولى ليست في «موهبته» وإنّما في «ثقافته»، ليست في «جسده» وإنّما هي في «رأسه»: فالشاعر الذي يعي أنّ كيانهُ كلٌّ لا يتجزّأ، تعقُّلاً، وصَبْوَةً، وحبّاً، لغةً وحساسيةً ورغبة، سوف يعي في الوقت نفسه أنّ الثقافةَ الدّينيّة، في مختلف تجلّياتها، إنّما هي نقيضٌ كاملٌ للشعر، ولا يقدر أحد أن يحَرِّرهُ إلاّ هو نفسه. ودون هذا التّحرُّر لن يكون شعرُه إلاّ إعادة صياغة لما كتبَه أسلافه، حتى عندما يتّخذ من الشعراء غير العرب، أسلافاً.

وآمل أن يكتشف أنّ الشعر الدينيّ لا مكان له في اللغة العربيّة تاريخيّاً. وأنّ شعر التّصَوّف ليس دينيّاً، وإنما هو انفجارٌ ضوئيّ تخطّى الانتماءات الدينيّة والمذهبية وأسّس الانتماء إلى فضاءات التّساؤل والبحث

والكشف، حيث لا تنفصل الحقيقة عن التّجربة وعن المُخَيّلة، وأحلَّ الانفتاح اللامحدود محلَّ المؤسَّسة المحدودة المُغلقة، ناظراً إلى الخالق لا بوصفه قوّةً تُدير العالم من خارجه، وإنّما بوصفه طاقةً خلاّقة مبثوثة في كلّ ذرّةٍ من مادّةِ العالم، وأنّ الروحَ هي الجسد، وأنّ الجسدَ هو الروح.

ليس هناك شعر في المطلق، وليس هناك دين في المطلق. هناك شعر هذا الشاعر، وشعر ذلك الشاعر. هناك في النّصّ، دينٌ واحد. لكن في الفهم والممارسة ليس هذا الدين الواحد واحداً. إسلام محمد عبده شيء وإسلام القرضاوي شيء آخر. للحلاج إسلام، ولابن تيميّة إسلامٌ آخر. الماركسيّة الماويّة شيء، والماركسية التروتسكية شيء، والماركسية الستالينية شيء آخر.

ـ 5 ـ

أحمد شاملو شاعرٌ إنسانيّ، فيما وراء الإيديولوجيّة. كان أوّلاً، ذاته وذاتيّته، بعمق وتأصُّل. هكذا أتقن الانفتاحَ على الآخر، واعياً أنّه لا يقدر أن يكون ذاتَه إلاّ بقدر ما يكون الآخر. واعياً أيضاً، أنّ الخلاّق، شعراً وفنّاً وفكراً، يتعلّم دائماً، ولا يقدّم نفسه إلى الآخرين بوصفه معلّماً. غير أنّه يحاول فيما يتعلّم أن يُضيء وأن يُشير، وأن يرمز، وأن يطرح الأسئلة على الأشياء لكي يزداد فهماً لها في علاقاتها ـ وفي مآلاتها. هكذا ليست قصائده تعاليم ـ وإنّما هي أماكنُ رحبةٌ وفاتنة للّقاء بينه وبين من يعرف كيف يقرأ. وهو مكانٌ للفرادات: مكانٌ لمزيدٍ من التّساؤل، والفهم، والاستقصاء، والإحاطة. فلا يطرح الشعر أسئلته على العالم وحده، وإنّما يطرحها كذلك على نفسه، كي يظلَّ يَقِظاً في حدوسه وفي رؤاه وفي رؤيته.

القصيدةُ أفقٌ، وليست رغيفاً. وهي بحثٌ متواصلٌ وليست يقيناً جامداً. وهي، بوصفها كذلك، وفي الوقت نفسه، سؤالٌ عن العالم، وسؤالٌ عن الإبداع، وسؤالٌ عن الشعر.

إنّها، معاً، رؤيةٌ في الاستقصاء، وفي التّجاوُز، في التّأصُّل وفي التّخطّي. في الاختراق وفي التّحَوُّل. في القطيعة وفي الوصل بين الكائن وما يكون. إنّها مكانٌ تتلاقى فيه الأزمنة ماضِياً وحاضِراً وآتياً.

أدونيس

باريس، أواخر أيلول 2022

المُقدِّمةُ

يُعدُّ «أحمد شاملو» شاعرًا، ومترجمًا، وصحفيًا، ومُعجميًّا، وكاتبَ سيناريو، وناشطًا سياسيًا وباحثًا في شُؤون الأدب. بالإضافةِ إلى كونهِ أحدَ أمناء رابطة كُتَّاب إيران.

قامَ حتى سن الخامسة والسبعين من عمرهِ، بالعديد من الأنشطة الثقافية، وعلى حدِّ قوله لديه مئةٌ وسبعونَ مؤلفًا لم يُنشرْ.

تلقَّى تعليمًا دراسيًّا مضطربًا، كونُ والدِهِ ضابطًا مُعارضًا في الجيشِ، وبسببِ ذلك كان دائمًا ما يُرسَلُ إلى مهمَّاتٍ في المناطق النَّائيةِ، حيثُ يضطرُّ إلى نقلِ عائلته معهُ من مدينة إلى أخرى.

في عام 1941 بدأ غزوٌ أنجلو ـ سوفيتي على إيران، كانَ شاملو في ذلك الوقت مُراهقًا يدافعُ عن القِوى الألمانيةِ، وبسبب نشاطاته أُعتقِلَ ورُحِّلَ إلى سِجنٍ روسيٍّ في مدينة «رشت»، وفيما بعد قال عن هذا الأمر:

«كنتُ في سِن المراهقة الفوضويةِ وما كنت أعرف شيئًا سِوى أنَّ روسيا وبريطانيا لا تريدانِ الحُريةَ لهذا البلد».

في عام 1946 قرأ شاملو في جريدة «بولاد» جزءًا من قصيدة (النَّاقوس) لأبي الشِّعر الإيراني الحديثِ «نيما يوشيج» واسمه الحقيقي «علي اسفندياري»:

«في نسيجِ هذا الشَّعبِ، يسري

لحنٌ بديعٌ كامنٌ،

يفسِّرُ تفشي هذا الهُتافِ:

إنَّ النِّظامَ القديمَ يتغيَّر»

نيما يوشيج ـ قصيدة الناقوس

سيقعُ «شاملو» في حُبِّ هذه القصيدةِ، ويذهب إلى «يوشيج» ويتتلمذ على يديه لعامٍ كاملٍ، وسُرعان ما ظهر التغييرُ على أسلوبِ كتابته، ليقومَ بتحديثٍ في الشِّعر الفارسي «النِّيمائيِّ»/ المعاصرِ، مبتكرًا ما يُعْرَفُ بالشِّعر الأبيضِ «سپيد» أو «الشِّعرِ الشَّاملوئيِّ» الذي يعدُّ حاليًا من أهم أشكال الشعر الفارسي المعاصر، المعروف بتقليدهِ الشِّعرِ الفرنسيِّ الأبيضِ أو ما صارَ يُسمَّى، اليومَ، بقصيدة النَّثرِ. وهكذا تخلَّى «شاملو» عن كلِّ نوعٍ من الأوزانِ الكلاسيكية المعروفة، وأصبحَ رائدًا لهذا الأسلوبِ الجديدِ.

كتبَ «شاملو»، الشِّعرَ قُرابة ستَّة عقودٍ، بشكلٍ مستمرٍّ، وأولى قصائدهِ حملتْ عنوانَ «نشيدُ رجل قتلَ نفسَهُ»:

«ما سَقَيتُهُ بالمَاءِ،

لَمْ أقرأ له الدُّعاءَ،

وضعتُ خَنْجرًا على عِنقهِ، وفي احتضارٍ طويلٍ ذَبحتُهُ،

قلتُ له: إنَّك تتكلمُ لغةَ العَدوِّ! ثمَّ ذَبحتُهُ!»

من هذا؟ ولماذا يستحقُّ القتلَ؟

هو ربَّما «شاملو» نفسه الذي بدلاً من أن ينشغل بالدِّفاع عن أوجاع وهموم النَّاس المضطهدة والفقيرةِ؛ كان يكتبُ قصائدَ مجردةً وشخصيةً وغيرَ ثوريةٍ. شاعرُ هذه القصيدة لم يفصلْ شِعرهُ، بعدُ، عن شِعر الشُّعراء كما ينبغي، لأنَّه كان لا يزالُ يعتقدُ بأنَّ للشَّاعر واجبًا واحدًا، هو الدِّفاع عن الإنسانِ في هذا العالمِ!

قضى «شاملو» شبابَهُ في فترةِ الإطاحة بسُلطة «رضا شاه»، وازدهار الماركسية في إيران. كانتِ الجبهة الوطنية الإيرانية ضدَّ البلاط البهلويِّ، والاستعمار البريطانيِّ. وفي السَّاحة الدولية، أيضًا، كانتِ الحربُ العالميةُ الثانيةُ قد انتهت للتوِّ، وثَمَّةَ شرخٌ قد وقعَ بينَ الدُّول في الشرق والغرب، بينما أعطى الخطابُ العالميُّ لليسارِ لونًا ووجهًا جديديْنِ للعالَم.

كان الشُّيوعيونَ الثَّوريونَ يعارضون «مرتزقة الرأسماليينَ الإمبرياليين»، ووقفَ «الفنُّ الملتزم» بحزمٍ أمامَ فنِّ العالم الرأسمالي، بينما نشأ الشُّعراء الشعبيونَ من قلب فئة الفنِّ الملتزمِ، ومن الحاجةِ إلى محاربةِ الرأسمالية والإمبريالية، جنبًا إلى جنبٍ، مع الكوارثِ التي خلَّفها غزو الفاشيةِ، في الوقت الذي مثَّلتْ فيه بعضُ مبادئ «النَّازية» في أوروبا غذاءً لبعضِ الشُّعراءِ الملتزمينَ.

لقد كان انتشارُ الأيديولوجيات المختلفةِ في حياة الفردِ ـ منذ النصفِ الثاني من القرن الثامن عشر ـ يشيرُ إلى تغييرٍ جذريٍّ في وجودِ الإنسانِ الحديث، انسجمَ بشكلٍ أو بآخرَ مع مقولة «ماركس»:

«كلُّ ما فعلهُ الفلاسفةُ هو تفسيرُ العالمِ بطُرقٍ مختلفةٍ، لكنْ، المُهمُّ هو تغييـرُهُ»

أدَّى هذا الموقفُ إلى ظهور مفكِّرينَ وسياسيين وفنَّانين ثوريينَ: أولئكَ الذين سَعى كلُّ واحدٍ منهم، بأسلحته الخاصةِ، إلى صنعِ تغيير حاسم في الوضع السَّائدِ بين مجتمعاتِ تلكَ الحِقبة.

«شاملو»، الثَّوري المعـارض، اليساريُّ الديمقراطي، والأديبُ الخالد، أهدى قصائده للمناضلين اليساريين الذين سُجنوا أو ماتوا في المعتقلات. واستمرَّ، بالإضافة إلى الشِّعر، عبرَ أنشطة صحفية وبحثية، بترجمة مؤلفات معروفة إلى اللُّغة الفارسية، وتقديمِ ترجماتِهِ بتسجيلاتٍ صَوتية، كترجمة وأداء «الأغنية الشرقية» وقصائد أخرى لـ «لوركا» أثارت إعجابَ الكثيرينَ. كما قدَّمَ بصوتهِ أناشيدَ شعريةً هادفةً للأطفال باللَّهجةِ العامية/ الدَّارجةِ ممَّا تركَ لهُ في عالم الأطفال بصْمةً سِحريةً كانوا يتغنونَ بها ويصنعونَ منها، ومعها، ذاكرةً.

تُرجمتْ بعضُ أعمالِ «شاملو» إلى اللُّغاتِ العربيةِ والسُّوَيْدية والإنجليزية واليابانية والفرنسية والإسبانية والألمانية والرُّوسية والأرمنية والهولندية والرُّومانية والفنلندية والكُردية والتُّركيةِ.

ويجدر هنا التذكيرُ بأكبرِ بحثٍ له، حول الثقافة الشَّعبية الإيرانية بعنوان الزقاق (كوچه)، وهو موسوعةٌ ثقافية ضخمة أمضى الرَّاحلُ عقودًا في تأليفِها وتجميعِها، ولمْ يطبعْ مِنها سوى أربعة عشر مجلدًا بالتعاونِ مع زوجته الأرمنية السَّيِّدةِ «آيدا سركيسيان»، التي أهدى لها قصائدَ كثيرةً، تقولُ عنها:

«إنَّ أجملَ القصائد التي كتبها أحمد، كانتْ قصائدَ تبدو معنونة لي

لكنَّها ثَوريَّةٌ بكلِّ ما للكلمةِ مِن مَعنىً»

«أحبُّكِ،اليومَ، أكثرَ مِنَ الأمسِ

وسأحبُّكِ، غدًا، أكثرَ مِنَ اليومِ

هذا ليسَ ضعفًا مني؛ إنَّها قوَّتُكِ»

ـ مقتبس من كتاب: كالدَّم في شَرايِيني، رسائلُ شاملو إلى آيدا ـ
مريم العطَّار

أحمد شاملو: عن «الالتزام»

محاضرة في كلية الآداب ـ تبريز

الشِّعر، اليومَ، ليس استمرارًا منطقيًا لشِعر الأمس! سابقًا كنَّا، عندَ تقييمِ الشِّعر، نأخذ بهذا المعيارِ البسيطِ، ونقولُ:

«الشِّعرُ كلامٌ مَوزونٌ ومتخيَّلٌ».

أمّا اليومَ فيدخلُ الشَّاعر إلى العالم برسالتِهِ. عالم معنى الحياةِ فيه: النِّضالُ. كان المحاربونَ في روما القديمة يقاتلون بالسُّيوف، وكانتْ حربُهم من أجل «خلاصهم» فقط. لكنَّ الفنَّانَ، اليومَ، يفترض أن يكون محاربًا وعند دخوله السَّاحة المليئة بالخوف والخداع، يُشهِرُ سلاحه الخاصَّ ليدافعَ عن الإنسان، أو بعبارةٍ أخرى:

الشِّعرُ، اليومَ، سِلاحُ الإنسانِ، لأنَّ الشُّعراءَ امتدادُ أغصانٍ من الغابة البشرية، لا أغصان الياسمين أو الخُزامى في قصائد الأولين. الشَّاعر، اليومَ، ليس غريبًا عن الآلام البشرية المشتركة، هو يبتسم بشفاهِ الناس، ويجبُرُ وجعَ الناسِ وانكساراتهم بعظامه. يقومُ الشاعرُ بثورةٍ، حينَ يكتبُ القصيدةَ، وإذا لم يكن هناك نية أو التزام، فليس لديه شعرٌ ليقولَهُ. إنَّ ثورتَهُ بأيِّ قصيدةٍ كانتْ هي ثورةٌ ضدَّ الوحشيةِ. ميرزاده عشقي، فَرُّخي، لوركا، روبير ديسنوس... كلُّ هؤلاء قُتلوا ـ بالرصاص ـ شُهداء حربِ المَشاعر.

نحن بشرٌ، والفرقُ بيننا وبين الحيواناتِ، على عكس ما يقال، ليس القدرةَ على النُّطقِ، لأنَّ الكلامَ مجرَّدُ أداةٍ للتَّعبيرِ عن الوجود؛ ولكنْ أيُّ وجودٍ؟!

إذَن، الذي يميز سِماتنا هو امتلاك قوة الفكر والإبداع، ومشاعر وعواطف عالية. لذلك فاقدُ العواطف قالبٌ فارغٌ من الإنسانيةِ يأخذ دور كائن متحرك يحتلُّ حتمًا مكانًا في الفضاءِ العامِّ، مزيجٌ من القرد والببغاء في تقليد الحركات والكلام.

الشَّاعرُ (صوتًا ودورًا) مثالٌ بشريٌّ يكشفُ عن المشاعرِ الخفيةِ التي لا يمكنُ بلوغُها أو إظهارُها. إذَن، هو المسؤول، وحاملُ رايةِ الإنسانية.

القوى التاريخية، والأسماء، تأتي وتذهب (أدوات السياسة القذرة وما بعدَها) ولكنْ، ما يشكِّلُ مُتحفَ الإنسانِ والإنسانيةِ هي الكتبُ والأعمال الفنية.

إنَّ اتِّباعَ السياسة يعني اتِّباعَ قانونِ الغابةِ، قانونِ الجحيم، قانونِ الشَّيطان.

عندما استحوذتْ الآلامُ ـ خلالَ الحرب العالمية الثانية ـ على قلوبِ المثقفينَ، وعندما ماتَ «ديسنوس» في سُجونِ النازية، في خضم هذه الآلام ولدَ الشِّعرُ الحقيقيُّ، وأشرقَ في الظَّلام كالشَّمسِ... علينا أن نركعَ أمامَ شُروقِ هذه الشَّمس فقط.

* مصدر نَصِّ المحاضرة: كتاب تاريخ تحليل الشِّعر الجديد، شمس لنكرودي.

ما الشِّعرُ؟

ولادةُ شاعرٍ

حول الفن والأدب، أحمد شاملو، حاورَهُ: «ناصر حريري».

يُعرِّفُ «شاملو» الشِّعرَ بهذه الجُملة الموجزة: «الشِّعرُ: تعريفُ كلِّ شَيءٍ مقيَّدًا بالزَّمانِ والمكانِ».

ويؤكِّدُ هذا التَّعريفَ أكثرَ عندما سُئلَ: «ما الذي يصنع الشاعر، قرّاؤه أم بيئته؟» ليجيب: «لقد عشتُ طفولةً صعبة، وخلال فترة شبابي عشت عُزلةً قاسيةً. لمْ يكن لديَّ من يريني الطَّريقَ الآمنَ من البئرِ [1]، ونتيجةً لذلك، ضاعتْ سنوات عمري الأولى. أكتبُ منذ أن كنت في العاشرة، لكنني في الخامسة والعشرين كتبت قصيدتي الأولى. لقد قضيتُ خمسةَ عشرَ عامًا كاملاتٍ دون كتابة، وبعد ثماني سنواتٍ، حينَ نشرتُ رابعَ ديوانٍ لي كان عليَّ ـ في النِّهاية ـ أن أشخِّصَ فشلَهُ أو نجاحَهُ بنفسي.

كان يمكنُ لبيئتي الأسرية أن تصنعَ مني أي شيء إلاَّ أن تجعلَ مني شاعرًا. بينما كانتْ بيئة المدرسة، بالنسبة إلي، مضلِّلةً وأشبهَ بالجَّحيم.

(1) اعتمدَ «شاملو» كلمة «بئر»، للدلالة على العوائق التي تعترض الطريق الآمن. [المترجمة].

لكنَّ شيئًا، آخرَ، أسَّسَ لنفسيتي الشَّاعرية، وأثَّر بشكلٍ حاسمٍ على حياتي؛ وذلك أثناء مشاهدتي، وبالصدفة، مراسم جَلْدِ جنديٍّ في مدينة «خاش» تحفُّهُ الأعلام والطُّبولُ والأبواقُ والتَّحايا العسكريةَ. كانتْ هناك حديقة عامة نتنزه فيها؛ والدي وأخواتي، وأنا. حيث تمتدُّ ثكنات ومهاجع الجنود ـ بلا جدران أو أسوار ـ إلى جنوبها. أمَّا السَّاحةُ التي تقام فيها المراسم خلال فترتي الصَّباح والمساءِ؛ فتقعُ بين الحديقة والمهاجع.

كنتُ في السَّادسةِ من عُمري، لكن ثقل القسوة التي شاهدتها ـ ولم أستطع فهمها آنذاك ـ حلَّت في قلبي حتى يومنا هذا. في تلك اللَّحظة قفزتُ لا إراديًا في أحضان أخواتي وصرخت وبكيتُ. مَضى على ذلك أكثر من ستين عامًا، لكنه يبدو كما لو أنه حدثَ بالأمس!

بكائي وصراخي كانا كفيليْنِ بإعادتِنا إلى البيت. ولكنْ، مشهدُ جندي مستلقٍ على مقعد، وجندي آخرُ يكبِّلُ عنقه، وثالثٌ يجلسُ على كاحليه، ورابعٌ يضربه بلا رحمةٍ بسَوِط جلديٍّ طويلٍ، هذا المشهدُ لا يختفي من أمام عينيَّ أبدًا. منظر ذلك الفم الذي ينفتح مع كل ضربةٍ ويعوجُّ، وصوتُ الأبواقِ والطُّبولِ التي ما كانتْ تسمح لي بسماع صراخِهِ، بقي عالقًا في ذهني، حتَّى محاولة النوم لم تمنعني عن الاستمرارِ بالبُكاء والصُّراخ، إلى أن وصل والدي أخيرًا وأسكتني بصفعتين على وجهي، فاندهشتُ، ونمتُ على الفورِ، كأنَّني نسيتُ تمامًا ما حدث!

بعد أربع أو خمس سنواتٍ، في مدينة «مشهد»، عندما أوصلني سوء معاملة المعاون في المدرسة الابتدائية للنُّفورِ من الحياةِ، تذكَّرتُ تلكَ القصَّةَ مَرَّةً أُخرى، لكنْ، بأيِّ عنادٍ تذكرتُها! لقد وجدتُ «نفسي» على ذلك المقعدِ الذي كانوا يضربونَ عليهِ الجنديَّ بالسَّوط، وكنتُ أنا الذي يُضربُ.

في المرَّةِ الأولى التي سمعتُ فيها قصَّة «هابيلَ وقابيلَ»، ظننتُ أنني شاهدتُها بنفسي في مدينة «خاش»! أحيانًا أجسِّدُ المَعنى الحرفيَّ للكراهيةِ بذلك المشهدِ. وأحيانًا يجسِّدُ لي الشُّعورَ بالبراءةِ. علاوةً على ذلك، اكتسبتُ من خلالِهِ فهمًا عميقًا وتعريفًا واضحًا للإذلالِ الذي هو نتاج التعصُّبِ الأحمقِ.

في تلكَ السَّنوات، اعتقدتُ أنني كنت أُجَبَّرُ حطامَ نفسي. اليومَ، أرى أن الأمر لم يكن مجرد جبْرٍ، بل كان نتاج ألم يديَّ المكبَّلتيْنِ، اللَّتيْنِ ما كان باستطاعتهما فعلُ شيءٍ. إنه شعورٌ مُرٌّ ومؤلمٌ ليس في الوسع مجاراتُهُ ولا الرجوعُ منهُ. إنَّه أشبهُ بأسطورةِ تورُّطِ «إبراهيم»: إمَّا عبادةُ الأصنامِ مع «نمرودَ»، أو تحمُّلُ نيرانِ ظُلمِهم. والنَّار لم تكنْ بردًا وسَلامًا دائمًا.

ثم يجيءُ صوتُ شيخِنا «سعدي الشيرازي» عندما يقول: «لأنِّي أرى الأعمى والبئرَ/ إذا جلستُ صامتًا فهذا إثمٌ».

ليتَ القضايا دائمًا بهذه البساطة! أنتَ الأعمى لا ترى أن جيرانك يعبدُ المَلكَ، يعبد ستالينَ، يعبد الأوثانَ، يعبد الأبقارَ، ويعتقدُ سياسيًّا أنَّك خائنٌ ودينيًّا أنَّك مخطئٌ، ويكرهُكَ!

لستُ في صَدد القولِ كفَّ عن سماع ضَميرِكَ الإنسانيِّ عندما يحكمك بأن تبلّغه بالخطأ الذي تعتقدهُ خطأً، كلاَّ، التنظيرُ ليس هو المشكلةَ. لكنْ، ماذا تفعل عندما يعذِّبُ أطفالُهُ أطفالَكَ وتصفُ زوجتُهُ زوجتَكَ بالعُهرِ ويكسِّرُ ابنهُ نوافذَ منزلِكَ بالحجارةِ؟ ماذا عليك أن تفعلَ؟

كسرُ الأوثانِ التي تُعبدُ والتي تمسكُ بيدِها خَنجرًا عاريًا، هي في كلمة واحدة: «انتحار».

لكنني أعرفكَ، أعرف بأنّك لن تسجدَ أمام الملكِ والصَّنمِ أو الحيوانِ الذي يعبدُ، ولا يمكنُك أيضًا احتمالُ مضايقاتهِ. إنَّها تراجيديا بالمَعنى اليوناني القديمِ: أنت الذي تتعذبُ والذي يعذِّبُكَ دفاعًا عن معتقداتهِ، كلاكما بريءٌ. مِن هنا تبدأ معاناةُ الإنسانِ ومرضُ المُجتمعِ.

بالبراءةِ والنَّقاءِ لا يمكنُ أن تكونَ بمأمنٍ من الإداناتِ «الكافكوية». وللأسفِ لا مفرَّ هناك. أيُّ إهانةٍ أكثر خِزيًا للإنسان، لهذا الكائنِ الحُرِّ مَرفوعِ الرأسِ من أن يُدانَ ويخانَ، وقبل الموتِ يتعرَّضُ لكلِّ أنواعِ الإذلالِ اللاّإنسانيِّ!

عندما ودَّعتُ رفاقي بعدما سَمعت في مكبرات الصَّوتِ في السُّجون خبر إعدامِهم، تذكرتُ ما حدثَ لي سابقًا، هم أيضًا ماتوا على نفس مقعدِ الجَلد والقسوة؛ الحدث اليومي الذي واجهته بالصُّدفةِ في سن السادسة طغى، تمامًا، على أساسِ عقليتي وكانتْ تلكَ نقطةَ البدايةِ.

أستطيعُ القولَ إنَّ أعمالي هي سِيرة ذاتيةٌ كاملةٌ. أنا أؤمنُ بحقيقةِ أنَّ الشِّعرَ ليس تصويرًا للحياةِ، بل هو الحياةُ نفسُها. يواجهُ القارئ قصيدةً صادقةً بجزءٍ من حياةِ الشَّاعر، وجزءٍ آخرَ من أفكارهِ ومعتقداتهِ.

بالنِّسبةِ للسِّياقِ العامِّ لشِعري، يمكنُني ببساطةٍ أنْ أقولَ إنَّ حياتي تتلخَّصُ بين القلقِ والخوفِ. كانتْ رؤيةُ الفقرِ والظُّلمِ والشُّحِّ الثَّقافيِّ بمثابة كابوسٍ يلاحقُني طوالَ حياتي. ليسَ لديَّ أيُّ شيءٍ آخرَ لأقولَهُ. الباقي كلُّه تفاصيلُ فرعيةٌ وهامشيةٌ. ربَّما سيتمكَّنُ الإنسانُ أخيرًا من تكوين عالمٍ يليقُ باسمه ـ ربَّما يومًا ما ـ فالفرصةُ لم تضعْ بعدُ. رغم أنَّها لن تسعَ ما تبقى من أعمارِنا، لكنْ، من المؤكَّدِ أنَّها لم تضعْ بعدُ. نحن نعيشُ في

أملٍ... اليومَ الذي يدركُ فيهِ الإنسانُ بأنَّه عالقٌ بوحشيةٍ لا أساسَ لها، وأن أولى مؤشراتها الطَّاعةُ العمياءُ، عندما يدركُ الإنسانُ ذلك فإنَّه لَيومٌ مباركٌ أن تكونَ أرواحُنا حاضرةً في فجرِ الاحتفاءِ بها.

سِيرةُ حَياةٍ

إعداد: «آيدا شاملو».

أحمد شاملو ـ الألقاب: (أ بامداد) (أ صبح)

ولدَ بتاريخ (11 ـ 12 ـ 1925) في ليلةٍ ثلجيةٍ كثيفةٍ، في البيت رقم 134 بشارع صَفي علي شاه في العاصمة الإيرانيةِ طهرانَ.

والده حيدر شاملو، ووالدته كوكب عراقي شاملو، وشَقيقاتُهُ: فروغ الزَّمان وقمرُ الزَّمان وشَمس الزَّمان وسُرور وسودابه.

كان والده ضابطًا في الجيشِ، يأخذُ أسرتَهُ معهُ في المهمَّات. قضى أحمد، وهو الطِّفلُ الثاني للأسرة، طفولتَهُ حتى سن المراهقة في السكن المؤقت في مدنٍ عِدَّة، منها: رشت، أصفهان، مشهد، أورميه، وكذلكَ في مناطق نائية مثل زاهدان، بيرجند، خاش، طبس، بَم وسميرم وغيرها.

1934 ـ 1931

- الصَّف الأول والثاني من دراستِهِ الابتدائيةِ، في مدرسة خاش البدوية.

1936 ـ 1933

- الصَّف الرابع الابتدائي في مدينة مشهد.

1938 ـ 1936

- الصَّف الخامس والسادس في زاهدان، وطبس، ومشهد، تعلَّم الحفاظ على الثقافة والتُّراث الفارسيينِ من أحد أقرباء والدته (ميرزا شريف خان) وبدأ رحلة الكتابة والتعبيرات العامية منذ ذلك الوقت.

1940 ـ 1938

- الصَّف الأول والثاني من دراسته الثانوية في بيرجند ومشهد وگرگان.

1941 ـ 1940

- عاد إلى طهران مع عائلته وأكمل الصَّف الثاني الثانوي.

1942 ـ 1941

- الصف الثالث في ثانوية إيرانشهر (شارع مخبر دوله) ثم في ثانوية فيروز بهرام.
- حرصًا على تعلم اللغة الألمانية، غادر ثانوية فيروز بهرام وانتقل إلى الصَّف الأول في المعهد الصناعي الإيراني ـ الألماني.
- تعلَّمَ اللُّغة الفرنسية في البيت، وهي اللغة العالمية الدارجة وقتذاك. بسبب مهمة والده في گرگان وتركمن صحراء، اضطر إلى ترك المعهد الصناعي وواصل الصف الثالث في ثانوية گرگان.

1942 ـ 1943

- كتب مقالاً بعنوان «عربة الزَّمن»، واعتُقلَ في طهران لقيامهِ بأنشطةٍ مناهضةٍ لقواتِ الحُلفاء.
- نُقلَ إلى السِّجن المركزي السِّياسيِّ التَّابع للشُّرطة في طهرانَ. وفي شهر مارسَ (آذارَ) نُقلَ إلى السِّجن السياسي السوفيتي في محافظة رشت الإيرانية، وأمضى عامًا كاملاً هناك ليُطلقَ سراحهُ في خريف عامِ 1944.
- حصلَ والده على بعثة للذهابِ إلى رضائية (مدينة أورميه)، وهناك اقتحم مقاتلو «الحزب الديمقراطي» منزلَهم، واحتجزوهُ مع والدهِ، وأوقفوهُ معصوبَ العينيْنِ أمامَ فرقةِ الإعدامِ لمدَّة ساعتيْنِ بانتظارِ أمرِ قائدهم للتَّنفيذ.
- تركَ الدراسة، وذهبَ إلى طهران ليعملَ في مكتبة لبيع الكتب.

1946 ـ 1947

- قرأ الجزءَ الأول من قصيدة النَّاقوس لـ «نيما يوشيج» وتغيرتْ رؤيته حول الشِّعر.
- في شُباط (فبراير)، أصبح محرِّرًا في الجريدة الأسبوعية «أديب».

1947 ـ 1949

- **تزوج من السيدة أشرف الملوك إسلامية في طهران، وأنجب منها أبناءه: سياوش، سيروس، سامان وساقي.**
- **نشر ديوانه الأول «الألحان المَنسية» بجهودِ إبراهيم ديلمقانيان** (لاحقا ندم كثيرا على نشر الديوان وسرعان ما تم نسيانه).

- اللِّقاء مع الشَّاعر والناقد مرتضى كيوان.
- اللِّقاء مع الشَّاعر نيما يوشيج.
- إصدار خمسة أعداد من الجريدة الأدبية ـ الفنية الأسبوعية «الحديث الجديد» بإشراف «عبدالرضا ناظر» و«أحمد شاملو».

1949 ـ 1950

- إصدار ثلاثة أعداد من مجلة «هنر نو ـ الفن الجديد» المحرر: أحمد شاملو.

1950 ـ 1951

- في سن الـ 21 عامًا كتبَ مقدمةً من 14 صفحةً لكتاب «أسطورة نيما يوشيج» وذلك للتعريف بالشاعر البالغ من العمر 49 عامًا وقتذاك، والذي يُعتبر أبَ الشِّعر الفارسي الحديث.
- اللِّقاء مع المخرج والشَّاعر فريدون رهنما.
- إعداد ونشر الجريدة الأسبوعية الأدبية «روزنه».
- الجريدة الأسبوعية «هديه» بإشراف أحمد شاملو وفرهنگ فروهي.
- إصدار عددين من «المجلة العلمية».

1951 ـ 1952

- إصدارُ مجلة «خواندنيها/ قراءات» وهذا الإصدار كان مواجهة بين المحرر اليساري والمحرر اليميني المتطرف في تلك المجلَّة.
- نشرَ ديوان «قطعنامه» بمساعدة «فريدون رهنما» ضمَّنه أربعَ قصائد من نتاجِهِ السابق.

1952 ـ 1953

- أصبح مستشارًا ثقافيًا للسفارة المجرية بطهران، لمدة عامين تقريبًا.
- ترجمَ فصلاً من رواية «1873» بعنوان A Man of Gold من تأليف Maurus Jokai.
- 1953 ـ 1954
- أصبح محررًا في جريدة «آتشبار».
- ترجم قصة «الجدار الحجري» للمؤلف البرازيلي Amado Jorge، نُشرت في مجلة «شيوه ـ الطريقة».
- نشر ديوان «الحديدُ والإحساس» بسعي من مشفق همداني.
- انضمَّ إلى «حزب توده الإيراني»، ذي التَّوجه الماركسي، لأقل من شهرين.
- حوكِمَ بتهمة التعاون مع جريدة «آتشبار»، ومصادرة أعمال مثل ترجمة رواية Gold in the Mire من تأليف Zsigmond Moricz، وترجمة Man A of Gold التي كانتْ قيد التنفيذ وجزءٍ من مخطوطة موسوعة «الزُّقاق».
- بعد فترة، اعتُقِلَ مجدَّدًا في مطبعة جريدة إطلاعات بموجب المادة (5) من الأحكام العُرفية، وسُجِنَ (سياسيًّا) بشكلٍ مؤقت في المحافظة، ثم نُقِلَ إلى سِجن «القصر» لما يقارب 14 شهرًا.

1954 ـ 1955

- نشر بالتعاون مع السيدة «أنجيلا باراني» ترجمة مسرحية «طُفيليُّونَ» للكاتب المجري Gergely Csiky.
- كتبَ قصة بأسلوب «قصة الأمير أرسلان»، وتم إتلاف هذه المخطوطة أثناء نقله إلى السجن.

- ضاع عددٌ من كتابات «شاملو» التي كانتْ بحوزة «مرتضى كيوان» عند القبض على الأخير، بما في ذلك أعمال (مقتلُ الصَّرصار) و (ثلاثةُ رجالٍ من ميناء بلا شَمس).
- كتب ملاحظات حول قواعد اللُّغة الفارسية في السِّجن.
- خلال هذه الفترة، قام بإعداد بحثٍ حول القصص والسياق اللغوي لملحمة «شاهنامه» للفردوسي، وقام بتعليم عددٍ من السُّجناءِ.
- شَعر شاملو بالاشمئزاز من سلوك زملائه السُّجناء، حيثُ رفضَ التوقيع على تعهُّد «التوبة» وكتب قصيدة عنوانها (رسالة/ ديوان الازدهار في الضَّباب).
- في الشتاء أُطلِقَ سراحُهُ من السِّجن.

1955 ـ 1956

- أخذ «تقي نقاشيان» خمس مخطوطات شِعرية من «شاملو» للنَّشر، منها قصائد طويلة (نشيد الذي ليس عدوًا ولا مدَّعيًا، وموت الشاماهي، ومسرحيات مثل الأموات يعودون لأجل الانتقام) ولكنه لم ينشرها ولمْ يُعِدْها إليهِ.
- نشر ترجمة رواية «Léon Morin، Priest»، للروائية Beatrix Beck.
- نشر ترجمة رواية «Rouille/ الصدأ» تأليف Herbert Le Porrier.
- نشر ترجمة رواية «بَرْزَخ» تأليف Jean Reverzy.

1956 ـ 1957

- نشر ترجمة مسرحية «عرس الدم» تأليف García Lorca Federico.

- نشر قصصًا بعناوين: «تحت خيمة الليل المُشتعلة، والمرأة خلف باب مفرغي».
- انفصلَ عن السَّيدة أشرف الملوك إسلامية، وترك منزله وأطفالَه.
- نشرَ مجموعةً قصصيةً بعنوان: النَّائب الأول، تتضمن ترجمة ثلاث قصص، «النَّائب الأول» تأليف (Rene Barjavel)، وقصة بعنوان «لعنة الله» تأليف (Robert Merle)، و«أمي التي ماتتْ» تأليف (Gorky Maxim).
- ارتبطَ بالسَّيدة الدكتورة طوسي حائري (كاتبة، ومترجمة، وأول امرأةٍ تعملُ في الإذاعة الوطنية الإيرانية).

1957 ـ 1959

- نشر ديوان «الهواء النقي» بتوقيع أ بامداد.
- نشر وقدم ملخصَ أساطير «سبعة أجساد» من «القِباب السبع» تأليف «نظامي كنجوي».
- قضى عدةَ أشهر في سجن الشرطة المؤقت، ثم في سجن «القصر» بسبب عدم دفع نفقة الزواج الأول؛ إذْ لم يكن وضعه المالي جيدًا.
- نشر كتابًا بعنوان «حافظ الشيرازي برواية أحمد شاملو».
- إصدار مجلة «آشنا» الأسبوعية بإشراف: أحمد شاملو.
- ترجم بالتعاون مع «عطا بقائي» أجزاءً من رواية «حفاة الأقدام Barefoot» تأليف (Zaharia Stancu)، ونُشرتْ في الملحق المجَّاني لمجلة «آشنا» الأسبوعية.
- نشر قصصًا قصيرة وقصائدَ متنوعة في مجلة «آشنا».

1959 ـ 1960

- نشر كتاب «قصة الديك الذهبي وثوب الملاك» (مستوحى من الكاتب تولستوي)، برسوم «فرشيد مثقالي».
- صنعَ فيلمًا وثائقيًا لمحافظتيْ سيستان وبلوشستان، بتكليف من شركة Ital Consult.
- كتب حواراتٍ، وسيناريو لأفلام.

1960 ـ 1961

- نشرَ ديوان «بُستانُ المِرآة».
- نشرَ كتاب «أساطيرُ اثنتين وسبعينَ دولة» في ثلاثة أجزاء، عبارة عن ترجمَةِ قصص قصيرة لمؤلفينَ مِن مختلفِ أنحاءِ العالم.
- إنشاء قسم السمعيات والمرئيات في وزارة الزراعة بالتعاون مع «هادي شفاييه» والشَّاعر «سهراب سبهري».
- انفصلَ عن السيدة «طوسي حائري» وتركَ منزله مجدَّدًا.

1961 ـ 1962

- تعاون في كتاب «عام كيهان».
- نشر «كلكامش، أقدم ملحمة بشرية» نثر فارسي: أحمد شاملو، رسوم «مرتضى مميز».

1962 ـ 1963

- اللِّقاء بالسَّيدة «آيدا سركيسيان».
- انفصال رسمي عن السيدة «أشرف الملوك إسلامية».

- اللِّقاء مع غلام حسين ساعدي في مكتب مجلة «الأسبوع» التي كان يعمل فيها.
- تعاونَ مع صانعي الأفلام وكتب حواراتٍ عديدة.

1963 ـ 1964

- عاش مع «غلام حسين» و«أكبر ساعدي» لفترةٍ في بيت واحد.
- نشرَ ترجمة رواية «Rouille/ الصدأ» بعنوان آخر، من تأليف Herbert Le Porrier.

1964 ـ 1965

- تزوج السَّيدة «آيدا سركيسيان» في 6 أبريل (نيسان). وبدأ الحياةَ المشتركة في منطقة «شيركَاه» بمدينة «مازندران».
- أعادَ طباعةَ ديوانه الثَّاني «الهواء النقي» وقدَّمه رسام الكاريكاتير «برويز شابور» (طليق الشاعرة فروغ فرخزاد) صديقه وزميله في مجلة «خوشه» التي كان يحرِّرُها.
- استمرَّ في كتابة الحواراتِ وسيناريو الأفلام السينمائية.
- ترجمَ عدَّةَ فصولٍ من رواية Zartonak «الصحوة» تأليف مالخاس هوفسبيان من اللغة الأرمنية، بالتعاون مع «آيدا سركيسيان»، وكان موضوعها الرئيسي حول الحركات الثَّورية الأرمنية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.
- نشر ديوان «آيدا في المِرآة».
- نشر ديوان «اللَّحظاتُ والدَّيمومة».

- نشرَ مقالاً هامًّا، بعنوان «ليس لدينا ناقد» في مجلة «فردوسي الأسبوعية» عدد 664.
- إصدار مجلة «انديشه وهنر/ الفكر والفن» الشهرية، الخاصة بـ «أ بامداد» وبإشراف: «ناصر وثوقي وشميم بهار».
- نشرَ مقالاً خاصًّا حولَ الشِّعر والفكر، وآخرَ عن الشِّعر المعاصر والفكر والفن (نُشر هذا المقال في مجلة الفردوسي الأسبوعية عام 1960).
- أجرى حوارًا مجلة «الفكر والفن»، حول الشِّعر والفن.

1965 ـ 1966

- تعاونَ مع صانعي الأفلام، وشاركَ بكتابةِ الحوار والسِّيناريو.
- مقابلة مع Girdhari Tikku، وهو لغوي كشميري وباحث أدبي وأستاذ الدراسات الفارسية والآسيوية في جامعة (بيركلي وإلينوي بأميركا)، وقد أجرى بحثه مع مهدي أخوان ثالث، أحمد شاملو، سَهراب سبهري، فروغ فرخزاد، محمود مشرف آزاد، وأمين بناني، سيروس طاهباز وحسن كامشاد.
- نشر مقالاً عن شِعر اليوم (مشروع مقدمة محاضرة في كلية الآداب ـ في تبريز)
- نشر ديوان «آيدا: الشَّجرة والخَنجر والذِّكرى!»
- نشر ترجمة رواية «81490» من تأليف: Albert Chambon.

1966 ـ 1967

- مقابلة «علي أصغر ضرابي» مع «شاملو»، بعنوان (الرجل الخالد في شِعر اليوم) نُشرت في مجلة «فردوسي» الأسبوعية.
- مقابلة مع المجلة الأسبوعية الفكرية بعنوان: (ابتسامة «آيدا» على

حياتي ابتسامة رحمة).

- شاركَ في أمسية شِعرية في الجمعية الإيرانية الأميركية.
- نشرَ ديوان «عنقاء في المطر».
- إصدار ثلاثة أعداد من مجلة «الفن والسِّينما» الأسبوعية بإشراف «شاملو»، و«يد اللّٰه روياىي»، وصودرتْ الأعدادُ الثلاثة بإنذار من وزير الإعلام آنذاك.
- كتبَ سيناريو قصير بعنوان (نذورات لأجل الأحياء).
- مقابلتان مع مجلة اميد إيران الأسبوعية؛ العدد 9 بعناوين: (سوق الشعر البائس محكوم عليه بالفَناء!) و(الذكرى المؤلمة لشاملو من الشعر الفارسي المعاصر).
- قام بإعداد «قصص الجدة» لبرامج الأطفال التلفزيونية.

1967 ـ 1968

- نشرَ مقالاً حول معرض لرسوم كاريكاتورية عن «أردشير محصص».
- شارك في جلسة تعريفية للكتاب والشُّعراء مع «فرح بهلوي» بدعوة من مكتبها الخاص.
- ترجمَ حكاية «قصة الماعز الثلاثة والناي السحري» للأطفال برسومات «والت ديزني»، ترجم حكاية «الثعلب والغراب» للأطفال رسمها «ضياء جاويد» وترجم أسطورة «دموع التماسيح» للأطفال، من تأليف «أندريه فرانسوا»، لم تُنشر بعدُ.
- نشر ثلاث مقالات في المجلة الأسبوعية «خوشه» بعناوين: (غاندي المثال الأعلى) مقال (شاعر الدم الإسباني لوركا، الرجل الجريح لا

يزال ينزف) و (مع الأصدقاء ـ رد المحرر على الرسائل).

- نشر قصة قصيرة بعنوان: (العصور المفقودة) في ملحق مجلة «خوشه» الأسبوعية.
- نشرَ مختارات شِعرية بعنوان (الهَواء والمَرايا) يحتوي على حوالي سبعين قصيدة من 6 دواوين منشورة سابقًا.
- نشر مقالتين عن (فروغ فرخزاد) بعنوان (إعجاز) و (الشاعرة الباحثة) في مجلة «فردوسي» الأسبوعية.
- نشر ترجمة مجموعة قصصية بعنوان (حكايات أبي)، تأليف الروائي الأميركي Erskine Caldwell، (الترجمة من النص الفرنسي).
- تعاونَ مع جمعية الكتاب في عقد لقاءات مع الكتاب والشُّعراء، ودُعيَ لإلقاء محاضرة في جامعة شيراز، ولكن بسبب عرقلة قوات السافاك، عُقدت المحاضرة في مكان آخر.
- ترجمَ أجزاءً من رواية (لا شيء سِوى الحقيقة!) Rien que la Verite تأليف Iouri Pilar، نُشرت في مجلة «خوشه» الأسبوعية.
- شارك في أمسية شِعرية بمدينة كرمانشاه تلبيةً لدعوة من طلاَّب الكلية.

1969 ـ 1968

- نشر كتاب «سِفر نشيد أنشاد سليمان»، ترجمة من النص الفرنسي Le Qantique des Qantiques وهو أحد أسفار التناخ والعهد القديم، يُنسب إلى النبي سليمان بن داوود.
- ترجم مقال «مسرح لوركا» بقلم «لويس بارو»، نشرت في مجلة «خوشه» الأسبوعية.

- دعتِ الحكومة «شاملو» وكتَّابًا آخرينَ للتَّعاون من أجل تأسيس «جمعية القلم»، لكن شاملو رفضَ ذلك.
- التَّوقيع على إعلان إنشاء رابطة الكتاب ضد دعوة إعلان الحكومة لتأسيس «جمعية القلم».
- المُشاركة في «أمسيات ليالي شعر خوشة» نظمها شاملو بمساعدة الدكتور «عسكري»، تحت اسم «المهرجان الكبير للشعراء»، بمشاركة 110 شعراء لمدة خمس ليالٍ في نادي بلدية طهران بشارع خانقاه.
- نشر مقالاتٍ حولَ الشِّعر أهمها «الشَّمس التي رحلت في الظَّلام» لـ«رحيل صمد بهرنجى»، ومقالاً آخر عن قواعد الشعر الجديد بعنوان «الإنسان الراقص!» في مجلة «خوشه» الأسبوعية.
- نشر قصة «الغربان السبعة» في كتاب أطفال، من رسوم «ضياء جاويد».
- شارك في أمسية شِعرية للجمعية الثقافية الإيرانية ـ الألمانية (معهد جوته).
- نشرَ قصَّةً للأطفال، بعنوان «الملاك»، مع رسوم «ژاله پورهنگ».
- شارك في أمسيةٍ شِعرية بكلية الفنون الجميلة ـ جامعة طهران.
- نشر مقالاً عن معاناة عدم معرفة اللُّغة الفارسية في مجلة «فردوسي».
- نشر مقالاً «كاريكاتير للعالم» في مجلة «الفكر والفن».
- إصدار مختارات من قصائده طيلة السنوات الماضية.
- شارك في أمسية شِعرية بمدينة «كرمنشاه» برنامج ليالي الشعر الثاني «البراعم» مع لجنة الشِّعر والأدب.
- إيقاف مجلة «خوشه» الأسبوعية، بإشعار رسمي من قوات السافاك.

1970 _ 1969

- نشر ديوان بعنوان «مراثي التُّراب».
- نشر ترجمة كتاب (ما الذي حدث حتى جعلتني أحبك؟) للأطفال، من تأليف «صموئيل مارشاك»، ورسوم «ضياء جاويد».
- عمل في التلفزيون الوطني لمدة ثلاث سنوات في إنتاج الأفلام الوثائقية والفلكلورية.

1972 _ 1970

- نشر كتاب «ملكة الظِّلال» ترجمة مستوحاة من قصة أرمنية ـ كتاب أطفال من رسوم «ضياء جاويد».
- نشر ترجمة مسرحية «الشجرة الثالثة عشرة».
- نشر ترجمة مسرحية «سيزيف والموت».
- نشر ديوان «الازدهار في الضَّباب».
- اللِّقاء مع الشاعر William Stafford.
- نشر ترجمة كتاب قصص «يدًا بيدٍ»، من تأليف Víctor Blaise Cendrars .
- نشر ترجمة كتاب «الأنف»، وترجم قصَّتين ومسرحيةً من تأليف Ryūnosuke Akutagawa (الترجمة من النص الفرنسي).
- نشر كتابًا بعنوان: (الابتسامةُ المُرَّةُ)، يحتوي على قصص قصيرة لمؤلِّفينَ من مختلفِ أنحاءِ العالم (الترجمة من النص الفرنسي).
- نشر ترجمة «الأساطير الصينية الصغيرة» (من النص الفرنسي).
- استلمَ درع جائزة فروغ فرخزاد، في قاعة اجتماعات جريدة «إطلاعات».

- نشرَ شريطًا صوتيًا لقصائد حافظ وغزليات الرومي ورباعيات الخيام مع غناء «محمد رضا شجريان»، وأشعار «نيما يوشيج» مع موسيقى «فريدون شهبازيان»، «أحمد بجمان»، «اسفنديار منفرد زاده».

1973 ـ 1974

- نشر ديوان «إبراهيمُ في النَّار».
- نشر مجموعة من الكتابات القصيرة بعنوان «أبواب وجدار الصين العظيم».
- نشر مجموعة قصصية هزلية مصوَّرةً، بما في ذلك ثماني قصص قصيرة لمؤلفين من مختلف أنحاء العالم (الترجمة من النص الفرنسي).
- نشر رواية Death Is My Trade، وهي رواية سيرة ذاتية فرنسية من تأليف Robert Merrill.
- سافر إلى إنجلترا لإجراء جراحة لفقرات العنق.
- نشر مجموعة قصصية، مختارات من ترجمة اثنتي عشرة قصة لثمانية مؤلفين (الترجمة من النص الفرنسي).

1975 ـ 1977

- سافر إلى إيطاليا لحضور مؤتمر «نظامي كنجوي» بدعوة من جامعة روما، رافقه «يدالله رويايي» وفي طريق العودة، فقد السائق السيطرة على السيارة وأسقطها في الوادي ليصابَ شاملو إصابةً شديدة نُقلَ على إثرها إلى المستشفى.
- سافر إلى أميركا وشارك في مؤتمر «أدب الشَّرق الأوسط اليوم» بدعوة من قبل Princeton Niversity والمركز الأميركي P E N.

- رجع إلى إيران، وبعد ثلاثة أشهر حوَّلَ إدارةَ أعمالِهِ لصديقهِ ع. باشايي. ومن شدة مضايقات النظام الحاكم غادر إيران وسافر إلى إيطاليا، وفي روما رقد في المستشفى.
- سافر مجدَّدًا إلى أميركا وبقي هناك لمدة عام.
- أصبحَ عضوًا فخريًا في قائمة الشَّرق الأوسط لمكتبة «جامعة برينستون». وعملَ في مكتبة جامعة برينستون في نيوجيرسي ومكتبة الكونغرس للبحث وجمْع نسخ نادرة من قصائد «حافظ».
- دُعيَ إلى مهرجان الشِّعر الدولي الخامس International Poetry Festival.
- شاركَ في أمسية شِعرية لطلاب «جامعة برينستون».

1978 ـ 1980

- نشر ديوان «خَنجرٌ على طبق».
- أعطى عدة محاضرات لطلاَّب الجامعات.
- تركَ أميركا وسافرَ إلى إنجلترا.
- نشر كتاب مختارات مقالات من تأليفه بعنوان «قمر في زُقاق».
- نشر كتابًا للأطفال من تأليفهِ بعنوان «جنية البحر»، «حكاية بوابة الحظ» مع رسوم «ضياء جاويد».
- أقام في إنجلترا لمدة عام ثم في نهاية عام 1979 عاد إلى إيران.
- نشر كتابًا من ثلاثة أجزاء بعنوان «الزُّقاق» وهو كتاب جامع المصطلحات والفلكلور والأمثال الفارسية والثقافة الشعبية الإيرانية.

- نشرَ ترجمة الأمير الصَّغير تأليف:Antoine de Saint ـ Exupery، وسجَّلَ الكتاب صوتيًّا مع رسوم وموسيقى لـ Gustav Mahler.
- نشرَ تسجيلاً صوتيًّا بعنوان «مستكشفي الشَّوكران المتواضعينَ» وهو مختارات من قصائدهِ التي نشرت على مدى أعوام حول قضية واحدة وهي إعدام المقاتلينَ والثّوار، مع موسيقى «فريدون شهبازيان».
- نشر ترجمة مشتركةً لكتاب بعنوان Let me Speak من تأليف Domitila Barrios de Chungara، مع «ع. باشايي».
- نشرَ ديوان «أغانٍ صغيرةٌ للغُربةِ».

1981 ـ 1983

- نشر مجموعة أعمال للأطفال في تسجيلات صوتية.
- نشر كتابًا مترجمًا لقصائد الهايكو اليابانية، ترجمة مشتركة مع «ع. باشايي». HAIKU /The Japanese Poetry since the beginning ـ translated and introduced by Ahmad Shamlu ـ A. Pashai
- نشر ترجمة رواية «في منتصف الليل» تأليف Gilbert Cesbron.
- رُشِّحَ لنيلِ جائزة نوبل للآداب للعام 1983.

1984 ـ 1988

- ترجمة وإعادة صياغة رواية The Power and the Glory تأليف Graham Green.
- صدور كتاب «الفن والأدب اليوم» مقابلة مع «أحمد شاملو» إعداد وتقديم «ناصر حريري».

- سافر إلى ألمانيا لحضور مؤتمر الإنترنت.
- تعرض لحادث سَير في طريق عودته من ألمانيا الشَّرقية وقتذاك.
- قراءاتٌ شِعرية في جامعات Nürnberg.
- دُعيَ من قبل جمعية القلم السويدية THE PEN الرابطة العالمية للكتاب، إلى ستوكهولم، لإقامة أمسية شعرية واللِّقاء بأعضاء الجمعية.
- العودة إلى إيران ونشر ترجمة قصص أطفال قصيرة تأليف Jacques Prevert.

1990 ـ 1997

- سافر إلى الولايات المتحدة الأميركية، وشارك هناك في أمسيات كثيرة، وحاضر عن الأدب الفارسي في جامعات مختلفة. كما دُعيَ من قبل جامعة «بيركلي» لتدريس دورة مكثفة في الشعر والأدب الفارسيينِ المعاصريْنِ.
- نشر ديوان «مدائح بلا صِلة» في السويد.
- ترجمة ملحمة جلجامش، ترجمة نصوص الألواح من كتاب بعنوان Les religions du Proche ـ Orient (التَّرجمة من النص الفرنسي).
- تبرع بالمبالغ التي حصل عليها من الأمسيات الشعرية لمساعدة ضحايا الزلزال إلى «جمعية التلاسيميا الإيرانية» بناءً على اقتراح «بابك بيات».
- سافر إلى السويد وشارك في أمسيات شعرية.
- نشر كتاب مختارات شعرية بعنوان «جدال في الظلام».

- نشر ديوان «في العتبة».

1999 ـ 2000

- نشر ديوان «حكاية قلق ماهان».
- صدور كتاب «اسمُ كلِّ قصائدك ـ حياة وشِعر أحمد شاملو» في مجلَّدين، بجهود ع. پاشايي.
- مُنِحَ جائزة Stig Dagerman في 5 يونيو من عام 1999، في السويد؛ تحت عنوان «شِعره يمسُّ قلبَ العالم».
- مُنِحَ جائزة «الكلام الحر»من قبل مؤسسة «الشُّعراء لكلِّ الأمم» في هولندا.
- نشرَ ترجمةَ رواية «الدون الهادئ» للكاتب الروسي الحاصل على جائزة نوبل في الأدب «ميخائيل شولوخوف» (في أربعة مجلَّدات).
- مع غروب مساء يوم الأحد 23 من يوليو (تموز) سنة 2000 توفي «شاملو» بقرية فرديس في مدينة كرج. وفي صباح يوم الخميس، ودَّعهُ آلافٌ من محبِّيهِ بقراءة قصائده بصوت عالٍ، ليُنقلَ جثمانُه بعد ذلك في سيارة الإسعاف (رقم: 968889) في طهران، حيث شيَّعهُ النَّاسُ من أمام مستشفى «إيران مَهر» ومن هناك نُقِلَ ليُدفنَ في مقام الإمام طاهر بمدينة كرج. وفي عصر سابع يومٍ على وفاته، الإثنين 29 يوليو (تموز) امتلأت القرية وبيت «شاملو» بأصدقاء ومحبِّينَ جاءوا لمواساة عائلته، بينما كان صوت الشاعر يتردد عبر أشجار القرية.

قَطَعْنامه

1951 ـ 1952

حتَّى البُرعمِ الأحمرِ في القَميصِ

إلى «آيدا» [1]

أحملُ صخرةً على كتفي
صخرةَ الألفاظ
صخرةَ القوافي
ومن التَّعرُّقِ في المغيبِ،
ذلك الذي يوقظُ اللَّيلَ
في عمقِهِ المُظلم
ويصبحُ بلونِ القارِ
في عَمى التَّابوتِ،
ويصبحُ اللّحنُ بلا نَفسٍ
من خوفِ انفجارِ الصَّمتِ،
أعملُ
أعملُ، أعملُ

(1) على الأرجحِ أُضيفَ هذا الإهداء في طبعاتٍ لاحقة، حيث لم يلتقِ الشّاعر بالسّيدةِ «آيدا» إلاّ بعد عشر سنوات من الطَّبعةِ الأولى لديوانِ «قَطَعْنامه». [المترجمة]

ومن صخرةِ الألفاظ أَبني جدارًا متينًا،
كي أبنيَ سقفَ قصيدتي عليه
وأجلسَ فيه، وأُسجنَ فيه...
هكذا أنا، أحمقُ ربَّما!
أحمقُ أعرفُ
أنَّ عليَّ حملَ أحجارِ سِجني على كتفي
مثلَ «ابن مريم» يجرُّ صليبَهُ،
لا مثلكم
تصقلونَ سوطَ جلاديكم
من عظامِ أخوتِكم
وتنسجونَ سوطَ جلاديكم
من جدائلِ شقيقاتكم
وترصُّون الجوهرةَ على مقبضِ سوطِ الطُّغاةِ
من أسنانِ آبائكم المُحَطَّمة!

أحملُ صخرةَ القوافي الثَّمينةَ على كتفي
وفي سِجنِ الشِّعر
أحبسُ نَفْسي

مثل صورةٍ داخل إطارٍ
غبيةٌ تلكَ الصورةُ التي ضاعتْ منِّي قبل أعوامٍ
لتضيعَ مِنْ عينيَّ البراءةُ الطُّفُوليةُ
أنا، اليومَ، أكبرُ سنًّا
أضعُ ابتسامةً على شفتيهِ
ونَظْرَتي لَهُ اليوم
تبدو نادمةً
على خطاياه!

صورةٌ لا تشبهني
بل تُشبهُ ذلك الذي نسيَ ابتسامتَهُ
وتقعَّرتْ وجنتاه، بحثًا عن الحياةِ
وتشقَّقَ جَبينهُ
من عبورِ أزمنةٍ متسلسلةٍ تَحت قيود العُبوديةِ
كان يمكنُ أن يكونَ «أنا» تمامًا!

«أنا» الذي أحملُ بصمتٍ
ـ على كتفي ـ

أحجارَ سجني

وأحبسُ سعيَ روحي

بين أربعةِ جدرانٍ مِنْ الألفاظِ

يتفجَّرُ صمتُها

في فراغِ الألحان

ويَسعى دونَ نظرةٍ من أعيُنهم

في صحراءِ الألوان...

كان يمكنُ أنْ يكونَ «أنا» تمامًا!

«أنا» الذي نسيتُ ابتسامتي

والآنَ وجنتيَّ

والآنَ جَبيني

هكذا أنا!

سجينُ جدرانِ ألفاظٍ،

بألحانٍ جميلةٍ بلا لغةٍ.

هكذا أنا!

صورةٌ محبوسةٌ في إطارها
محبوسٌ اِسمي في الشِّعرِ
وقَدمي في الأغلالِ
وغدي في أطفالي
وقلبي تحتَ قبضاتكم

في قبضةِ المحاولةِ معكم
تسقونَ دمَكم الحارَّ
إلى الجُنودِ في ميادين الإعدامِ
هؤلاء الذين يَرتَجفون من البردِ
وفي نظرةِ أعيُنِهم
انجمادُ حماقةٍ ما

أنتم،
المحاولةُ لتحطيمِ
جدرانِ سراديبِ حاضرِكم
تتكئون ـ لفرط الطمأنينةِ ـ على الكوعِ
تتذوَّقونَ عاجَ جماجمكم

مِنْ نافذةِ العَذابِ
تطلُّونَ على قصورِ الغَدِ المُشرقِ
أنتم،
وأنا،
أنتم وأنا البُناةُ،
لا الآخرونَ!

الخَنجرُ
على أكبادِهم
السِّجنُ
على أجسادِهم
الحَبلُ
حولَ أعناقِهم
وليسوا الآخرين الذين
يضيئون كوَّةَ الجلادينَ
في بُستاني
يخبزون الخبزَ للجلاد
من رمادِ أحفادنا

غدًا حينَ أُطمرُ تحتَ التُّرابِ الدَّامي
أخرِجوا صورتي من أسفلِ الجدار
من جدارِ بيتي
تلكَ الصُّورةُ التي أبتسمُ فيها بحماقةٍ
في الظُّلمةِ وفي الخَسارةِ
في الأغلالِ والأيدي
قولوا لها:
«أيَّتها الصُّورةُ التي لا شبيهَ لكِ!
علامَ تضحكين؟»
وعلِّقوها
مرَّة أُخرى
بطريقةٍ معكوسةٍ
على الجِّدارِ!

أنا في ذهابٍ مستمرٍ
معكم ولأجلكم
ـ لأجلكم لأنَّني محبٌّ لكم ـ
أذهبُ نحوَ المستقبلِ،

هكذا أحملُ الصَّخرةَ على كتفي

صخرةَ الألفاظ

صخرةَ القوافي

كي أُشيِّدَ سجنًا وأُسجَنَ فيه:

سجنَ المَحبَّةِ.

مَحبَّةُ الرِّجالِ

والنِّساءِ

مَحبَّةُ النَّاياتِ

الكلابِ والرُّعاةِ

مَحبَّةُ الأعيُنِ المرتقبةِ

وضرباتِ أصابع المطرِ البِلَّوْرية

على زجاجِ النَّافذةِ

مَحبَّةُ المصانعِ

القبضاتِ

البنادقِ

مَحبَّةُ الحصانِ الكهلِ

بخطوطِ فقراتِهِ

بمنحنياتِ بطنِهِ
وأنهُر الدِّماء من ضرباتِ السَّوطِ على جسدِهِ

مَحبَّةُ دموعِكِ
على وجنتيَّ
وفَرحتي
على ابتسامتكِ
مَحبَّةُ الصدمات
القُرَّاصِ والزَّعترِ البرِّيِّ
ودمِ اليخضورِ
على جُرحِ ورقةٍ مَسحوقةٍ
مَحبَّةُ بلوغِ المَدينةِ
وحبِّها
مَحبَّةُ ظلِّ جدارِ الصَّيفِ
والسَّاقِ التي تحتضنُ أُختَها وقتَ البَطالةِ
مَحبَّةُ زهرةِ المنديلِ
حينَ ينفضُ بها الغبارُ عن الأحذية
والقُبَّعاتِ حينَ تُغسلُ فيها المناديلُ

مَحبَّةُ حقولِ الأرزِّ

الأقدامِ

والعَلَقاتِ

محبَّةُ كهولةِ الكلابِ

ونظراتِهم المتوسِّلةِ

لتـُركلَ على أعتابِ دكاكين الجزّارين

لتموتَ مِن ظَمأ الجُّوعِ

لأجلِ رميةِ عَظمةٍ على شاطئٍ بعيدٍ

مَحبَّةُ الغُروبِ

برعدِ غيومهِ،

ورائحةِ القَطيعِ بينَ أشجارِ الصَّفصافِ

مَحبَّةُ مَعاملِ نسج السِّجَّادِ

الهمسِ الخافتِ للألوانِ

نبضِ دمِ الصوف في أوردةِ عُقَدِ الخيوطِ

وروحِ تلك الإصبعِ الرَّقيقةِ

حينَ تُبرى

مَحبَّةُ الخريفِ

بِلمعانِ سمائِهِ

مَحبَّةُ نسوةِ الرَّصيفِ

بيوتهنَّ

عشقهنَّ

خجلهنَّ

محبَّةُ الأحقادِ

الخناجرِ

والغَدِ

محبةُ تسارعِ الحصانِ

حين يجرُّ البراميلَ الفارغةَ

على مُنحدراتِ بلاطِ السَّماءِ

مَحبَّةُ رائحةِ سَماءِ الميناءِ المالحةِ

تحليقِ البطِّ

فانوسِ القواربِ

بِلَّورِ الموجِ الأخضرِ

بأعيُنِها المُضيئةِ ليلاً

مَحبَّةُ الحصادِ وهمساتِ المنجلِ

مَحبَّةُ صراخِ الآخرِ
محبةُ الذَّبيحةِ على طاولةِ الجَّزارِ
لا تزالُ دونَ مُشترٍ
تفسدُ
وتتفسَّخُ

مَحبَّةُ الأسماكِ الحُمرِ في الأحواضِ
محبةُ السُّرعةِ والتَّأمُّلِ
مَحبَّةُ النَّاسِ
الذين يموتونَ
يصبحون كالماءِ
وفي جَفافِ التُّرابِ يُغرسونَ
مجموعةً تِلْوَ أُخرى
يُدفنونَ، يُدفنونَ، يُدفنونَ
مَحبَّةُ الصَّمتِ والهمسِ والصُّراخِ
مَحبَّةُ سِجنِ الشِّعر
بسلاسلهِ باهظةِ الثَّمن
سلسلةُ الألفاظِ
سلسلةُ القوافي

وأنا ما زلتُ في ذهابٍ دائم

في سجنِ ذاتي

أغلالٌ بقدميَّ

بريقٌ في عينيَّ

ويقينٌ يمشي معي كتفًا بكتفٍ

مِنْ برعمِ ابتسامةِ صورةٍ مغفلٍ على جدارِ الأمسِ

حتَّى البُرعمِ الأحمرِ في القَميصِ

على مصطبةِ الإعدام

في الغَد!

هكذا أنا!

جليسُ قلعةِ الملاحم المتغطرسةِ

كعبُ حصانٍ بريٍّ مغرورٍ وغاضبٍ

على بلاطِ زُقاقِ القدَرِ

مفردةٌ تهبُّ

في طوفانِ النَّشيدِ الكبيرِ في التَّاريخ

مَسجونٌ، في سِجنِ حقدٍ ما، بلمعةٍ في خَنجرِ انتقامٍ ما

وبرعمٌ أحمرُ في القميص

على طريقِ الغَدِ لعَبيدِ اليومِ.

نَشيدُ رجُلٍ قَتَلَ نفسَهُ

ما سَقَيتهُ بالماءِ،
لَمْ أقرأْ له الدُّعاءَ،
وضعتُ خَنْجرًا على عِنقهِ،
وفي احتضارٍ طويلٍ ذَبحتُه،
قلتُ:

«إنَّك تتكلمُ لغةَ العَدو»
ثمَّ ذَبحتهُ
كانَ يحملُ إسمي
ولا أحدَ مثلهُ كانَ قريبًا منِّي،
ثمَّ جعلني غريبًا عنكم،
معكم يا مَنْ حَسرةُ الخُبزِ
تضربُ قَدمَها في عروقِكُم الخائرةِ

ثمَّ جعلَني غريبًا

عن نفسي

تلكَ التي كِسوَتُها تتحسَّرُ على قميصٍ

وأرادتْ في عُزلتِها أن تُعلِّقني على أربعةِ مساميرَ

لكنَّني لَمْ أعطِها الفرصةَ

وضعتُ الخَنجرَ على نَحرِها

غَرغرتْ أغنيةٌ مَنسيَّةٌ كانتْ في جوفِها

وفي احتضارٍ طويلٍ

بردتْ

والدَّمُ سالَ مِنْ نحرِها على الأرضِ...

قطرةٌ واحدةٌ

هكذا!

دماءُ الأغاني المنسيةِ

ليستْ دماءَ قوْلِ «لا»

دماءُ قاديكلا [1]

ليستْ دماءَ قوْلِ «لا أريد»

(1) قاديكلا: قريةٌ بالقرب من محافظة «مازندران». كان الإقطاعيون، في أربعينيات القرن العشرين، يرسلون إليها قوّاتهم لقتل المُزارعينَ فيها. [المترجمة]

دمُ «المَلكِ الذي له أربعونَ ولدًا»

ليستْ دماءَ «أمةٍ سُفِكَتْ وأزاحتْ تاجَ المَلكِ عنْ رأسهِ»

دمُ الفَوضى

قطرةٌ واحدةٌ

دمُ اللاَّمُبالاَة، انحناءِ الرَّأْسِ،

دَمُ العَسْكرِ

ـ عِندَما يقِفُون بانتظارِ أمرِ إطلاقِ النَّار ـ

دَمُ الأمس

دَمُ إرادةٍ بلونِ الجَهل

بلَونِ آباءِ «دارون»

بلونِ دَمِ الخَروفِ المذبوحِ قُربانًا

بلونِ دَمِ العَميد «زنكَنه»

لا بلونِ دمِ أوَّلِ شهرِ الضَّبابِ

ولا بلونِ دمِكم جَميعًا

ذلكَ أنّي لم أقدِّر حبَّكم جيِّدًا!

كانَ يتحدَّثُ بلُغةِ العَدو

رغم أنَّ نظرتَهُ بدَتْ ودُودةً

وهذا ما جَعلني أذبحهُ

كانَ في أحلامِه، قالَ:

«تعالْ لنكونَ خفقةً في رايةٍ، رايةِ عَسكرِ أروميه!»

قلتُ: «كلاًّ!

لنكنْ خَنجرًا

على حناجرِهم!»

قالَ: «لا بدَّ أنْ نَشنقَهم!»

قلتُ: «لينزلونا مِنْ حبلِ المشنقةِ أولاً!»

قالَ: «يَجبُ أنْ نقبِّلَ شِفاهًا»

قلتُ: «شِفاهُ ثُعبانِ الهزيمةِ، الفضيحةِ!»

ارتَعشَ وخرجَ مِن أحلامهِ

ضَحكتُ

واستاءَ،

أدارَ لي ظَهرهِ

أريتُه «فرانكو»

وتابوتَ «لوركا»

وعصارةَ دَمهِ على جُرحِ حَلبةِ مصارعةِ الثِّيرانِ

لكنَّه أصبحَ في حلمهِ

وغنَّى أغنيةً لَمْ أعدْ أتذكَّرها

ثمَّ انطفأَ فجأةً

بَدا مريبًا مِنْ غُربةِ صوتهِ

ذلك أنَّ صدى صوتهِ أشبه برنينِ سلاسلِ العَبيد

سَقطَ في الشَّكِّ

وأنا في صَمتٍ

ذَبحتُهُ...

ما سَقَيتُهُ بالماءِ

لَمْ أقرأْ لهُ الدُّعاءَ

وضَعتُ خَنجرًا على عِنقهِ

وفي اِحتضارٍ طويلٍ

ذَبحتُهُ

ـ ذبحتُ نَفْسي ـ

وفي أغنيةٍ مَنسيَّةٍ

بدأتُ بتكفينِهِ

دَفنتُهُ في قَبو ذاكرتي

ماتَ

ماتَ

ماتَ

والآن:

هذا أنا

عبدُكم

يا آلهةَ أساطيري!

هذا أنا

أَيَّتُها الرؤوسُ المبعثرةُ!

مؤلِّفُ أغنياتِكم وتحاياكُم.

هذا أنا

سريرُ أرَقِكم

وأنتم...

أنتم

الرَّاقصونَ على فانوسِ أمنياتي.

هذا أنا

وأنتم

ودَمُ «أصفهان»

دَمُ «عبادان»

يضربُ الدُّفُّ في قلبي
وشهقةُ رجالِ ميناءِ «معشورَ» الحارَّةُ
تنفخُ البُوقَ
في شُعوري الغاضبِ.
هذا أنا
وأنتم
ـ يا رجالَ أصفهانَ! ـ
نثروا دماءَكم الحمراءَ في وجنةِ ابنةِ المَلكِ
على سِتارةِ غُرفَتي
هذا أنا، الآنَ
وأنتم
ـ مرضى العَملِ! ـ
تضعون سُمَّ الدَّمِ الأحمرِ، للإضرابِ، بلا حيلةٍ
بدلَ أتعابِكم.
هذا أنا
وأنتُمْ
ـ رفاقَ القاجارِ ـ
تنبتُ قطراتُ الفَقرِ على جِباهِكم

في ثقلِ حُمّى البطالةِ.

هذا أنا

مع قبرٍ في قَبوِ ذاكرتي

دفنتُ فيهِ نَفْسي الغريبةَ عنّي

في تابوتِ أغنياتٍ مَنسيةٍ

نَفسي الغريبةُ

التي وضعتُ الخَنجرَ على عُنُقِها

وذبحتُها في احتضارٍ طويلٍ

ثمَّ ما سقيتُها بالماءِ

ولَمْ أقرأْ لها الدعاءَ!

وضعتُ خَنجرًا على عُنقِها

وفي اِحتضارٍ طويلٍ... ذَبحتُها

هذا أنا، الآنَ!

النَّشيدُ الْعَظِيم

إلى «شين ـ تشو»
الرَّفِيقُ الكوري الْمَجْهُول.

شين ـ تشو!
أَيْن الحَرْبُ؟
هَلْ فِي بَيْتِكَ
في كوريا
فِي أَقْصَى آسيا؟

لَكِنَّك
يا تشو
أخي الْأَصْفَرُ!
لا تَفصلْ، أَبَدًا،
بَيْن كوخكَ الطِّيني وبَيْن منزلي الكبيرِ

إنَّه لَواضحٌ: عدوُّكَ عدوِّي!

وذلكَ الأجنبيُّ الذي شَربَ وثَمِلَ مِنْ دَمِك

شَربَ مَرَّةً دمَ أبنائيَ القاني

حَسب إرادتهِ

لا يغسلُ الْيَدَيْنِ!

أين أنتَ؟

قَرُب القَصَب المتشابكِ بجِوَارِ نَهْر هان؟

قَرُب مستنقعات شَاطِئِ النَّهر الأَصفَر السِّريِّ؟

شن ـ تشو!

أين أنتَ، إذْن، أين خندقُك؟

خلفَ أَيِّ سَاحَةِ قِتَالٍ:

وراءَ الجَبَلِ العَالي قُربَ «جنسان»؟

عندَ الرِّمَالِ الخَطِرةِ فِي «تشوزن»؟

أَمْ تدافعُ عنْ مدينةِ «سوون» المحتلةِ؟

سوْف تُقَاتِلُ في الحقولِ

أو تحت سُقوفِ الطِّين

التي حوافُّها

تُشْبِه عَيْن عروستكَ المَائِلَة؟

أو تحت الشَّمْس السَّاطِعَة

أو في الصَّباحِ

حين أنثى طائرِ الْمَطر تغرِّدُ

بِصوتٍ عَالٍ على شَجرةِ القِرْفَةِ القَديمَةِ

أو في منتصَفِ اللَّيلِ حين تتفتَّحُ الأزهارُ في غابةِ

هه ـ اي ـ جو؟

أينما وجِدَ جسدُكَ، هُنَاك السَّلام وقلوبُنا معكَ

هناك حيثُ يُلقى بكَ كقطعةِ حَجَرٍ في السَّماءِ المُمتلئة بالقَنابلِ

وتَقَعُ كقمامةٍ

في البحرِ الغريبِ القذرِ آكلِ لحُومِ البَشرِ الدَّنيءِ

معكَ قلوبُنا

لكن يا رفيقي!

شن ـ تشو

لا تنسَ واقرأ دائمًا

فِي الفَتْحِ والهزيمَةِ
أينما تصافحتْ الأَيْدِي
اقرأ النَّشيدَ العَظِيمَ:

نَشيدٌ حَيٌّ لرفاقٍ مَجهولينَ
الحُلفاءُ البَيضُ، شُجعانُ فرنسا
وَقَفُوا أمام كومَةِ النَّارِ وقَرأوا.

شبابُ أثينا
بِضرباتِ سَوطِ العَدوِّ
والجَزَّارُ آكلُ الميتةِ
سَوْف يَقرأونَ بِصَوتٍ عالٍ النَّشيدَ الحَيَّ
على المساجين الأحرارِ والسُّجونِ في الجنوبِ.

نشيدٌ حَيٌّ
فيه الخَسارَةُ والفَوزُ
يجبُ أَنْ تَقرأ وتَمضِي
تَقفَ وتَقرأ وتَبقَى!

شن ـ تشو

اقرأ،

اقرأ!

نَشيدَ الأحْرَار الكبَار

نَشيدَ الأَعْمَال الثَّمينة

نَشيدَ الأَعمالِ المتعلِّقة بالبشرِ

اقْرأ نشيدَ الصُّلح

أَناشِيدَ الرِّفَاق المنسيِّينَ

أَناشيدَ كارثةِ «بلزن» و«داخاو»

أَناشيدَ كارثةِ «وي يون»

أَناشيدَ كارثةِ «وادي القمر المُمطرِ»

أَناشيدَ عقولِ أَدُولف هتلر وضعَها ثعبانُ أكتاف الفاشية

أَناشيدَ القواتِ المسلحةِ لحِفظ السَّلام

مِنْ عقولٍ عاصيةٍ لـ «داونيج ستريت»

وجَهَّزوا حلاوةَ موتِ بائعي العَبيدِ في قَرننا

اقرَأ النَّشيدَ الأخيرَ يا رفيقي دونَ أَنْ تَراهُ

شن ـ تشو

اقرأ يا أخي، الأصفرُ!

قَصِيدَةٌ لإنْسَانٍ

في «بهمنَ» [1]

أنتَ لا تعرفُ الصَّرخةَ العالية
حِينَ لا تِئنُّ تَحْت التَّعذيبِ
يا لها مِنْ رابية!
أنتَ لا تَعرفُ عَيْنَيْ المحكومِ المُطمئنِّ التي لا ترمشُ
كيف تُحْدِّقُ في عَيْنَيْ حَاكِمِ الخَوْف
يا لهُ مِنْ بحرٍ!
أنتَ لا تَعرفُ الموتَ
عندما يَهْزِمُ الإنسانُ الموتَ
يا لها مِنْ حَياةٍ!
أنتَ لا تَعرفُ الحياةَ، ما هو الْفَتْح
مَنْ هو «اراني» [2]

(1) بهمن: الاسمُ الفارسيُّ لشهر (شباط ـ فبراير) وهذه القصيدة بمناسبة 14 من شهر «بهمن»، يوم قُتل «د. تقي اراني». [المترجمة]

(2) تقي اراني: كان ناشطًا سياسيًا ومنظرًا ماركسيًا وناشرا إيرانيًا ومبادرًا فكريًا لـ«حزب توده الإيراني». كما كان أحد الأعضاء البارزين في المجموعة المكونة من 53 شخصًا الذين تم اعتقالهم تدريجيًا ولعدة سنوات بتهمة اتباع أيديولوجية شيوعية، سُجنوا بسجن «القصر» وقُتل بعضهم على يد الضباط بأمر من «رضا خان بهلوي». [المترجمة]

ولا تعرفُ حِين ملأتَ قبرهِ باللَّحم والعِظَام

وازدَهَرَتْ شفتاكَ بابتسامةٍ هادئةٍ

وانفَجَرَتْ حنجرتكَ بضحكةٍ مُدَوِّيَةٍ

وعندما ظننتَ

ـ حين تَفْصِلُ لَحمَ حياتهِ عنْ عِظَامِ جَسَدِهِ ـ

كيف يَبدأ بالضَّربِ على طبلةِ حياتهِ الحمراءِ

في النَّبضِ تحتَ الماءِ

في قلب «عبادانَ»

عندما بدأ بملحمةِ أشعارهِ

بِثلاثة أفْوَاه

مِئَةِ فَمٍ، ألفِ فَمٍ

بثلاثمئةِ ألفِ فَمٍ

بقافية الدَّمِ

بكلمةِ الإنسانِ

بكلمةِ الإنسانِ والحركةِ وَالسُّرعةِ

بِمَسِيرَةِ الغَدِ

عَندما تَمشي

تَقَعُ وتَقِفُ مُجَدَّدًا

تَقِفُ وَتَقِفُ وَتَقَعُ
ثُمَّ تَقِفُ وَتَقِفُ
وبسُرعةِ انفجارِ الدَّمِ في النَّبض
يأخذُ خطوةً
ويَسِيرُ على التَّاريخ،
على «الصين» على «إيران» و«اليونان»
الإنسانُ الإنسانُ الإنسانُ الإنسانُ
البَشَرُ الذين يَرْكُضُون كَالدَّم، مُسْرِعِينَ
في شريانِ التَّاريخ،
في شريانِ «فيتنام»، في شريانِ «عبادان»
الإنسانُ الإنسانُ الإنسانُ الإنسانُ البَشَرُ
يُفِيضُونَ مثلَ فَيَضَانٍ وراء السَّد
في مَصَارِعِ التَّاريخِ العظيمِ
مِنْ فوق آلَافٍ مِنْ جُدَران القَوَافِي:
قَافِيَةٌ منهوبةٌ
قَافِيَةٌ في الظَّلامِ
قَافِيَةٌ خَفِيَّةٌ
قَافِيَةُ الجَرِيمَةِ

قَافِيَةُ السِّجنِ أمامَ الإِنسانِ

والقافيةُ التي وَضَعَهَا «أَدُولف رضا خان»

بعدَ كُلِّ سَطرٍ يَنْتَهِي بـ «نون»:

قَافِيَةٌ لَزِجَةٌ قَافِيَة الدَّمِ!

السَّيلُ الصَّاخِبُ

عَبرَ مِنْ جِدَارِ آلَافِ القَوافي الدَّمَوِيَّة:

دَمُ الإِنسَانِ، دَمُ الإِنسَانِ

الإِنسَانُ، الدَّمُ، الإِنسَانُ

وعبرَ مِنْ كلِّ إنسَانٍ غارِقٍ فِي بَحرٍ مِنْ الدَّمِ

ومِنْ كُلِّ قَطَّرةٍ سالَ ألفُ إنسَانٍ:

إِنْسَانٌ بلا مَوْتٍ

إِنْسَانُ «بهمنَ»

إِنْسَانُ «بوليتزر»

إِنْسَانُ «جاك دوكور» [1]

إِنْسَانُ «الصِّين»

إِنْسَانُ الإِنْسَانِيَّة

---

(1) جاك دوكور وجورج بوليتزر وجاك سولومون، أعدمَهم النُّظامُ النَّازيُّ في ألمانيا. [المترجمة]

إِنْسَانُ كُلِّ قلبٍ
فِي كُلِّ قَطْرَةِ دَمٍ إِنْسَانٌ... كُلِّ قَطْرَةِ دَمٍ،
إِنْسَانٌ كُلِّ قَطْرَةٍ،
مِنْ كُلِّ قَطْرَةٍ، نَبْضَةٌ
وفِي كُلِّ نَبْضَةٍ، حَيَاةٌ
هُوَ إِنْسَانٌ مُطْلَقٌ

وقَصِيدَةٌ هي حَيَاةُ كُلِّ إِنْسَانٍ
يَقبل بقافيةٍ حمراءَ
إنَّ «الْمَسِيحَ» أَبَدِيَّةُ أَربعةِ مساميرَ في التَّاريخِ.
والبشرُ المقيَّدون بالسَّلاسِلِ
التَّاريخُ يترنَّمُ على أَلحانِ طَبَلَ دمائهم
والحَواريُّون يَحْكُمُون العَالِمَ بِدَينٍ وَاحِدٍ
وَقَيْءُ كُلِّ دَمٍ مِنْ فَمِ أَيِّ مَعْدُومٍ
يوقِفُ أَيَّ مَلَكٍ عَرَضيٍّ
على بَوَّابَةِ الجنَّة
وكُلُّ قطرةٍ مِنْ دَمِ أَيِّ إِنْسَانٍ وَاقِفَةٌ أمَامِي
إِنَّها سَيلٌ يدمِّرُ الجسرَ وراءَ أيِّ مُسْرعٍ في التَّاريخ

وثقوبُ كُلِّ الرَّصاصِ على كلِّ جَسَدٍ
بَوَّابَةٌ يعبرُ مِنْ خلالِها
ثلاثةُ أشخاص، مئةُ شخصٍ، ألفُ شَخصٍ أو ثلاثمئةِ ألفِ شَخصٍ
نحو بُرجِ الغَدِ الزُّمرُّديِّ
واختراقُ الرَّصاصِ في كلِّ لَحمٍ
هو فَمُ كلبٍ سينهشُ العاجَ الثَّمِينَ لِلْمُلْكِ
في مقبرة العُظَمَاءِ
ولقمةٌ لفمِ أيِّ بَائِسٍ
كالمَلِكِ «رضا خان»!
إنَّها لِشَرفٌ له
والذي لأجل ثَوبٍ واحدٍ على جسدِهِ
وثَلَاثَةٌ في الصُّنْدُوقِ
والذي لأجل لُقْمَة في الفَمِ
وثَلَاثة أَرْغِفَة في الكَفِّ
والذي لأجل بَيتٍ وَاحِدٍ فِي المدينةِ
وثَلَاثَة بُيُوتٍ في القَرْيَةِ
بِالثَّوْب والخُبْز والبيتِ يفعلُ ما فعلتَ أَنت بالتَّاريخ،
«رضا خان»

اسمُه ليس بَشَرًا

كلا، اسمُه ليسَ بَشَرًا

إنَّهُ ليسَ إنسَانًا

لا أَعرِفُ ما اسْمُهُ

سِوَى أَنَّهُ ملك!

لَكِنَّه الرَّبيعُ الأخضرُ بِدَم «أراني»

وعَظْمةُ عَارٍ فِي فَمِ كلبِ مقبرةِ العُظَمَاء

وقَصِيدَةُ حَيَاتِه،

بِقَافِيَةِ دَمِهِ

وحياةُ قصائدي

بدمِ قَافِيَتِه

وكَمْ هُمْ كُثر

مَنْ تلوَّثَ كِتَاب شِعْر حَيَاتِهِم

بكفٍّ حمراءَ مِنْ الدَّمِ

كم هُمْ كُثر

الذين قَتلوا الرِّقَّ فِي الحَيَاةِ

لِيولدوا أَسِيادًا فِي التَّارِيخِ

بلحنِ موتٍ، بقيثارةِ «لوركا»

كَتَبُوا قصيدةَ حَيَاتِهِم

وكَانُوا مِثْلِي شُعَرَاء

ومَا كَانَتِ القصيدةُ بمعزلٍ عَنْ حَيَاتِهِم

وكَتَبُوا تَارِيخًا في ملحمةٍ حمراء مِنْ القَصَائِد

وفِيهَا ملوك الشَّعْب

بصَهيلِ حَمَاقَةِ حصانٍ

مَا وَصَلُوا إلَى السُّلطةِ

والذين شَنقوا البشرَ بِحبلِ مِيزانِ عَدَالَتِهم

لَمْ يَكُنْ اِسمَهم الْعَدْلُ

لَمْ تكُنْ القصيدةُ بمعزلٍ عَنْ حَيَاتِهِم

ومَا ملكوا قَافِيَةً

سِوَى الْإِنْسَانِ

عِنْدَمَا سَلَبُوا حَيَواتِهِم

ازدادتْ ملاحمُ قصائدهم

فِي قَافِيَةٍ مِنْ الدَّمِ

شِعرٌ كُتِبَ بثلاثةِ أَفْوَاهٍ مِئَة فَمٍ

وَأَلْفِ فَمٍ، بِثَلَاثِمِئَة أَلْف فَمٍ

قصيدةٌ بقافيةِ الدَّمِ

بكلمةِ الْإِنْسَان
بمسيرةِ الْغَد
قصيدةٌ تَمْشِي، تسقطُ، تَقفُ، تسرعُ
عاشتْ في سرعةِ انْفِجَارِ النَّبْضِ فِي اللَّحْظَةِ
سَارَتْ عَلَى التَّارِيخ،
وعلى «إِنْدُونِيسِيا»، وعلى «إِيرانَ» وتَدِقُّ كَالدَّمِ
في قلبِ التَّارِيخ، في قَلْبِ «عبادان»
الإنسانُ الإنسانُ الإنسانُ الإنسانُ، البَشَر

وبَعِيدًا عَنْ قافلةِ هَذَا اللَّفْظِ اللاَّنهائي
الذي عاشَ كثيرًا
كَلبُ مقبرةِ العُظَمَاء يَمُوتُ
بعظمةِ عَارٍ فِي فمهِ،
عظمةِ عارٍ
عظمةِ جشعٍ
عظمةِ ثَوْبٍ عَلَى جَسَدِ ثَلَاثَةٍ في «المَجَرِّ»
عظمةِ لُقْمَةٍ في فَمٍ لثلاثةِ جُيُوبٍ
عظمةِ بَيْتٍ فِي الْمَدِينَةِ وَثَلَاثَة بُيُوتٍ فِي الْجَحِيم
عظمةِ عديمي التَّارِيخ.

الحديدُ والإحساسُ

1953 ـ 1954

طائرُ البَحْرِ

نَامَتِ الشَّمْسُ ونَامَ العالمُ
ومِن الفنارِ، حلَّقَ طَائِرُ البحرِ مجدَّدًا
ونَدَبَ كالثكلى

انتحبَ البحرُ تَحتَ حِجَابِ اللَّيْلِ
بِهُدُوءٍ على مماتِ نَصِيبي

الرِّيَاحُ بَارِدَةٌ، اللَّيْلُ هادئٌ
ـ وَمِنْ المَاءِ الدَّاكن ـ في الأفق المظلمِ
مَع أصواتِ البَطِّ البَرِّيِّ
يُسمَعُ صوتُ اللَّيلِ، لكن
في ظلامِ اللَّيلِ الحَزِين النَّاعِم
أبحثُ عن نَغمةٍ ضَائِعَةٍ

وَمِن الشَّاطِئِ الَّذِي يَزِيدُ مِنْ حُزني
أَثْمَلُ مِن الأَنْغَامِ الأُخرى
القلبُ يستاءُ مِن همساتكَ
أَيُّها البَحْرُ كُنْ صامتًا!
أَيُّها البَحْرُ،
صوتُكَ الرَّخيمُ هذهِ اللَّيلةَ
يجعلُ قَلبِي يَنْزفُ

أَيُّها البَحْر!
كُنْ صامتًا! فإنَّني أكرهُكَ
وأكرهُ تنهداتِكَ الباردةَ ليلاً
وهجماتِ زَبَدِ أمواجِكَ...
أمواجُكَ الحالكة تُؤلِم رُوحِي.

بأعيُنِكِ الخُضرِ البَارِدَةِ الممزقة
ولياليكَ الضبابيةِ
وأَروَاحِ غرقاكَ البَعِيدَةِ
والأَجْسَاد الزُّرق المنتفخة

التي تتراقصُ على ظَهر أمواجكَ
مع أَنِين طائرِ اللَّيلِ الحَزِين
هذه رقصةُ موتٍ، موحشةٌ ومميتةٌ
مِن اِرْتِجَافِ هذه الأرواح المتعبة
جَليٌّ فيكَ الغضبُ والتمردُ والعصيان
إنَّهم تعساء ومحكومون
كارهون، متلعثمون لا إرادةَ لهم
طالما صرخوا من الأعماق،
وصفقوا أيديهم بندمٍ:

يخرجُ الكُرهُ مِن أعيُنهم
والحزنُ ينبعُ مِن أغنياتهم
لا رقصَ لهم ولا بهجة
الحزنُ يطفو في ذاكرتِهم بَدل الطَّربِ
يضحكون بوجوهٍ باكيةٍ
ضحكاتُهم أقنعةٌ عَمياءُ
والعزاءُ منقوشٌ على وجوهِهم

يضحكون بتشوهٍ ومسخٍ وتشوّشٍ
كأمٍّ بأمرٍ مِن «الخان»
تَبكي على جثةِ ولدِها الممزقة
لكنَّها تصرُّ على أسنانها!

كُنْ صامتًا يا طائرَ البَحرِ!
دَعِ اللَّيلَ يمضي بصمتٍ
دَعِ الصَّمتَ يموتُ في اللَّيلِ
دَعِ الصَّمتَ يُنهي هذا اللَّيلَ

دَعِ الضوءَ الرَّاحلَ والقَمرَ الباردَ
يُسمعانِ في الصَّمتِ
لتخرجْ صرخاتُ إذلالِ الأسرى
مِن السِّجنِ الأسود!

كُنْ صامتًا أيُّها الطائرُ!
لتخرجْ من فوقِ الأمواجِ الضائعة
أصواتُ الموتى النِّيامِ

كُنْ صامتًا، يا طائرَ البحرِ!
ليَبقى اللَّيلُ ساكنًا في الصَّمتِ
دَعِ الأمواجَ تتحركُ في الصَّمتِ
ربَّما في الصَّمتِ تَختفي الحُمى!

اِصمتْ، اِصمتْ! ففي الظَّلامِ
تدبُّ الرُّوحُ ببطءٍ في الأجسادِ
وفي دهشةِ الصَّمتِ القبيحِ المشؤومِ
تَظهرُ الآلامُ ببطءٍ على اللسان
اخفِ لَمعانَ سُيوفِكَ
في ضوءِ اللَّيلِ البهيم
كُنْ صامتًا! حتّى في قلبِ الظَّلام
تُدخلُ أغنياتهم البهجةَ إلى القلبِ

صمتًا أيُّها الطائرُ!
دَعِ الموتَ يتحركُ في الصَّمتِ...

لأجلِ الدَّمِ وأحمرِ الشِّفاه

«لو كنتِ ملكةُ الفتياتِ، فأنا إلهُ الشِّعر»

ـ مهدي حميدي

«هاتانِ ذراعاها،
بحرارةِ القُبَل كثيرةٌ ذنوبها
الآنَ، الخَليجُ العَميقُ يَسكنُ في عينيها
وفي بؤبؤي عَينيها السَّوداوين الجَّريئتين
مئةُ فانوسٍ مِن الرغبةِ ـ مبهمٍ وخافتٍ ـ
تَحترقُ في لهيبٍ عَنيدٍ وصَبورٍ.

هذا الينبوعُ السِّحريُ، ظمآنُ
وفي كلِّ لحظةٍ تَظهرُ
بُثورُ الحُمَّى الفاضحةُ حولَهُ
مِن شدَّةِ الرَّغبةِ بالعِناقِ الدَّافئِ

رغبةُ ألفِ ثمالةٍ لَمْ ترتوِي
في أقمارٍ ملتهبةٍ خجلةٍ
وأغانٍ لا لونَ فيها
تَظهرُ على وجنتيها،
ألفُ رَقصةِ غَنجٍ مُوجعٍ
بساقيها الحَيَّتيْنِ الرُّخاميَّتيْنِ

تخَبِئ تحتَ تنورتها كنزَ الوجودِ واللَّذةِ
وسحرَ شهوتها والظَّمأ
تَطردُ تنينَ الخَجلِ مِن بؤرتهِ»

دَعي الرَّجُلَ يعرفكِ هكذا
في زمانِنا
اللَّحنُ واللَّونُ
الجَّمالُ والرَّوعةُ والسِّحرُ والحياةُ
ولكنْ، الآنَ يجبُ أنْ نجدَ اللَّونَ
في وجنَتيكَ المُصفرَّتينِ يا أخي!
في وجنَتيكَ المُصفرَّتينِ؛

لا في هذه الذراعِ العاريةِ الدَّاميةِ
أنت أضعفُ مِن ذاتِكَ
ضَرَبَ السَّوطُ جَسَدكَ
تراءى عبءُ روحِكَ الثَّقيلُ المُذِلُّ
مِن روحكَ على جروحِ جسدكَ!
بلا شكٍّ، الآنَ
في الجروحِ السَّاخنةِ المُلتهبةِ
يبدو الأحمرُ أكثرَ روعةً مِن أحمرِ الشِّفاهِ
وعلى بياضِ هذا الورقِ
لونُ حياتِنا السَّوداءِ الموجِعةِ
يتَّضحُ أكثر في أعيُنِ آلهتِنا

أيُّها
الشَّاعرُ!
أيُّها الشَّاعرُ!
الأحمرُ، ذاتهُ أحمرُ:
الشِّفاهُ والجُروحُ!
لكنَّ الأسنانَ - في كلِّ مرَّةٍ - تُظهرُ

ضحكةَ عشيقتِكَ

ولو أنَّ عينيكَ العَليلتيْنِ أمعَنَتا النَّظرَ؛

لرأتا «عناقيدَ اللُّؤلؤ، على غصنِ الرُّمَّان»

ولأمكنَ أن تريا العظمَ

بارزًا بينَ جِراحي الدَّاميةِ،

لأنَّ أصدقائي

سابقًا

ـ عندما أحَرقَهم «هتلرُ» جزَّارُ «أوشفيتزَ» [1] في أفرانِ الموت ـ

بينما ملأ شبيههُ زجاجاتٍ كثيرةٍ

مِن صبغةِ الدَّمِ الأحمرِ

في «هارلمَ وبرونكسَ» [2]

ليَصنعَ مِنها أحمرَ شِفاهٍ

ربّما لعشيقتِكَ، لشِفاهِ عشيقتِكَ!

---

(1) إشارة إلى معسكر أوشفيتس النَّازيِّ، والذي شُيِّدَ عام 1940 جنوبي بولندا، وكان يضم أكثر من 11 ألف أسير، لكنه تحول لاحقًا إلى معسكرٍ لاعتقال وإبادة اليهود؛ حيث قُتل أكثر من مليون شخص، ليسقطَ مطلع عام 1945 بقبضة القوات السُّوفيتية التي عثرتْ على 700 ناج فقط. يُعتقدُ بأنَّ معظم ضحايا أوشفيتس أُعدموا في غرفِ غازٍ. [المترجمة]

(2) إشارة إلى أحياء في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأميركيةِ، سكانها من السود والأميركيين الأفارقة الذين عانى معظمهم من الاستبعاد والاضطهاد على أساسٍ عِرقيٍّ. [المترجمة]

دَعْ حبَّكَ
يبكي في قَصيدتِكَ
دَعْ وجعي
يَضحكُ في قَصيدتي

دَعِ الأحمرَ الشَّقيقَ،
التَّوأمَ، بين الجراحِ وشِفاهِ الرِّيح
لأنَّ الشِّفاهَ الحمراءَ،
ستجفُّ أخيرًا... وتحزنُ،
تمامًا مثل الجروحِ الحمراءِ.

وفي لجَّةِ ظَلامِ هذا التَّابوتِ
سوفَ تلمعُ وتضيءُ
عيونٌ حيةٌ
ككوكب الزُّهرةِ
على ظلامِ الذئبِ والشَّاةِ
كدفءِ الأملِ في أنغامي!

دَعِ الحبَّ الآنَ...

ليتعفَّنَ

كالميِّتِ في عمقِ قلبِ تابوتِ الشِّعر

ـ كوجهِ مُهرِّجِ المَلك ـ

دَعْهُ يتعفَّنُ

ومرَّةً أُخرى

أيُّها الدَّجالُ

بلا خجلٍ

اِدَّعِ أنَّكَ إلهُ كلِّ الشُّعراءِ!

ولكنِّي بلا ادِّعاءٍ

بلا مكرٍ

أقيِّدهُ بالسَّلاسلِ

هذا (الحرام، الطَّاغي، العمر الذي ذهبَ سُدىً في الظَّلامِ، هذا المأخوذُ للسَّوادِ، هذا الاسمُ التَعِسُ!)

وأطلبُ تمزيقَ هذا الطُّومارِ!

وأحفرُ قبرًا لشِعري

هذا الهُزءُ

وسوفَ أحني الرَّأسَ
لأسكبَ عليه
رمادَ النِّسيانِ الأسودَ

دَعْ شِعرنا وشِعركَ
يكونُ صورةً مِن وجهِ اللامتناهي:
صورةً لأحمرِ شِفاهِ الصَّبايا
صورةً لأحمرِ جروحِ الأشقَّاءِ!
وأيضًا شِعري
مرَّةً على الأقل
جسِّدوا
وجهكمُ الحقيقيَّ
أيُّها المُهرِّجونَ...
أيُّها «الشُّعراءُ» الشَّحاذونَ!

المَرثيةُ

إلى «نوروز علي غنچه».

الطَّريقُ
في صَمتِ الغَضبِ
زحفَ إلى الأمام
وفي قلبِ كلِّ عابرٍ
ازدهرَ بُرعمٌ ذابلٌ:

« ـ أخوةُ بطنٍ واحدٍ!
أَطفَأوا شمسًا أخرى
قَبل طلوعِها الكبيرِ في النّهارِ!»

وتهويدةُ الأمهاتِ
تَمزّقتْ على حركةِ مهودِ الأسطورةِ مِن جديدٍ:

«أزدهرَ عشرَ سنواتٍ
لكنْ، في بُستانهِ نَمتِ البراعمُ فقط
غرسوا قدمَهِ كشتلةٍ
في حدائقَ حديديةٍ في الجذعِ
مثل بذرةٍ
في سجنِ دفيئةِ النباتِ
سجنوا قلبهِ كنجمةٍ حمراء
ومِن برعمهِ أشرقتْ شمسٌ
انطفأتْ
قَبل شروقها
بزغتْ نجمةٌ أرجوانيةٌ أُخرى
مِن ألفِ شمسٍ ومِن ألفِ برعمٍ آخرَ
سمعَ ترانيمَ الأمهاتِ
وهنَّ يقرأنَ الأدعيةَ على المهودِ
ويوقظنَ الأطفالَ
حتّى يلقونَ التحيةَ
على النجمةِ التي تبزغُ
وتضيءُ حقولَ العبيدِ

وسمعَ الدعاءَ والتحيةَ

مِن الأمهاتِ والأطفالِ

وغابَ في ثوبهِ دونَ البزوغِ

حتّى دمُ شموسِ قلبهِ ذات العشر سنوات

يضيءُ النجمَ الأرجواني»

عندما ارتوتْ الأرضُ الرماديةُ

مِن أولِ هطولِ مطرِ خريفي

وشَرّعتْ نافذةُ الشمسِ الكبيرةِ الأرجوانية أبوابها

على حقولِ العبيدِ

عبادُ الشّمسِ أدارتْ رؤوسها للتقدمِ

أخوتي في كلِّ الصورِ!

نَحنُ بَكينا

لأجلِ شَمسٍ أُخرى

قَبل طِلوعها الكبيرِ في النهارِ.

الْهَوَاءُ النَّقِيُّ

1958 ـ 1957

الرَّبيـعُ المُنطَفئُ

للفانوسِ الذي لَمْ توقدْهُ يدٌ
للمِغزَلِ الذي ظلَّ على الرَّفِ صامتًا
للمهدِ الذي لَمْ تحرِّكْهُ يدٌ
للمِرآةِ التي صَدِئتْ

للحلقةِ التي لَمْ يَطرقْها أحدٌ على البابِ
للبابِ الذي لَمْ يَفتَحهُ أحدٌ
للسُّلَّمِ المنسيِّ في مكانهِ
ولم يسندْهُ أحدٌ إلى ركنٍ

الرَّبيعُ المرتقَبُ لَمْ يعبأ بقدومه أحدٌ!

تأنَّى على كلِّ سَطحٍ، ومَضى
نادى بكلِّ زقاقٍ، ووَقفَ
ولكنْ لَمْ يأتِ صوتٌ...

لا مِنْ القريةِ ولا مِنْ المَرجِ،
ولا دخانٌ أفاقَ مِنْ كومةٍ في القَريةِ
لا راعٍ عَزفَ نايًا في الصَّحراءِ.
لَمْ تَزدهرْ زهرةٌ ولا حلَّقتْ نَحلةٌ
ولَمْ يُسمعْ صياحُ دجاجةِ العُمدةِ!

بمئةِ أملٍ أتى ورحلَ يائسًا
الرَّبيعُ - لم يفتحْ له البابَ أحدٌ
في هذا الخَرابِ لَمْ يَبتسمْ لَه أحدٌ
لَمْ يَضعْ أحدٌ إكليلاً مِنْ الأزهار على رأسهِ
ولَمْ يُخرجْ أحدٌ رأسَه مِنْ الكومةِ
لا دجاجةٌ مِنْ خُمِّها، لا دخانٌ مِنْ نارِ طبخٍ
لَمْ يتحرَّكِ الهواءُ بضرباتِ الدُّفِّ
ولا زهرةٌ برّيةٌ بدأتْ تنمو في البُستانِ

لا البَشرُ، لا البَقرُ ولا الجيادُ
لا المَرأةُ ولا الطِّفلُ، القريةُ خامدةٌ تمامًا
لا قُبَّرةٌ غرَّدتْ في الوادي

ولا برعمٌ تفتَّحَ على شجيرةِ الفستقِ
لَمْ يَربطوا حصانًا إلى أيّة عربةٍ
لَمْ نَسمعْ نغمةَ مطرقةِ الحدَّاد
لَمْ يأخذْ أحدُهم محراثًا إلى المزرعةِ
لَمْ ينبحْ كلبُ القطيعِ
ولَمْ يضعْ أحدٌ - مَكروبًا أو مُبتهِجًا - قدمَهُ
على الطَّريقِ الخاوي
وفي بدايةِ العامِ لَمْ يتنهدْ أحدٌ بسعادةٍ...
أو حتَّى بتعاسةٍ.

في غروبِ اليومِ الأوَّل
في عزلةِ الضَّفادعِ البائسةِ
لذكرى تِلك الحكاياتِ المنسيةِ
ضفدعةٌ بدأتْ بالنَّقيقِ في عمقِ المستَنقعِ
جاءَ الرَّبيعُ، وليست ثمَّة حياةٌ
في هذا الخرابِ المليءِ بالِمحَنِ
جاءَ الرَّبيعُ، ولكنْ يا للحَسرةِ!
لا يدٌ أوقدتْ شَمعةً، ولا أُخرى فَتحتِ البابَ.

الرُّجُوعُ

السُّحبُ السُّودُ التي تَمضي
على الأمواجِ الخُضرِ
تؤلمُ روحي،
روحي التي لَمْ تَهدأ.

لَمْ تصلْني مِنكِ رسالةٌ
هذه السُّحبُ السُّودُ المحمَّلةُ بالطُّوفانِ
ستكونُ كالملحِ على الجُّرحِ القَديم
القمرُ باردٌ والبحرُ يَهمسُ

هذه الطيورُ المتعبةُ بأجنحتِها المثقلةِ
أتتْ مرَّةً أُخرى مِنْ ذلك الجانبِ في العالمِ
وهذا القاربُ الذي وصلَ للتَّو
بِمجدافهِ مِنْ عُمقِ البِحار

لَمْ أعدْ أرَى فقاعةً على هذهِ الأمواجِ
ولا اللَّيالي المليئةَ بالنُّجومِ الخياليةِ
على الرِّمالِ الباردةِ
حتَّى حينَ أضمُّكِ كالرُّوحِ بقوةٍ إلى صَدري
لم يعُدْ نَسيمُ عطرِكِ يزيلُ الجراحَ القديمةَ،
لَمْ يعدْ يُغريني مُجدَّدًا
أو يعرِّفني، مرَّةً أُخرى، بالألمِ.

يا للحسرة! انطفأ ضوءُكِ
الذي كانَ لَنا أملاً ودفئًا وعنفوانَ
كان لهذا الكوخِ المظلمِ ضياءٌ منكِ
يا للوجع! لَمْ يبقَ سوى الذِّكرى...
ذكرى مَنسوخةٌ، باطلةٌ ومعدمةٌ
كظلِّ الهياكلِ الضَّائعةِ
تعودُ إلى أعماقِ المرايا
ضاعَ الشغفُ
ماتَ الفرحُ
أتحرَّقُ ـ أين القُبلةُ

تضعينها على فميَ الظَّامئ
أبدو كفقاعةٍ على زجاجةٍ
في كوخٍ مظلمٍ
أرتجفُ، كعابرٍ يمضي بعيدًا
أتأوهُ كالنسيمِ الذي يَعبرُ قربي

في زهدِ ذلك الكوخِ المظلِمِ المنقَبضِ
ترتجفُ شعلةُ ضوئي
مِنْ بعيدٍ...
لو أنَّ أحدًا فتحَ البابَ
ستَبتلعُني الموجةُ
لو لَمْ تلتقِ أعيُنُنا
فليكنْ مكانُكِ في عُمقِ ذكرياتي!
لو لَمْ تصلْكِ صَرختي؛
لَمْ تخرجْ مِنْ ذهني كلماتُكِ بعدُ:

«أحفرُ قبري بِداخلي
إلى الحدِّ الذي يُخرجُ ذكراكَ مِنْ قَلبي

أو الدُّموعُ التي ذرفتُها لأجلِكَ مَرَّةً
ستُذرفُ لغيركَ...
مرَّةً أُخرى»

أنتظرُ ذلك اليومَ
ومِنْ الوعدِ الذي فرَّ لا أعودُ
مِنْ حالي التَعس لَمْ أنل شيئًا
مِنْ المستَقبلِ،
آهِ أنا لا شيء!

دَعني، أيُّها الأملُ العبثي،
أتفقَّدُ مرَّةً ضاحيةَ الموتِ
لأسترجعَ ذاكَ المَاضي الجّميل
لأعودَ مرَّةً أُخرى!

مَطْرُودٌ

ارفعْ يدكَ عنْ هَيكلِ حُزني
فإنَّهُ عامرٌ بخرابي
ارفعْ يدكَ فأنا معتمٌ وباردٌ
كضوءٍ يموتُ في شهقةِ الرِّياحِ

ارفعْ يدكَ، أستغربُ مِنكَ!
لماذا تَطرقُ البابَ المُقفلَ؟
لا أحدَ في البيتِ، تَعرفُ ذلك
لكنَّكَ تَطرقُهُ مجددًا!

حيٌّ هكذا بالحزنِ
نائمٌ في التَّابوتِ
لديَّ أحاديثُ في القلبِ
أتخذُ على شفاهي الصَّمتَ

ارفعْ يدكَ فأنا مطفأٌ
كلُّ تَنهيدةٍ بينَ شفَتيَّ صرخةٌ
يبدو ليلي ونَهاري بطُولِ سَنةٍ
رغم أنَّ العمرَ أجمَعهُ في عَينيَّ مجردُ رياحٍ تَمضي

مَطرودٌ أنا مِنْ كلِّ الأبوابِ
قدماي مَجدُورتانِ،
شفتايَّ تملأهما الحَسرةُ
أجرُّ ساقيَّ على الطَّريقِ المَنسي
أَضربُ بقدميَّ على الطَّريقِ الوعِرِ

قدماي مَجدُورتانِ،
قلبي مغمورٌ بالحُزنِ
ماضٍ بطريقي محنيَ الرأسِ
يزحَفُ هَيكلي ورائي
يَركضُ ظلِّي أمامي

ماضٍ بطريقي محنيَ الرأسِ،

عابسَ الوجهِ

لا يعنيني أمرُ أحدٍ

لماذا تسدُّ طريقي؟

ارفعْ يدَكَ! ما نفعُ المجيءِ

ما نفعُ ضوءٍ لا ينشرُ النُّورَ

أيُّ أملٍ في قلبٍ مظلمٍ

يقفُ على قبرِ مَن دُفنَ حيًّا؟!

أذهبُ في الطَّريقِ وحيدًا مَطرودًا

نحو آفاقِ الظَّلامِ

ارفعْ يدكَ عنْ هذا العابرِ الثَّمِلِ

خِذْ جانبَ الطَّريقِ لا تجلسْ مُنتظرًا!

المَريضُ

منذُ زمنٍ،
على هذهِ الرِّمالِ،
تَرسو ـ بِصمتٍ ـ سفينةٌ مُتهالكةٌ
لا تزالُ بوسعها المُقاومةُ
ونحنُ نَتأملُ فيها خيرًا

صَبرتُ ليأتيَ الصَّيَّادونَ
إلى هذه السَّفينةِ التَّالفةِ
لتضربَ المطرقةُ فيها مسمارًا
ليتناغمَ فيهاالمنشارُ مع الخشبِ

جالسًا، أتأمَّلُ اليومَ الذي
تُبحرُ فيه هذه الرَّاسيةُ على الرَّملِ
لأرى السَّعادةَ على هذا الشَّاطئِ المُوحشِ

لأشهدَ موتَ صمتِ السَّاحلِ
الذي يصلُ سريعًا مَع الأمواجِ
تحتَ مضجعي...
أنا المَريضُ
الموتُ يَقصُّ عليَّ حكايةَ الفَناء.

في كلِّ فَجرٍ، ولشدَّةِ الشَّوقِ،
أفتحُ النَّافذةَ المطلَّةَ على البحرِ
لأتأكدَ من وجودِها...
يجفلُ طائرٌ ويقفزُ من الصَّخرةِ.

ثمَّةَ أملٌ غَريبٌ في قَلبي المَريضِ
مِن القاربِ الذَّكي والموجِ السَّريع
شفتاهُ تظفرانِ بابتسامةٍ
قاربٌ عنيدٌ لا يَزولُ!
جَعلني يومًا أتفاءَلُ
وأعرفُ نسيمَ البحرِ مِن هذه النافذةِ
يَقتلعُ كوخي الخَشَبيَّ مِن مكانهِ

بجَسدٍ مريضٍ أقفزُ مِن مكاني

أنحَني على هذه النافذةِ التي غَسلها المَطرُ

دمعةُ فرحٍ تَعْلَقُ بأطراف رموشي

أرى صَيادينَ من «الخَزَرِ»

باشروا بإصلاحِ السَفينةِ التالفة...

أصرخُ مِن أعماقي بِفرحٍ

النافذةُ مشرعةٌ

لَمْ أعدْ أبحثُ عَن حذاءٍ لأرتديه

سوفَ أركضُ مِن الكوخِ بقدمينِ عاريتينِ إلى الخارجِ.

القَصيدةُ الضَّائعةُ

لأجلِ أن تَعبرَني آخرُ نَجمةٍ في اللَّيلِ
بلا خَوفٍ، بلا مُبالاةٍ،
مِنْ فوقِ برجِ الخَوفِ والغَضبِ
أجلسُ مستيقظًا في حفرتي الباردةِ
لا أنامُ حتَّى مطلعِ الفجرِ
اللَّيلُ في كَمينِ قَصيدةٍ ضائعةٍ لَمْ تُكتَبْ بَعدُ
أجلسُ كالبومةِ تحتَ مَصائرِ سَيْرِ النُّجومِ العمياءِ
أبحثُ عَنها في ضيافةِ غيمةٍ ليليَّةٍ
أبحثُ عَنها في ضوءِ النُّجومِ البَعيدةِ الوحيدةِ
في الدَّمِ والنَّجمةِ والرِّياحِ ليلاً ونهارًا
أركضُ وراءَ قصيدتي الضَّائعة
فوقَ كلِّ صخرةٍ في هذا الطَّريقِ الوعِرِ
أرسمُ نقشَ قَصيدتي الضَّائعةِ
في المَدى البَعيدِ،

لم يكن هنالك غيرُ مَرجٍ ورياحٍ، ورياحٍ
أنا صاحبُ رياحِ المرجِ مطرودٌ مِنه
في المَدى البعيدِ صورةٌ مِنْ الجَّبلِ والثَّلجِ
أنا ثلجُ القِممِ البعيدةِ عَن الجَّبلِ
أحفرُ توابيتَ فارغةً
في تُرابِ كَهفِ حُزني ليلةً بعدَ أُخرى
موجةٌ محطَّمةٌ تَصلني مِنْ بعيدٍ وأنا العَبُوسُ
أتلمَّسُها بأصابعَ متوجعةٍ
حدَّ الصَّباحِ تحتَ النافذةِ العمياءِ الحَديديةِ
أظلُّ يَقظًا أرقبُ السَّماءَ
في طُرقِ الضَّياعِ بشفاهٍ بلا أناشيدَ
أَيَتُها القصيدةُ الضَّائعةُ: أينَ أجدُكِ؟

عذابٌ آخرُ

بالخَنجرِ، لَمْ تَجرحْيني في القَلبِ
إذْ كان قلبُكِ رحيمًا
حينَ تلوَنتْ يدُكِ الحانيةُ بدمي
وتلوَّثتْ أظفارُكِ بالعَداوةِ

إذَنْ، لماذا القُبُلُ الدَّامياتُ تقطرُ مِنْ شفتيَّ
إذَنْ، لماذا ضَحَكَ الدَّمعُ في عينيَّ
إذَنْ، لماذا تسمَّمَ نبعُ الماءِ النَّقيِّ
إذَنْ، لماذا أثمرتْ شجيراتُ المحَبَّةِ براعمَ غضبٍ؟

ماذا أقولُ للنَّاسِ لو سَألوا
عن حكايةِ هذا الجرحِ القديمِ الموجعِ؟
لابدَّ لي أنْ التزمَ الصَّمتَ
فلنْ يعطيَ أحدٌ جَسدَهِ للحُبِّ مرَّةً أُخرى!

اللِّقاءُ الأخير

المَطرُ، ببطءٍ، يَزيلُ عنْ لَوحةِ الأرضِ نَقْشَ الدَّمعِ
صَوتُ البابِ، تَهالكَ مِنْ عَويلِ الطُّوفانِ
بلا ثمرٍ تَرصُّ الدَّمعَ في التَّرابِ
بلا ثمرٍ تَطرقُ البابَ بأصابعِكَ المتألمةِ

أعرفُ ما تُريد مِنْ الرُّجوعِ:
طَرقُ بابِ الصَّبرِ مِنْ وجعِ الغربةِ
أعرفُ دمعَكَ الحارَّ ليسَ كذوبًا:
كالمَرهمِ صوتُكَ رفيقٌ مَع ألمي

الحسرةُ عليكَ، الحسرةُ عليَّ! مِنْ ذلك
مِنْ عِلَّةِ أوجاعِكَ التي أهلكتْكَ
يا دواءَ مَنْ لا مريضَ له،
ذلك الرجلُ المجروحُ
لم يتبقَ مِنه سوى سحابةِ دخانٍ وصَخرةٍ باردةٍ.

قَصيدةٌ غيرُ مُكتملةٍ

تعبرُ أعوامي الثَّلاثونَ، وتمضي
مِنْ منحدرِ الحاضرِ نحو العَدمِ

أراها أمَامي، غَامضةً وضَبابيةً
ذراعَاها مَفتوحتانِ وروحُها مُضطربةٌ

ترتجفُ روحُها مِنْ شوقِ وصالي
أنا ماءٌ وهي تَحترقُ مِنْ الظَّمأ

مُشرعةٌ بِجسدها كفَمٍ مَفتوحٍ
لتبتلعَني كالسَّماءِ

هناك! بِجَسدٍ محشوٍّ بالألمِ
كامرأةٍ تنتظرُ رجلاً باشتياقٍ

ولكنْ عمَّ تبحثُ مَعي؟
لَستُ سوى قَبرٍ تائهٍ
لَستُ سوى ريحٍ وشَوكٍ على الطَّريقِ
لَستُ سِوى شوكٍ وريحٍ وراءَهُ

لَستُ سوى وحشةٍ وجرأةٍ
لَستُ سوى انطفاءٍ وطنينٍ

لَستُ سوى قُبحٍ وجمالٍ، حسنةٍ وسيئةٍ
لَستُ سوى لحظاتٍ في الأبديةِ
لَستُ سوى توأمٍ بَين الطَّريقِ والقَدمِ
لَستُ سوى ماءٍ ونارٍ، جسدٍ وروحٍ

لَستُ سوى نعومةٍ وصلابةٍ
لَستُ سوى حياةٍ وعَدمٍ

لَستُ سوى قرارٍ وهروبٍ
لَستُ سوى ضحكةٍ وعَينٍ دامعةٍ

ويلٌ لقدميَّ العاريتينِ
ووجعي الممتَدِّ وشَفَتيَّ الصَّامتتيْنِ
اللَّيلُ مظلمٌ وباردٌ والفَجرُ غائبٌ
الطَّريقُ وعرٌ والعابرُ وحيدٌ
هل أردتُ الزَّهرةَ مِنْ الأرضِ القاحلةِ؟
هل أردتُ الماءَ مِنْ المستَنقعِ؟

لَقد حَملنا أعباءَنا وأعباءَ الآخرين
لَقد أنجَزنا أعمالَنا وأعمالَ الآخرين

يا للحسرةِ على صَفاءِ طفُولتنا
رأيتُ عينيْ الوحشِ وظَننتُهما فانوسَ الرَّاعي

بجَسدٍ هزيلٍ وقدمٍ مُتعبةٍ
حَملتُ المتعبين على كَتفي

قلتُ هؤلاءِ السَّفلةُ
لنْ يتركوني وحْدي

لكنَّهم حينَ إستعادُوا قِواهم
تركوني جُثَّةً على الطَّريقِ

يا لِحَسرتي لَقدْ ضَحَّيتُ بِذاتي
وقَبل روحي أنا خَجلٌ مِنْ جَسدي المَيِّتِ
كنتُ تحيةً لَمْ يُرَدْ عليها
كنتُ نَقشًا وَهميًا في حلمٍ

أنا وليدُ آخرِ النَّهارِ، لذلك
طريقي إِمتدَّ ليعبرَ ليلَ المدينةِ

لأنَّ طَريقي بَدَأ في اللَّيلِ
انتهتْ كلُّ طرقي في اللَّيلِ.

السَّفرُ

عندَ الغروبِ المُحْمرِّ،
وَصلتا
مِنْ الطَّريقِ الشَّرقي، قُربي
فتاتانِ وجناتهما تلمعُ كالنُّحاسِ
بينما تبرقُ رقصةُ النُّجومِ في عمقِ ليلِ أعيُنِهما
إلى ديارِ الغَربِ
أتى الطَّريقُ بِهما
قالتا لي:
ـ تعالْ مَعنا إلى الغربِ!

واصلتُ القراءةَ
ولَمْ أجبْهُما.
قرأتُ طِوال اللَّيلِ
وملأتُ فراغَ اللَّيلِ بالنَّشيدِ المَحمومِ

وصَلَتا صباحًا إلى «جاله بار»
مِنْ الطَّريق الشَّمالي، قُربي
فتاتانِ شفاههما كبذرِ الخوخِ
متوحشةٌ ممتلئةٌ بالشُّقوقِ
بينما سيقانهما كرخامِ معابدِ الهندوس
قالتا لي:
ـ تَعالْ مَعنا إلى الطَّريقِ!
منعتُ فَمي عن الغناءِ الذي كانَ يدورُ مِنْ الأفقِ إلى الأفقِ
وعلى أعيُنِهما الصَّاخبة ركَّزتُ ثِقلَ صمتِ عينيَّ
بقيتُ مُطفأً لباقي النَّهارِ
بَقيتُ صامتًا، تحتَ أشعةِ الشَّمسِ، لما تَبقى مِنْ النَّهارِ.

في قلبِ مُنتصفِ النَّهارِ
في لهيبِ طريقِ الغربِ
وصلَ عدَّةُ رجالٍ
شَمسُ التَّقصِّي في أعيُنِهمْ المتلألئةِ
أفواههم غاضبةٌ
تُشبهُ صخورًا كسَتْها الطَّحالبُ

حَدَّقُوا في صمتي الكبيرِ
قمتُ مِن مكاني، مَشيتُ في الطَّريقِ...
بدأتُ اقرأ النَّشيدَ

أمشي مَع ضرباتِ قلبي المُسرعةِ

لَكن، بَقيتْ الذِّكرى واقفةً مُبهمةً
في المَكانِ،
تَنظرُ خَلفنا
ظِلالُنا ونَشيدي
ضاعَا في الطَّرِيقِ المُغبَرِّ
في عُزلةِ اللَّيلِ الغاضبِ
بَكيتُ على غُربَتي وبؤسي.

زَهرةُ الجَّبلِ

لا يزعمُ اللَّيلُ النَّومَ

الرِّيحُ، تَسري في عروقِ البستانِ
بِنارِهِ، وصراخِهِ

غُصنٌ لبلابِهِ متيبسٌ
خَوفًا مِنْ العاصفةِ
تمرُّ بمخالبِها على زجاجِ النَّافذةِ
لَستُ يائسًا
هناك أملٌ يكبرُ فيَّ

دَعِ الرِّيحَ تراقصُ اللَّيلَ
دَعِ اللَّبلابَ يراقِصُ الرِّيحَ

تأتي زَهرةُ الجَّبلِ
تأتي زَهرةُ الجَّبلِ بِضحكةٍ على فمِها
زَهرةُ الجَّبلِ ستأتي، أعرفُ ذلك
حتَّى لو مررتِ الرِّيحُ مخالبَها بإلحاحٍ على فُستانِها

في مُنحدرِ الطَّريقِ
زَهرةُ الجَّبلِ ستأتي
بكلِّ ما يحملُ اللَّيلُ الباردُ من عداوةٍ
اللَّيلُ الذي يخبئُ تحتَ عباءَتهِ خطَّ الطَّريقِ الزَّائفِ

لا يزعمُ اللَّيلُ النَّومَ
غصنُ لبلابهِ متيبسٌ
خوفًا مِنْ العاصفةِ
تمرُّ بمخالبها على زجاجِ النَّافذةِ
لَستُ يائسًا

تحتَ تملمُلِ اللَّيلِ مِنْ الطَّريقِ البَعيدِ
يدنو ـ بِهدوءٍ ـ صوتُ قدميْ أحدِهم.

الصَّبرُ المُرُّ

شفتاي بِصمتٍ
تَعقدُانِ عهدَ الصَّبرِ ـ

تحتَ أشعةِ الشَّمسِ، هناك نظرةٌ أحترقُ مِنها
بنفورٍ تعقدُ
شُعلتُها بشُعلتي،

تحتَ غَيمةٍ خادعةٍ
تلك التي تحدُّقُ بها
ظَمأ ذهنِ هذا الجَّسدِ الملتَهبِ

تحتَ هذه الابتسامةِ النَّقيةِ
دخولُ ساحرةِ الحِقدِ
التي تقيِّدُ قَدميَّ بالسَّلاسلِ

آهِ أيُّها الأصدقاءُ الأعداءُ
الرُّحماءُ في الحَربِ
رُفقائي غيرُ الأوفياءِ
المخْلِصونَ المتلوِّنونَ
أحترقُ بِي
كاحتراقِ دَمي في الحُمَّى

دون أنْ يطلقَ قَلبي الصَّبورُ صرخةً
تتقطَّرُ في لَيلي
يبدو أنَّ شفتيَّ قد تعاهدتا
عهدَ الصَّمتِ.

الضَّبابُ

الضَّبابُ يغطي الصَّحراءَ
ضوءُ القريةِ محجوبٌ
موجةٌ حارةٌ في دَمِ الصَّحراءِ.
الصَّحراءُ متعَبةٌ
الشِّفاهُ مُطبَقةٌ
النَّفسُ محطَّمةٌ
في هذيان الضَّباب الحار، يتفصَّدُ كلُّ مفصلٍ عرقًا

«الضَّبابُ يغطي الصَّحراءَ (يغمغمُ العابرُ)
كلابُ القَريةِ صامتةٌ
أصلُ، تحتَ عباءةِ الضَّبابِ، إلى البيتِ
زَهرةُ الجَّبلِ لا تعرفُ،
تَراني فَجأةً، عندَ الأعتابِ، دمعةً
وعلى شَفتيها ابتسامةٌ، ستقولُ:

الضَّبابُ يُغطي الصَّحراءَ أفكرُ في سِرِّي
لو استمرَّ الضَّبابُ حتَّى الصَّباحِ؛
سيخرجُ الرِّجالُ الجَّسورونَ
مِنْ مخابئهم لزيارةِ أحبابِهم»
الضَّبابُ يغطي الصَّحراءَ
ضوءُ القريةِ محجوبٌ
موجةٌ حارةٌ في دَم الصَّحراءِ.
الصَّحراءُ ـ متعَبةُ الشِّفاهِ مطبَقةُ النَّفسُ ـ محطَّمةٌ
في هذيانِ الضَّبابِ الحارِ، يتفصَّدُ كلُّ مفصلٍ عرقًا.

مِنْ جُرحِ قلبِ «آبائي» [1]

فَتياتُ الحقولِ
فتياتُ الانتظارِ
فَتياتُ الأملِ العَسيرِ
في الحقولِ اللامتناهيةِ،
والأمَاني اللامُتناهيةِ
في الطبائع الضَّيقة!
فتياتُ خَيالِ المِظلاَّتِ الجَديدةِ
ـ في المِظلاَّتِ ذات المائةِ عامٍ! ـ
لو تفتحنَّ أزرارَ ثيابكنَّ
الرِّيحُ المجنونةُ
ستحرِّكُ أعراف خُيولِ التَّمَنِّي

(1) آبائي: مدرِّسٌ تركيٌّ قُتل بالرصاص في محافظة «گرگان» في زمن الشاه منتصف أربعينيات القرن الماضي، خلال عرض مسرحي كان من المفترض إقامته لولا أن أصدر الحاكم آنذاك أمرًا بوقف العرض، فاحتجَّ «آبائي» لينشبَ صراعٌ عنيفٌ بينه وبين قوات النظام فقُتلَ بالرَّصاص على الفور. وقد نُشرت هذه القصيدة إبَّان حكم الشَّاه بعنوان آخرَ للالتفافِ على الرقابةِ، لكنَّ اسمَه بقي يرمز للشَّجاعة في مختلف الأعمال الفنية. [المترجمة]

فَتياتُ النَّهرِ الطِّيني!

فَتياتُ أعمدةِ الدُّخانِ العاليةِ!

فَتياتُ الحُبِّ البعيدِ

في يومِ الصَّمتِ والعَملِ

في لَيالي التَّعبِ!

فَتياتُ النَّهارِ

الركضِ بلا إرهاقِ

في ليلِ الخَسارةِ!

في أيَّةِ رقصةٍ رهبانيةٍ ستشتعِلُ الشِّفاهُ

وفي بُستانِ عُزلةٍ وسرِّ محبةِ أيِّهم،

ستُشْرعْنَ أذرعَكُنَّ الكريماتِ؟

واحسرةَ الشَّعرِ والنَّظراتِ

يغمرُ الظَّلامُ بعبثِ عطرَ لغةِ الشَّاعرِ.

فتياتُ الذهابِ والإيابِ

في الحقولِ الضَّبابيةِ!

فَتياتُ الخَجلِ

النَدى

الوقوعِ

القَطيعِ!

مِنْ جُرحِ قلبِ «آبائي»

على صدرِ أَيّكُنَّ قطَّرَ الدَّمُ؟

على نَهدِ أَيّتِكُنَّ؟

شِفاهُ أَيّتِكُنَّ

أزدهرَ بلوغُها في الرَّبيعِ؟

أخبرنني!

أَيّتُكُنَّ في شفتيها عطرُ قبلةٍ مختبئةٍ؟

الآنَ، أَيّتُكُنَّ ستبقى يقظةً؟

في اللَّيالي الممطرةِ ـ في اللاجدوى ـ

في سريرِ اليأسِ الخَشنِ

في سريرِ الحَنينِ الضَّيقِ

في سريرِ التَّفكير السِّري المؤلم

لِذِكراهُ

ـ ذلك الغاضبُ والشجاعُ ـ

مَتى ستلمعُ شُعلةُ النَّارِ

في أعيُنِكُنَّ المفتوحةِ مُجدَّدًا؟

أخبرنَني!

أيَتِكُنَّ ستَصقُلُ سِلاحَ «آبائي»

لأجلِ

يومِ

الانتقامِ؟

الرِّياحُ

اللَّيلةَ، بدَأتِ الرِّياحُ مرَّةً أُخرى
بِغناءِ إسطورتها القَديمةِ

«الرِّياحُ!
الرِّياحُ!
الرِّياحُ العازفةُ!»

الرِّياحُ العازفةُ
تَتسلى بِالقصصِ المُملةِ

الرِّياحُ العازفةُ!
اللَّيلةَ
«روكسانا»
بِثوبِها الطَّويلِ الأبيضِ

مختبئةٌ مِنْ الجميعِ
هي في ضيافَتي
والآنَ، هي ثملةٌ
وقَعتْ على سَريري
«تجاهَلوا حكايتِنا!»
لا تصرخوا...
أَيَّتُها الرِّيحُ العازفةُ
دَعي
«روكسانا»
في سَكرتِها الثَّمينة هذه اللَّيلةَ
دَعيها تبيتُ حتَّى الصَّباح هنا
أَيَّتُها الرِّيحُ العازفةُ!

مِن الحكاياتِ الُمخجلةِ
تلكَ التي يُرويها النَّمَّامونَ في الأسْواقِ
سوفَ لنْ تخرجَ «روكسانا» مِنْ كُوخي، أبدًا

خارجَ كوخي تَعوي الرِّياحُ
«أَيُّها القساةُ بِهدوءٍ»!

«أَيَّتُها الرِّياحُ العازفةُ»
إنَّهم يتسلَّونَ بحكاياهمُ المُملَّةِ
متعَبينَ مِنْ أوجاعِهم
إنَّهم
يحترقون بِنيرانهم.

الغُبارُ

أخشى صرخةَ وحشِ العاصِفةِ
ولَستُ حزينًا مِنْ زئيرِ الرَّعدِ،
لا آخذُ الموتَ المسكينَ على مَحملِ الجَّدِّ

واقفًا، كالشَّجرةِ باستقامةٍ
حدِّثْني عَن لَبلابٍ بلا مأوىً
لا تلتفْ بلا ثمرٍ حولَ يَديَّ وساقيَّ

لا يُحزنني العوزُ:
إنَّهُ عنبرٌ يحترقُ في مَجمرتي منذ أعوامٍ

لَستُ حزينًا مِنْ افتراءِ القُساةِ عليَّ
منذ فترةٍ أنا أغضُ السَّمعَ عَن أباطيلهم!

لكنْ، حينَ تهجرُ الطُّيورُ البحرَ
ـ من فوقِ الجُّسورِ، الأسطُحِ، المُستنقعاتِ ـ
أبدأُ بالرَّكضِ حافيًا وراءها،
وحينَ تختبئُ وراءَ الأفقِ
أعودُ مرَّةً أُخرى إلى أعشاشِها النَّقيةِ
لتَرسمَ الدُّموعُ حلقةً حول عينيَّ
رغْمَ أنَّني صَلبٌ كالحديدِ.

في عُزلتي
طائرُ اللَّيلِ يَندبُ لإقصاءِ اللَّيل
حُزنٌ عَدمِي يَلفُني في طَيَّاتِ ثيابهِ

كالتفافِ الأصابعِ حولَ السَّتائرِ
ورنينِ صَوتِ ناقوسٍ عذبٍ
وصَمتِ أجراسِ السُّهولِ
ومِنْ أذانِ الدِّيكِ العَجولِ
ومِنْ عبورِ الضَّبابِ فوقَ الغابات
ومِنْ صوتِ الغربانِ

ومِنْ المَغيبِ المكسوِّ بالثَّلجِ
قَلبي يذرفُ الدُّموعَ
رغمَ أنَّني أصمُّ أمام هديرِ الطُّوفانِ
ولا أخشى هجمةَ الرِّياحِ

قويٌّ كدرعٍ على صدرِ مقاتلٍ
أو أنَّ إيماني أصبحَ قويًا كالفولاذِ!

إذا غنَّى طائرٌ لإقصاءِ اللَّيلِ
دموعٌ رقيقةٌ تتساقطُ مِنْ عينيَّ.

انتظارٌ

صباحًا،
بقلبٍ مُتعَبٍ، وشَفتيْنِ مطبَقتيْنِ،
ألقي مِنْ النَّافذةِ بِعينيْنِ نَاعستينِ
نظرةً باردةً إلى الخارجِ.

في الضَّبابِ الهَواءُ الرَّطبُ الحَزينُ
تتقطَّعُ الخُيوطُ الفِضيَّةُ مِنْ مِسبحةِ اللُّؤلُؤ
في فُرنِ الرِّيح، بِقلبِهِ الحَزين
الذي حَرقَ بِبطءٍ أوراقَ شُجيراتٍ خضراءَ بلا لهبٍ

عالقٌ هنا بإنطفاءٍ
واقفٌ
بِبرودٍ

الطَّريقُ خاوٍ
تحتَ هطولِ المَطرِ!

تَرَدُّدٌ

يبدو أنَّني رأيْتها

في لَيلٍ بعيدٍ،

في حلمٍ ضبابيٍّ ومبهمٍ

كانتْ تَهويدةُ خطوطِ جَسدها الدَّافئ

تضيعُ في صرخاتِ الضَّبابِ البَعيدِ

تبدو ابتسامتُها الباهتةُ كموجةٍ مُتعبةٍ

في هذيانِها الجَّميلِ

يبدو عليهاالألمُ لكنَّها تبتسمُ

صارَ كلُّ كياني عينًا حينَ نظرتُ إليها

مِنْ أعماقِ يأسي ناديْتها

«أيَّتها الحاضرةُ والبعيدةُ عنْ العين!»

إنَّني أتجرَّعُ منذ وقتٍ طويلٍ طعمَ انتظاركِ المُرِّ

اجعلِي حلمَ حبِّكِ، في هذه الحفرةِ المُظلمةِ، شمسَ الحَقيقةِ!

ثمَّ هوتْ عيناها في ذلك الانطفاءِ على عينيَّ،

في عُمقِ التَّرَدُّدِ قلتُ في سرِّي:

«ألم تَكنْ نَظرتُها إجابةً مُشمسةً لقلبي المظلمِ اليائسِ؟»

«أليستْ نظرتُها تلكَ الموسيقى الدَّافئة،

شَعرتُ بِها آلافَ المرَّاتِ في رَغبتي المليئةِ بالألمِ

أنا أضعُ نَقشَ أُمنياتي الفجَّةِ المَخفيةِ في أُطرِ التَّصويرِ في عَيني

ثمَّ بيأسٍ، ومِنْ عمقِ قَلبي، صرختُ... مِنْ بعيدٍ:

أيَّتُها الحاضرةُ والبَعيدةُ عنْ العينِ»

حرَّكتْ شفتيْها مجيبةً

لكنَّ صوتها اختَلطَ بأصواتِ المحبةِ البَعيدةِ الخارجةِ مِنْ كفِّي

تهويدةُ خطوطِ جَسدها الدَّافئ مِنْ نَسيجِ ثيابِ الضَّبابِ

بَدتْ كحلمٍ مُغبرٍّ وغامضٍ،

حلمٍ ضاربٍ في القِدم، راودني مرَّةً.

إحساسٌ

أمام «السَّراي» القَديمِ،
ثلاثُ فَتياتٍ رمينَ،
تفاحةً حمراءَ قُربَ قَدمي
اصفَرَّ وجهي، لكنَّي لَمْ أقلْ شيئًا
فقط تَلعثمتُ للحظةِ،
صوتُ ثقلِ قدميَّ
ضَربَ على البلاطِ
فتاتان مِنْ النَّافذةِ، المحاطةُ بأزهارِ «شبِّ اللَّيلِ»، رمتا بجدائلهنَّ قُربَ قَدميَّ
اِرتعشتْ شفتاي، وجفَّ الكلامُ على فمي
فقط مِنْ جرحِ شفتي التي كنتُ أعضُّ عليها
بقي أثرٌ مِنْ النَّارنجِ على قَميصي!

عدتُ إلى البيتِ، قَدمايَ مجدورتانِ،
والقلبُ منقبضٌ،
ويدايَ فارغتانِ.

اِرتميتُ على سَريري الفارغِ مِنْ الحُبِّ،
ثملاً مِنْ حُزنٍ مُبهمٍ.

كانَ اللّيلُ، القلِقُ التَّعِبُ، يعبرُ بهدوءٍ في طَريقهِ الطَّويلِ
صَرخَ غرابٌ على شجرةِ دلبٍ، بَعيدةٍ، تحتَ القَمرِ
في تلكَ اللَّحظةِ
حرَّكَ النَّسيمُ الصَّباحي الباردُ ستارةَ البيتِ
في ذلك الانطفاءِ الحالمِ؛
ظَننتُ بأنَّ قلبَ الفتاةِ يرتجفُ شوقًا على الستارةِ
ظننتُ بأنَّها دائمًا، ومِنْ فرطِ الشَّوقِ، تقودُ أنفاسَها نحوي بلطفٍ، بسعيٍّ يائسٍ ومشؤومٍ.
اِنطبقتِ العيونُ المتعبةُ
بدأ الفجرُ يفكُّ جدائلَ الصُّبحِ المجَعَّدةِ بهدوءٍ
يبتسمُ ببرودٍ
ليتفكَّكَ طِلسمُ عذابي
شَعرتُ بشفاهٍ ميِّتةٍ تقبِّلُ شَفتيَّ المُلتهبتيْنِ في الحلمِ!

خُفَّاشُ اللَّيلِ

رغمَ أنِّي لَمْ ألمحْ هذا الأعمى الأصمَّ اللاَّمبالي
يتودَّدُ للفَجرِ المُضيءِ
لكنِّي سَمعتُ بأنَّ اللَّيلَ المُظلمَ ـ مَهما كان ـ
سيعبرُ أخيرًا مِنْ ضيقِ الفَجرِ.

لذلك أغلقُ البابَ عليَّ، في انتظارِ الصُّبحِ
رغمَ أنَّ الصُّراخَ يُخنقُني
أسعى بألاَّ أفورَ مِنْ الغَضبِ
أجلسُ كالحرملِ فوقَ النَّارِ
لكنِّي مُنطفئٌ.

رغمَ أنَّ الدَّمعَ في عينيَّ
أنكمشُ على نفسي كي لا يبلِّلَ الدَّمعُ ثوبي.

مُنذ فترةٍ لَمْ يعبرْ عابرٌ مِنْ هذا الجَّانب
كي تُضيءَ نافذتي مِنْ ضوءِ شَمعتهِ
ذهني يذهبُ نحو طريقِ الفَجرِ
لكنْ أين هو الفَجر!

في هذهِ العُزلةِ
لا يتحرَّكُ غُصنٌ لأنَّ طائرًا عليهِ،
لا يتأوَّهُ بابٌ لأنَّ ريحًا تعصفُ بهِ،

حتَّى أنَّ كلبًا لم يَعوِ في البعيدِ...
حتَّى أنَّ وريقةً لم تحرِّكْها الرِّياحُ.

وحشُ الصَّمتِ يَلدغُ صَرختي
وأنا بانتظارِ أصواتِ ديكةِ الفَجرِ

ترسو السَّفينةُ في بحرٍ ليليٍّ
ومِنْ ميناءِ النَّجاةِ
لا يومضُ أيُّ نورٍ لأملِ الصَّباحِ!

لفرطِ شوقي أرسمُ في خَيالي

ريشةَ ديكِ الفَجرِ

لكنَّ ديمومةَ اللَّيلِ تمحو الرسمَ!

أرسمهُ في قَلبي

لكنَّ ديمومةَ اللَّيلِ

تدثِّرُ الرَّسمَ بالتُّرابِ

كلُّ شيءٍ بقيَ على حالِهِ:

لا يبزغُ شَوقُ الفَجرِ في نايٍّ

خُفَّاشُ اللَّيلِ لَمْ يتحرَّكْ مِنْ مسكنهِ

ربَّما تهشمتْ أقدامُ شمسِ الفَجرِ

ربَّما ماتَ الدِّيكُ قَبل الأذانِ

ربَّما صَمَّت أُذني

وصاحَ الديكُ ولَمْ أسمعْهُ

ربَّما مرَّ الفَجرُ

وأنا عَميتُ!

مَوتُ «نازلي» (1)

«نازلي! تبَسَّمَ الرَّبيعُ وازدَهرَ الأرجوانُ
في البيتِ تحتَ النَّافذةِ أثمرتِ الياسَمينةُ العَجوزُ
كُفَّ عَن الظُّنونِ
لا تُصارعِ الموتَ المَشؤومَ!
البقاءُ أجملُ مِنْ الفَناءِ، لاسيَّما في الرَّبيعِ»

لم ينبسْ نازلي بِكلمةٍ
بِهُدئً وغضبٍ شدَّ رحالهِ، وذهبَ.

(1) سيلفتُ انتباهَ القارئ اسمُ «نازلي» المؤنَّث، وصيغةُ المخاطب المذكَّر، وذلك لأجل التمويه على الرقابة في إيران الشَّاه، حيث أنَّ المقصودَ بـ «نازلي» المناضلُ وارطان سالاخانيان، المولودُ عام 1931 في تبريز - والمتوفى عام 1955 في طهران. كان وارطان ناشطًا أرمينيًّا - إيرانيًّا وعضوًا في «حزب توده الإيراني»، اعتُقلَ في 28 أغسطس من عام 1955 رفقةَ صديقه «كوجك» بعد أن وجدَ رجال أمن نظام الشاه داخل صندوق سيارتِهِ مطبوعاتٍ تخصُّ فعالياتهم في الحزب، وتوفيا معًا بعد أسبوعٍ من التَّعذيب المستمر، حيث عُثر على جثمانه تعلوه آثارُ التعذيب والحرق مرميًّا في نهر «جاجرود»، للإيهامِ بأنه تُوفي غرقًا. كتبَ «شاملو» هذه القصيدة في السِّجن بعد (ثورة 28 مرداد) إهداءً لروح شريكه في الزنزانة، وإلى كل «وارطان» في العالم بحسبِ تعبيره. [المترجمة]

«قُلْ شيئًا يا نازلي!

أنثى طائرِ الصَّمتِ، تُرَبي بيضةَ المَوتِ المُفجعِ في عشِّها»

لم ينبسْ نازلي بِكلمةٍ،

بَزغَ مِنْ الظَّلامِ كالشَّمسِ

تلطَّخَ بالدِّماءِ وذهبَ

لَمْ ينبسْ نازلي بِكلمةٍ،

كان نجمًا لُمحَ في الظَّلامِ،

ثمَّ توارى.

لَمْ ينبسْ نازلي بِكلمةٍ،

كانَ بنفسجًا نَما،

زفَّ بِشارةً «برحيلِ الشِّتاءِ»

ورَحلَ.

لا أُراقصكِ في الدُّخانِ الأزرقِ

لا أدورُ بكِ في برجِ الحَريرِ

لا أراقصكِ على المسارحِ العاجيةِ

لَيلُ الخَريفِ يرتجفُ على السَّريرِ

الرَّمادُ مُمتلئٌ بالغيمِ الباردِ

الفَجرُ بِلحظاتهِ المتَأخرةِ يرتقبُ الصَّباحَ

طفلان أمامَ بيتٍ ما يحلمون بالنَّارِ ليستدفئا

ثلاثةُ أطفالٍ على برودةِ رصيفٍ ما؟

مئةُ طفلٍ على رطوبة زقاقٍ ما؟

لا أراقصكِ في الدُّخانِ الأزرقِ

لا أهوي معكِ ـ في أحلامٍ مَخمليةٍ ـ لفكرةٍ حقيرةٍ

فقاعةُ ضحكةٍ باهتةٍ تَتفجَّرُ

ليلاً يبكي الخَريفُ في مجرىً ضيِّقٍ

ثمَّةَ حبٌ لا أملَ فيه

أترصَّدُ في هذا الظَّلامِ الموحشِ

طفلين ينامان أمامَ «السَّراي»
ثلاثةَ أطفالٍ على سريرِ البلاطِ الباردِ،
ومئةَ طفلٍ على التُّرابِ الرَّطبِ
لا أهوي مَعكِ على مُخملِ أفكارٍ بلا أساسٍ
لا أتدحرجُ مَعكِ فوقَ سريرٍ ناعمٍ لخيالٍ فَجّ
لو كانَ لحنُ المطرِ الذي يَضربُ على سَطحك يجلبُ النُّعاسَ
لو كانَ الحبُّ يدفعُني لأرى انعكاسَ شُعلةِ النَّارِ رقصةً على جدارِ غرفتي
لو في ذلك المَجرى الضيِّقِ فقاعةٌ تتشكَّلُ مِنْ حبَّاتِ البَرَدِ
ولو أنَّ عابرًا ليليًّا يغنِّي في زُقاق...
بأيِّ نارٍ يحمي الطِّفلانِ جسديْهما مِنْ البَرْدِ أمامَ «السَّراي»؟
والثلاثةُ أطفالٍ على أيِّ بلاطٍ باردٍ؟
والمئةُ طفلٍ في أيِّ زُقاقٍ رطبٍ؟
لا أدورُ مَعكِ في مساحاتِ الأماني البَعيدةِ
لا أراقصُكِ في دخانِ عنبرِ الأملِ
ما بين اللَّيلِ والنَّهارِ الذي وراء رمادِ الفَجرِ
ماتَ طفلانِ، الآنَ، أمام «السَّراي»
وثلاثةُ أطفالٍ على البلاطِ الباردِ،
ومئةُ طفلٍ على التُّرابِ الرَّطبِ!

ساعةُ الإعدامِ

دارَ، في قُفلِ البابِ، المفتاحُ
ارتجفتْ اِبتسامةٌ على شَفتيه
كأنها رَعشةُ قَطراتِ الماءِ على السَّقفِ
وقدْ انعكسَ ضوءُ الشَّمسِ عَليها
دارَ، في قُفلِ البابِ، المفتاحُ

في الخارجِ
بدا لونُ الصَّباحِ الجَّميلِ
كنوتةٍ ضائعةٍ
تَبحثُ عَن ثقوبِ نايٍ
تَبحثُ عن بيْتِها
دارَ، في قُفلِ البابِ، المفتاحُ
ارتجفتْ اِبتسامةٌ على شَفتيه
كأنها رَعشةُ قطراتِ الماءِ على السَّقفِ
وقدْ انعكسَ ضوءُ الشَّمسِ عَليها
دارَ، في قُفلِ البابِ، المفتاحُ!

الشِّعرُ هو الحَياةُ

لَم تكنْ الحياةُ ما تشغلُ الشَّاعرَ قديمًا
مِنْ سماءِ خياله الجَّافِّ،
لَمْ يتحدثْ سوى مَع الحبيبِ والشَّرابِ
كانَ سارحًا في الخيالِ ليلاً ونهارًا
كانَ أسيرًا في شِباكِ جديلةِ المعشوقةِ المُضحكةِ...
ثمَّ أنَّ الآخرين
كانتْ أيديهم واحدة تقبضُ على الكأسِ،
وأخرى على جديلةِ المعشوقةِ،
كانوا يعربدون ثَملينَ في أرضِ اللهِ!

ما شُغِلَ الشَّاعرُ
فلَمْ يكنْ مؤثرًا لنستخدمهُ مثقابًا
في طرقِ الحربِ

أو في الشِّعرِ
لَمْ نكنْ نستطيعُ أن نزيحَ
الوحوشَ الحجريةَ مِنْ الطَّريقِ
أيْ لَمْ يكنْ لوجودِهِ أيُّ أثرٍ
سِيَّان كانَ لنا، وجودهُ مِنْ عَدمِهِ
لَمْ نكنْ لنستخدمهُ بدلاً من حبلِ المشنقةِ!

بينما حاربتُ مرَّةً
أنا وقصائدي
كتفًا بكتفٍ مع «شان شوي» الكوري.
وفي أخرى، قبلَ أعوامٍ
علَّقتُ في قصائدي
حبلَ مشنقةِ الشَّاعر «حميدي» [1]

اليومَ،
الشِّعرُ حربةٌ للخليقةِ

(1) د. مهدي حميدي شيرازي: شاعرٌ محافظٌ، يُعدُّ من المعارضيَن البارزينَ للشِّعرِ «النِّيمائي» وحركة التَّجديدِ في الشِّعر الفارسيِّ المعاصرِ. [المترجمة]

لأنَّ الشعراءَ غصنٌ من غابةِ الخَليقةِ
ليسوا ياسمينةً ولا سنبلةً في بيتٍ زجاجيٍّ

شاعرُ اليوم ليس غريبًا
عن أوجاعِ العالمِ المشتركةِ
هو يبتسمُ بشفاهِ الآخرينَ

اليومَ، الشاعرُ
اليومَ
يجبُ أن يرتدي الشاعرُ ثيابًا جيدةً
ينتعلَ حذاءً مطليًا نظيفًا
ثمَّ في أكثرِ مواقع المدينة ازدحامًا
يبدأُ بدقَّةٍ، بينَ المُشاةِ، تفصيلَ موضوعهِ وقافيتهِ والوزنَ،
تعالَ معي أيُّها «المواطنُ» العَزيزُ
كنتُ أبحثُ عنكَ منذ ثلاثةِ أيامٍ
«تبحثُ عنِّي؟
يا للعجب!
ربَّما يا سيدي تظنني شَخصًا آخرَ؟»

كلاَّ عزيزي! هذا مُحالٌ،

أنا أعرفُ أوزانَ قصيدتي الجديدةِ مِنْ بعيدٍ

ماذا قلتَ؟

وزنُ الشِّعرِ؟

تأمَّلْ بهذا يا رفيقُ

أنا دائمُ البحثِ عَن الوزنِ واللُّغةِ والقافيةِ

في الزُّقاقِ

طالما كانتْ قوافي قصيدتي أناسًا مِنْ الحياةِ

(التي تشبهُ قطعةً شِعريَّةً قَصيرةً)

أنا دائمُ البحثِ عَنها بينَ النَّاسِ

هذا الطريقُ

يعطي الشِّعرَ حياةً ونموًا

الآنَ

حانَ الوقتُ لأن يستجيبَ الشَّاعرُ إلى العابرِ

ليبدأَ منطقُ الشِّعرِ العملَ برغبةٍ

وإلاَّ سيضيِّعُ سعيَهُ

حسنًا، بعد أن وجدنا الوزنَ

علينا أنْ نبحثَ عَن اللُّغةِ

أيّةَ لغةٍ!؟

تبدو مِنْ اسمها

فتاةً هادئةً مُبتسمةً

على الشِّعرِ أنْ يبحثَ فيها،

هذا العملُ صَعبٌ وعَسيرٌ

لكنْ لا مفرٌّ...

السيدُ الوزنُ والسيدةُ اللُّغةُ

يجبُ أن يكونا متناسقيْنِ

ليكونَ نتاجُ حياتهما لطيفًا

مِثلي، أنا وزوجتي

أنا كنتُ وزنًا وهي الكلِماتِ

كانَ موضوعُ الشِّعرِ، أيضًا

لقاءً أبديًّا لشِفاهِ المَحبَّةِ.

كانتْ ابتساماتنا الطُّفوليةُ،

تلك (الضرباتُ السعيدةُ)

تفترشُ القصيدةَ بفرحٍ...

لكنْ ما نفعُ ذلك؟ الكلماتُ السُّودُ الباردةُ

مَنحتْ شُعورًا جنائزيًّا مَشؤومًا للقصيدةِ

كسَرتِ الوزنَ

والضَّرباتِ السعيدةَ

فقدتِ القصيدةُ ثمرَها وأُهملتْ

وأرهقتْ شاعرَها بلا سببٍ

مرَّةً أُخرى طالَ الحديثُ

تسبَّبَ بفتحِ هذا الجرحِ الأليمِ،

قُلنا:

شِعرُ شاعر اليوم

هو الحياةُ

يصوِّرُ الشَّاعرُ مِنْ أثرِ الحياةِ

الماءَ واللَّونَ على الخَريطةِ

إنَّه يكتبُ الشِّعرَ

يعني

إنَّه يَضعُ يدهِ على جراحِ المدينةِ العجوزِ

يعني

إنَّه يقصُّ على اللَّيلِ سيرةَ الصُّبحِ القريبِ

إنَّه يكتبُ الشِّعرَ

يعني

إنَّه يصرخُ لأوجاعِ مدينتهِ وديارهِ

يعني

بِترانيمهِ يعمِّرُ الأذهانَ المتعبةَ

إنَّه يكتبُ الشِّعرَ

يعني

يملأُ القلوبَ الباردةَ الفارغةَ بالشَّوقِ

يعني

إنَّه يفتحُ العيونَ المطبقةَ على نورِ الصَّباحِ

إنَّه يكتبُ الشِّعرَ

يعني

إنَّه يفسِّرُ رسالةَ الفخرِ لإنسانِ هذا العَصرِ

يعني

إنَّه يكتبُ تقريرًا حولَ فتوحاتِ عَصرهِ

أيضًا، هذا الحديثُ الجَّافُّ الفارغُ مَنْ الألفاظِ

ليسَ شأنَ الشِّعرِ

لو كانَ الشِّعرُ هو الحياةَ

فنحنُ في أكثر آياتهِ سوادًا!

نشعرُ بدفءِ شمسِ الحبِّ والأملِ

«كيوان» [1]

كتبَ ترنيمةَ حياتهِ بالدَّمِ

«وارطان»

جسّدَ صرخةَ حياتهِ في قالبِ الصَّمتِ

رغمَ أن قوافي حياتهِ

لَمْ تكنْ سوى ضرباتِ موتٍ قاتلةٍ.

في كلِّ القصائدِ

معنى كلِّ موتٍ

هو الحياةُ.

(1) كيوان: مرتضى كيوان، الشّاعر والناقد والصحفي، المناضل والناشط السياسي، عضو «حزب توده الإيراني» الذي خبّأ في بيته إبّانَ (ثورة 28 مرداد) ثلاثةً من أعضاء الحزب خِشية بطش النظام البهلوي، ليُعتقلَ في عام 1954 بتهمة الخيانةِ ويُعدَمَ رميًا بالرصاص في سِجن «القصر». [المترجمة]

الرَّسمُ

الصَّمتُ يُغطي جسدَ المستَنقعِ
يَضعُ قُبلةً طريةً عَليه ويعانقهُ
مِنْ أعماقِ الغَضبِ
يخبرهُ سرَّهِ بنغمةٍ خافتة.

رقصةُ القَمرِ في الخَريفِ جميلةٌ
مَع هبوبِ الرِّياحِ الباردةِ الثَّقيلةِ
كعنقِ (كابيت)[1] الضَّخمِ
حينَ طبعتِ المقصلةُ قُبلتها الحَمراءَ عَليهِ !

(1) إشارة إلى الملك لويس السادس عشر آخر ملوك فرنسا قبل الثورة الفرنسية. ساعد «لويس» الثورة الأميركية عام 1776؛ فأرسل فرقة فرنسية بقيادة «لافاييت» لمساعدة الثوار هناك. في عام 1793 حاول «لويس» الفرار من فرنسا رفقة زوجته ماري أنطوانيت، ولكن ألقي القبض عليهما وتم إعدامهما بالمقصلة في باريس. أما تسمية «كابيت» أو «مسيو كابيت» فعبارة عن لقب مضحك أطلق على الملك خلال الأشهر الأربعة التي سبقتْ إعدامه. [المترجمة]

في كفاحِ الحَياة

تحتَ طيقانِ العَرشِ، على مائدةِ الأرضِ
في الضَّوءِ والظَّلامِ
في ضَجيجِ وصَخبِ الرِّياحِ المجنونةِ
في إطارِ المشنقةِ
في الجَّبلِ والسَّهلِ والرِّياضِ
في أعماقِ اللججِ، في الأهوارِ الرَّطبةِ
في دقاتِ السَّاعةِ
في فخاخِ الأعداءِ
في السَّتائرِ والألوان، في أطلالِ المدينةِ
في عواءِ الكِلابِ
في الدَّمِ والغَضبِ واللَّذَّةِ
في الحزنِ والمسرَّةِ
في القُبلةِ المُجاورةِ أو في البؤرةِ السَّوداءِ
في الفَرحِ والألمِ
في الطَّربِ والكِفاحِ، الضحكِ والمأتمِ، الصُّعودِ والهبوطِ

في بِركِ الدِّماءِ
في مستَنقعِ اليأسِ
في بساطِ الخِداعِ
في التُّوليبِ الأحمرِ
في أراضي القَصبِ السَّاخنةِ
في الماءِ والحَجرِ والخُضرةِ والبَحرِ والسَّهلِ والنَّهر
في العينِ وشِفاهِ النِّسوةِ ذواتِ الشَّعرِ الأسودِ

في كانَ يا ما كانَ،
في المكانِ الذي يضمُّ الخوفَ والحرصَ والرَّقصَ
حيثما يكونُ الموتُ
حيثما يتعذبُ الأنسانُ ليلاً ونهارًا
حيثما يصرخُ القَدَرُ المتمرِّدُ
حيثما يلتفتُ الألمُ صوبَ البَشرِ
حيثما طَلبتْ الحياةُ مِنْ الحيِّ القتالَ

اخرجْ مِنْ بين النِّيامِ
اِصنعْ مِنْ قوَّتكَ وضعفِكَ
شفرةَ حادةَ الأطرافِ!

التِّمثالُ

أسرارٌ تختبئُ في عينيهِ الحزينتيْنِ
يقفُ ليلاً ونهارًا في صمتهِ
متضرعًا لكنوزِ أسرارهِ المكنونةِ

يَبحثُ بعينيهِ
في الألوانِ المُبهمةِ والزَّائفةِ والعَدميةِ
عَن سؤالٍ لا يعرفُ له إجابةً
لذلك، يجلسُ منذ سنواتٍ
على سَوادِ الطَّريقِ
أمامَ الرِّيحِ.

لا يطبقُ جفنيه، بعينينِ مَفتوحتيْنِ
يَسمعُ أغنياتِ العَابرين في المَساءِ
لا يعدُ الأشباحَ الصَّامتةَ التَّعيسةَ

عن حِجرِ ذاتِهِ الماجنةِ

مِنْ ذلك المرتفعِ ـ الذي لا يُدرَكُ اتِّساعُهُ ـ
لَمْ يجدْ سِوى العَدمِ الفاجرِ الأعمى
وليسَ على شَفتيهِ
ـ من بردِ الزَّمنِ القارسِ الوَحشي ـ
لحنٌ للتَّنهُّدِ

خُتمَ اللَّيلُ بالفَجرِ
الأيامُ ذاهبةٌ
هو اللاَّمبالي
لكنْ
في عزلةِ سَوادِ وجودهِ ـ الذي لا أهميةَ له ـ
شَرَعَ جناحيهِ
مِنْ عينينِ بلا نَظرةٍ
وحلَّقَ صَوتُ اللاَّنهايةِ.

يبحثُ بِعينيه

في مزيجِ الألوانِ الزَّائفةِ العَمياء للعَدمِ
عن سُؤالٍ مُبهمٍ لا جَدوى منهُ
هناك لونٌ محجوبٌ.

لذلك ربَّما ترى أعيُنُنا، أحيانًا
وهمًا يَتجلَّى
في ستائرِ نظراتهِ ـ البيضاءِ البَاهتةِ ـ

أو ربَّما تَسمعُ آذانُنا أحيانًا
سِرَّهُ المُضمرَ.

اللَّعنةُ

لا ضوءَ في المدينةِ
ـ طِيلةَ اللَّيلِ ـ
ولا صراخَ.

أَيَّتُها الآلهةُ المُرعبةُ التي تعقدُ الوعودَ ليلاً محبةً للظَّلامِ!
كيْ لا أُوقدَ فانوسَ الشَّيطانِ
في ممرِّ التَّعذيبِ السِّرِّيِّ بهذا الفِردوسِ الظَّالمِ،
لَسوفَ ألعنُ مئةَ ألفِ مرَّةٍ لياليكم الماجنةَ الطَّويلةَ
إلى ألفِ شَمسٍ خالدةٍ أكثرَ منها
لا تفتحوا بابَ فِردوسِكمْ العفنِ لي!

لا ضوءَ في المدينةِ
ـ طِيلةَ اللَّيلِ ـ
ولا صراخَ.

قلبي وحيدٌ كليلةٍ بلا أنجمٍ

طَريقي واضحٌ

قَدماي مُتعَبتانِ

لا يَسعفُني لساني

حتَّى يعرفوا لماذا أحترقُ.

أبدو كبطلٍ يقرأُ نشيدَ الفَتحِ القَديمِ

بجَسدٍ محطَّمٍ

وحيدًا أبدو

بقيَ جرحٌ موجعٌ مِنْ ضربةِ سيفٍ، ألَمٌ يحكمهُ الغَضبُ:

الدَّمعُ، يفورُ مِنْ حكايةِ ألمٍ في أعيُنٍ مدمَّاةٍ

غَضبٌ دامٍ، يجفِّفهُ الدَّمعُ في العينيْنِ.

في لَيلِهِ الذي لا ينتهي،

في صحراءَ نُصِبتْ فيها الكمائنُ بكلِّ صوبٍ

أعْزلَ ومَحنيَّ الظَّهرِ، مُتوجِّعًا

يصرخُ بغضبٍ:

لا ضوءَ في المدينةِ

- طِيلةَ اللَّيلِ -

ولا صراخَ.

أيَّتُها الآلهةُ التي تمجِّدُ الظُّلمةَ!

ليتَ ألاَّ نصيبَ لَنا،

في جِنانِكم العفنةِ

إلى الأبدِ.

كيْ أُوقدَ فانوسَ الشَّيطانِ

في ممرِّ التَّعذيبِ السِّرِّيِّ بهذا الفردوسِ الظَّالمِ

لسوفَ ألعنُ لياليكم الماجنةَ

حتَّى طلوعِ ألفِ شمسٍ خالدةٍ!

جُدرانٌ

الجُّدرانُ ـ ظاهِرةٌ وثابِتةٌ ـ بِصمتٍ،
دونَ حياءٍ،
بكلِّ خطوطِها
بكلِّ ما يرتكزُ عليها من أعمدةٍ
بِقبحٍ مبهمٍ في زواياها السَّوداءِ الحادةِ
في مقابض نوافذها
تخبرُنا عَن براءَتها.

جُدرانٌ مغطاةٌ بالطَّحالبِ،
فيها اِنعكاسُ شيءٍ مِنْ مَرايا الخِسَّةِ
تصوِّرُ لَنا الواقعَ الحقيرَ.

الجُّدرانُ ـ خائفةٌ مرتابةٌ ـ في الصَّمتِ
بشفرةٍ حادةٍ حتَّى نهاياتها

فِي حدودِ التَّفكُّكِ،
الجُدرانُ في حَربٍ مَع مَنْ حولِها.

كذلك الرِّيحُ العاتيةُ، بِعويلِ بكائها
تَضربُ بالسِّياطِ على هيبةِ الجِّدارِ
وتجرُّ مَعها
وتأخذُ مَعها
بهدوءٍ ورفقٍ
الأوراقَ اليابِسةَ والذُّبابَ الميتَ.

يَنوي الجَّدلَ أيضًا هذا الجِّدارُ
مَع حبَّاتِ المَطرِ الحقيرةِ
مع الخساراتِ المَنحوسةِ
لكنَّ الشَّمسَ
مستمرَّةٌ بِقوتِها إلى آخرِ الدَّهرِ.

على ظمأ الأسطحِ المتشقِّقةِ
بجَلَدٍ

يعطي ـ ذلك الخطابُ المشّعُ ـ إشارةً
يفضحُ بكلِّ إشارةٍ
سرًّا يقولُ،
«الجُّدرانُ القديمة تتهالَكُ لتُبنى؛
على كلِّ أساسٍ محطَّمٍ تُبنى بنايةٌ»
هو يخطفُ مُسرعًا مِنْ شَقٍّ في السَّطحِ
بهدوءٍ يقولُ:
«انتقام!».

بعدَ أنْ يزولَ ألمهُ
يَعبرُ ذلك المُسرِعُ في طريقهِ،
لكن في وسطِ المزرعةِ، ذاكَ الجِّدارُ!

حَرفٌ في الصَّمتِ
هلْ يستطيعُ ذلك؟
اعتادَ على نظرةِ أيِّ عابرٍ
أو أنَّه بين أسطُحهِ لا يغيبُ
سماءُ اللَّيلِ

الجُّدرانُ العَبثيةُ

الجُّدرانُ السِّريةُ!

نحنُ لا يمكننا الدخولُ إلى بواطنِ كلِّ الجُّدران

(بلا أدنى شَكٍّ

نحنُ نُشبهُ الجُّدرانَ)

لكنْ لن يهدأ القلقُ...

هلْ النظرُ في باطنِ الجُّدرانِ السِّرية ممكنٌ؟

الجُّدرانُ

سيئةُ المَنظرِ

في العشرين، في الألفِ

في تلكَ الطُّرقِ التي نعبرُها

الجُّدرانُ قادمةٌ مَعنا

باستمرارِ

الجُّدرانُ العازلةُ، المنغلقةُ، الغاضبةُ

الجُّدرانُ واقفةٌ بَيننا وبين الأقدارِ

يحيطُ بها سوادُ أقدارِنا

الجُّدرانُ القَبيحةُ، الجُّدرانُ المُتهالكةُ،

لا تسمعُ الفئرانُ فيها انطفاءَ المَصلوبينَ والمقيَّدينَ وراءَها
أكتافُهم تهالكتْ مِنْ قَيدِ الأغلالِ
وجفَّتْ القُبلُ على شفاهِهِمْ
لا تتحدَّثُ عن عَناءٍ تجشَّمهُ كلُّ هؤلاءِ الرِّجالِ
الذينَ هُم على حَقٍّ

أين ذلك الأملُ،
ليمتدَّ في الظِّلال السَّعيدة للغَدِ؛
بين تلكَ الجُدرانِ الجَّافَّةِ الباردةِ؟
مَع ذلك
هل يَكفي للمَجروحِ أملُ جدارٍ واحدٌ؟

مَع ذلك
في كلِّ حربٍ نَتكئُ على الجِّدارِ
متيقِّنينَ بأنَّ الضربةَ لا تأتي مِنْ الخَلفِ،
بل الأملَ،
ومِنهُ نكافحُ أكثر على هذا الطَّريقِ
رغم أنَّ الموتَ أيضًا

يأخذُ الأوامرَ
بالمزيدِ مِنْ الفرص والحُريةِ.

يخشى الأسدُ الفخاخَ، بالتَّأكيد
لكنَّه لا يجلسُ منكسرًا في مكانهِ
مُنزويًا عنْ الطَّريقِ والأبوابِ
مَطرودًا مِنْ الزَّمنِ الأصمِّ...
بل عيناهُ ستبحثانِ في الظُّلمةِ عن الضَّوءِ،
وبهدوءٍ؛ تنمو في قلبهِ فكرةُ الانتقامِ!

النِّيليُّ

تحتَ حركةِ الأمواجِ في العمقِ والسَّطحِ
تحتَ تَسارعِ النَّهارِ وموجةِ اللَّيلِ
في العزلةِ العميقةِ بالخَليجِ
هناك، حيثُ ينامُ الضَّوءُ والظَّلامُ بهدوءٍ
مُتجاورَيْنِ، لكنَّهما بَعيدانِ
هناك، حيثُ الطَّريقُ إلى فانوسِ النَّهارِ مسدودٌ
هناك، حيثُ يَلتقي الظِّلُّ بظلِّهِ
حلمُ فتاةِ البَحرِ البَعيدِ
ينامُ نيليَّ اللَّونِ
ليسَ حزينًا ولا سعيدًا

نيليُّ عينيكِ لا نهايةَ لَهُ
عندما تأخذها الدهشةُ بصمتِها
بانطفاءٍ، وبفورةٍ

كتكسُّرِ أمواجِ الشَّاطئِ على أُذُنٍ صمَّاءَ
هناك، حيثُ الضَّوءُ والظَّلامُ في خِصامٍ
يثيرانِ الويلَ!
يا للعارِ!
أيُّها النِّيليُّ!
فقط لأجلِ بؤبؤيْ عينيْها
كنتُ أعبدُكَ!

بانطفاءٍ ينامُ النَّاسُ
في نغمةِ عينيْها السَّاحرةِ،
نوتاتِ صمتِها المسرعةِ
أو فجأةً في سوناتا حميمةٍ
بعد صخبِ الآلاتِ...
تُعزفُ على البيانو ضرباتٌ ناعمةٌ منفردةٌ.

هذا اللَّونُ النَّاعسُ
في رقصاتِ الفالسِ المُثيرةِ بعينيْها
إنَّها نوتاتُ الصَّمتِ النَّاعمةُ المحبوبةُ

هذا الصَّامتُ النِّيليُّ، هو جنوني
بثقلٍ ونعومةٍ أَيَّتُها الرَّاقدةُ في عمقِ الخَليجِ
أعبدُكِ كعبادةِ الأصنامِ.

يا للعارِ!
أَيُّها النِّيليُّ!
فقط لأجلِ بؤبؤيْ عينيْها
كنتُ أعبدُكَ!

أُنثى طائرِ المَطرِ

في مَسعى اللَّيلِ،
حَيثُ الغَيمةُ المُثقلةُ تَمطرُ
فوقَ البَحرِ المرعبِ.

ومِنْ فوقِ البرجِ المبَلَّلِ المَعزولِ
تصرخُ غاضبةً أنثى طائرِ المَطرِ

وتتصاعدُ أمواجُ نَشيدِ البَحرِ الباردِ الهائجِ
ليضربَ كلَّ سَقفٍ ومكانٍ

اللَّيلُ غاضبٌ، مهمومٌ
يضعُ ثقلهِ على صمتِ الميناءِ المُنطفئ
يجرُّ أحدُهم قدميْهِ هناك بِجنونٍ،
ببطءٍ، وبثقلٍ

جسدهُ منطفئٌ وحزينٌ
أُنثى طائرِ المَطرِ في صراخٍ دائمٍ.

أَيُها العابرُ! أَيُّها العابرُ!
المطرُ يبلِّلُ ثيابَكَ
أَلَمْ تَزُرْكَ موسيقى النَّومِ
أَلَمْ تغيِّرْكَ فكرةُ مُجالسةِ الرِّفاقِ؟

تَبكي الغيمةُ
تدورُ الرِّياحُ
ويغمغمُ العابرُ:

آهٍ!
أنا الغريبُ، لقد تَركوني وحيدًا
أنا في هَذيانِ الحُمَّى،
لديَّ ما يَكفي مِنْ الأحلامِ
لأحدِّثَ محبوبًا آخرَ
وهذا العطشُ لا يُروى إلا بِقبلةٍ دمويةٍ مِنْ الشَّفتينِ.

في ذلكَ الحينِ، في المَيناءِ المَهزومِ
تدورُ الرِّيحُ في سَريرِها الموحشِ
ترعدُ الغيمةُ، تَتركُ أثرَها على الطَّريقِ
أُنثى طائرِ المَطرِ تصرخُ:
أيُّها العابرُ!
في لَيلِ العواصفِ
ألَمْ تَبحثْ عن ركنٍ دافئٍ؟
ألَمْ تُجِبْ ـ ببرودٍ حتَّى ـ على هذا السَّائل
الحَنون؟

تبكي الغيمةُ
تدور الرِّيحُ
بِهمسٍ خافتٍ، يغمغمُ العابرُ:

وا أسفاه!
بَيتي باردٌ بلا نارٍ، مُطفأٌ
الرَّعدُ يطلقُ ضَحكاتِهِ
بعد همسٍ هادئٍ مَع هذا اللَّيلِ المُتسِخِ

لتهربَ ابتسامةٌ وتحطَّ على شفتيْ اللَّيلِ

أُنثى طائرِ المَطرِ تغني:

أيُّها العابرُ لَيلاً!
أَلَمْ يهلكْ جسدُكَ بهذا التَّرحالِ دونَ خريطةٍ؟
تَبكي الغيمةُ
تدورُ الرِّياحُ
ويغمغمُ العابرُ:

في الطَّرقِ على أيِّ بابٍ، في البُكاءِ بأيَّةِ زاويةٍ
في أيِّ ليلٍ يمتصُّ الوهمُ السُّمَّ مِنْ ثَديٍّ أسودَ
أنا عابرٌ أقصدُ غَدي.

فكيفَ - يا أُنثى طائرِ المطرِ - يُحتَملُ هذا اللَّيلُ
وهذا المَطرُ وهذا الطُّوفانُ
أيَّتُها المسكينةُ!
الحياةُ ليستْ أكلاً ونومًا فَقط
إنَّها جميلةٌ!

نستطيعُ ـ بطريقةٍ ما ـ أنْ نُبحرَ بالسَّفينةِ
نستطيعُ الإبحارَ بهدوءٍ، في قاربٍ، ثملينَ مَع مَحبوبٍ
نستطيعُ، مع أغنية صاحب القاربِ، العزفَ والتَّقبيلَ
تحتَ ضوءِ القمرِ
لكنَّ الصَّيَّادَ السَّاهرَ مُرتدي الفُولاذِ
الذي يرفعُ شِراعَهُ تحتَ أعيُنِ العاصفةِ
على منحدرِ الهاويةِ المُظلمةِ وتلاطمِ الأمواجِ العاليةِ
يريدُ أخذَ الحياةَ مِنْ فمِ الموتِ
هل لا يزالُ بينَ أسنانهِ مذاقُ تلكَ القبلةِ الدَّمويةِ
التي وضعها بحرارةٍ على فمِ الحياةِ
القصيرةِ المليئةِ بالأوجاعِ؟

الحياةُ جميلةٌ أيَّتُها المسكينةُ!

أنا في هذه البؤرةِ المُظلمةِ الباردةِ
أترقَّبُ جوهرةً أزيِّنُ بِها صباحَ الغَدِ المُضيءِ.

أيَّتها المسكينةُ!
الحياةُ دون الجوهر لَيستْ جميلةً!

في ذلك البردِ المُظلمِ
يبدو حزينًا ضوءُ صاحبِ القاربِ مِنْ وراءِ النافذةِ
الظَّلامُ يمتصُّ ضوءَ أيِّ فانوسٍ
ومِنْ مَللٍ غامضٍ
البحرُ في حُمَّى هذيانِهِ يدورُ حولَ نفسِهِ
ومِنْ خَوفٍ أعمىً
في سَريرِ اللَّيلِ
الرِّيحُ
ومِنْ بهجةٍ ثملةٍ
الرَّعدُ
يَنفجرُ مِنْ الضَّحكِ
ومِنْ خَوفٍ صَعبٍ
الغيمةُ متعَبَةٌ
تبكي
في ظلِّ قاربٍ مقلوبٍ على الشَّاطئِ
خلالَ دفءِ حديثِ جماعةٍ
ثمَّةَ شمعةٌ يرتجفُ لهيبُها.

الغيمةُ تَبكي
الرِّيحُ تدورُ

وفي تلك الأثناءِ
يقفُ في طريقهِ ذلك الرجلُ
يتغنَّى بأغنيةِ مالكِ الحَزين
في اللَّيلِ، تضربُ تلك الأغنيةُ البحرَ
تحتَ قاربٍ مقلوبٍ
وبسعيهِ لأجلِ حَياةٍ أفضلَ،
يضيءُ الأملُ في عينيهِ
يضربُ المطرُ بأصابعهِ البِلَّوريَّةِ
ضرباتٍ
والقاربُ مقلوبٌ
البحرُ يصدرُ هديرَ غَضبهِ
يموجُ غاضبًا
على جسدِ العاصفةِ
يلكمُ الميناءَ
بحزنٍ وافرٍ
حتَّى يفرغَ قلبُ اللَّيلِ مِنْ أملِ نجمةٍ...

الغيمةُ تَبكي
الرِّيحُ تدورُ!

البقاءُ

تتطلبُ هذه الحياةُ النَّذالةَ،
وكم سأكون وقحًا لو لَمْ أُعلّق فانوسَ عمري على الفضيحةِ!
بارتفاعِ صنوبرةٍ في زقاقٍ مغلقٍ.

لو أردنا العيشَ بنقاءٍ
كم سأكونُ قذرًا
لو لَمْ آخذْ، مِنْ إيماني، جبلاً
أضعهُ تذكارًا يخلِّدُ ذاكرةَ التُّرابِ الرَّاحلِ!

لَيْلِيَّة 1

كيفَ يمكنُ أنْ نكتبَ قصيدةً في اللَّيلِ
ليتحدَّثَ قَلبي وكتفايَ في آنٍ واحدٍ؟

كيفَ يمكنُ أنْ نكتبَ قصيدةً في اللَّيلِ؟

أنا ذلك الرَّمادُ البارِدُ
لَهيبي كلُّه مِنْ العصيانِ.

أنا ذلك البحرُ الهادئ
صراخي كلُّه مِنْ الطُّوفانِ.

أنا ذلك السِّردابُ المظلمُ
ناري كلُّها مِنْ الإيمانِ.

لَيْلِيَّة 2

تعالوا يا رِفاقي،

وانفضوا ثقلَ أوجاعِكم في قَلبي الجَّريحِ!

أنا حيٌّ بعذابٍ

يحترقُ جَسدي المُضيءُ مِنْ الألمِ.

تعالوا يا رفاقي،

واسكبوا زهرَ أوجاعِكم

في قلبي الجَّريحِ...

قطرةً، قطرة!

لَيْلِيَّة 3

أنا نتاجُ يأسٍ وأملٍ
في مَصيري:
كنتُ أموتُ مِنْ الظمَأ
لَمْ يكنْ هناك ماءٌ، لأبلِّلَ شفتيَّ
النَّارُ حَرقتني في منتصفِ اللّيلِ
وحينَ بزغتْ شعلةُ الشَّمسِ
وضعتُ كفِّي أمامَ عينيَّ
في مَصيري
أنا نتاجُ يأسٍ وأملٍ.

لَيْلِيَّة 4

إلى السَّيدة «أنجيلا باراني».

في اللَّيلِ عندما يحوِّلُ نهرُ القمرِ الفضِّيِّ
السَّهلَ إلى بحيرةٍ لامتناهيةٍ
أفترشُ شِراعَ أفكاري في مَسارِ الرِّياحِ.

عندما لا تَأتي أغنيةٌ في اللَّيلِ
مِنْ أعماقِ القَصب الهامد
أُغنِّي بِسعادةِ الأملِ المُشرقِ،
مَع شُعاعِ الشَّمسِ الحاد.

عندما يغنِّي أحدُهم، في اللَّيلِ، يائسًا
أنظرُ مِنْ الطَّريقِ البعيدِ
إلى شفاهِ الشَّمسِ اللاَّفحة
كيفَ أنَّها تقبِّلُ بدفءِ سطحَ الجِّيران.

في اللَّيلِ، عندما ينغمسُ الحُزنُ في البُستانِ
أنصتُ ليديَّ المقيَّدتيْنِ كيفَ تتآكلانِ بتنهدٍ
أسمعُ سُعالَ الموتِ.

لَيْلِيَّة 5

باَلافٍ مِنْ الإبرِ الماسيةِ
يطرِّزُ ضوءُ القمرِ
على سطحِ كشميرِ المستنقعِ
النُّورَ بالخيوطِ الفضِّيةِ

تركضُ عيني ـ تغلي مِنْ أعماقِ ذهني الغاضبِ
نحو النَّافذةِ
ولكنْ النَّافذةُ!
لَمْ تَخبرني بشيءٍ
إنَّها غريبةٌ مَع عيني

أَيَّتُها النَّافذةُ
شرِّعي دَرفتيْكِ
كابتسامةٍ حزينةٍ ومُرَّةٍ

كي ينموَ غصنٌ مِنْ الضَّوءِ
وتَنموَ بذرةُ سَعيٍ بعذابٍ في جَفافِ التُّرابِ
أَيَّتُها النَّافذةُ
اللَّيلُ يقظٌ
اللَّيلُ مُصغٍ
في انتظار الصُّبحِ

لَمْ يقلْ شيئًا

أَيَّتُها النَّافذةُ!
أعرفُ أنَّكِ في النِّهايةِ
مثل ابتسامةٍ خفيفةٍ
سوفَ تقتلينَ هذه الرُّوحَ البائسةَ

بينَ آلافِ الزَّوايا المظلمةِ والعمياء للوَهم
النَّافذةُ
- في ألمِ مَسائيٍّ -
لَمْ تَخبرْني شيئًا عَن الظُّلمةِ التي تطأُ في العدم

أَيَّتُها النَّافذةُ

شرِّعي دَرفتيْكِ

مثلَ كتابِ حكايةِ الشَّمسِ

كي أستردَّ أملي

من محارةِ فمِ العذابِ

وأنتشلَ مِن أعماقِ ذلك البَحرِ البعيدِ لليأسِ

بريقَ الصُّبحِ اللُّؤلُؤيَّ

لكنْ النَّافذةُ

ما زالتْ تغلقُ شفتيْها

مثل برعمِ الابتسامةِ الذي لَمْ يتفتحْ

تخبِّئُ قلائدَ لؤلؤها في الفَمِ

لكنَّ أملي

يبشِّرُ مِنْ ألفِ منفذٍ

بِصباحٍ نقيٍّ منعشٍ

بآلافِ الإبرِ الماسيةِ

يُطرِّزُ القمرُ نقوشَهِ الفضِّيةَ

فوقَ أطواقِ المستنقعِ القَديم.

لَيْلِيَّة 6

كَم مِنْ اللَّيالي حرقتْ فَجرها
مُتعبٌ أنا
في سريرِ الأرقِ
أطرقُ البابَ على أيِّ ذكرى معطوبةٍ مِنكِ.

لَمْ يسألْ أحدٌ مَنْ الطَّارق، ولكنْ
بصوتكِ الذي يدورُ في ذهني أسمع: «مَنْ الطَّارق؟».

لَمْ يُفتحْ أيُّ بابٍ
لأستعيدَ، مرَّةً أُخرى، خطوطَ وجهكِ الضَّائع في الرُّؤيا.

آهِ!
أنا وحيدٌ في كلِّ مكانٍ،
مِنْ عُزلةِ الظَّلامِ والنِّسيانِ الأعمى

نادى عليَّ صوتٌ؛
إجابةٌ قصيرةٌ وباردةٌ:
«ماتتْ محبوبتُكَ، أيُّها الرَّجُلُ!»
هل هذا صَحيح؟
ووقفتُ كالمِرآةِ
أمامَ عينيكِ
وإن رحلتِ عنِّي
لَمْ يتبقَ مِنْ حبِّكِ شيءٌ
في خيالي
غيرُ حزنٍ في القَلبِ،
غيرُ اسمٍ على اللِّسانِ،
غيرُ خطوطٍ ضائعةٍ لا تُرى
في رواسبِ حزنِ النَّهار والمساءِ
ولكن بهذه الكارثةِ التي لا تُصدَّقُ
بالعويلِ للقائلِكِ غيرِ المتوقَّعِ
سكبتُ الحُزنَ في عزلتي وصمتَ نسياني المنطفئ
في قلبِ المرآةِ، مرَّةً أُخرى

ظِلالٌ اتَّخذتْ لونَها

في غرفةٍ مظلمةٍ

شبحٌ يمدُّ رأسَهِ عَبرَ النَّافذةِ

في موقدٍ مُطفأ

لهبٌ يتصاعدُ مِنْ الرَّمادِ

أنا في سَريرِ أرقي السِّريِّ

أبحثُ عَن وجهِكِ مُجدَّدًا

عينايَ تبحثانِ عَنكِ

شَوقي يطلبُكِ

أهمسُ في نفسي

دائمًا بذلك الاسمِ

أيُّها المَسيحُ!

الآنَ!

مَيِّتٌ في بَطنِ التَّابوتِ يرتجِفُ بهدوءٍ، بهدوءٍ.

لَيْلِيَّة 7

1

في لَيلةٍ مُقمرةٍ
يأتي القمرُ في المَنامِ
يأخذُني
مِنْ زقاقٍ إلى آخرَ
إلى بُستانِ العِنبِ
إلى بستانِ المُشمُشِ
من وادٍ إلى آخرَ
من صحراءٍ إلى أُخرى
هناك في اللَّيلِ
وراءَ الغاباتِ
تأتي الجنيَّةُ خائفةً تَرتجفُ
تغمسُ قدمَيها في مياهِ الينبوعِ،
تمشِّطُ شَعرها.

2

في ليلةٍ مقمرةٍ
يأتي القمرُ في المنامِ
يأخذُني
إلى عمقِ الوادي
هناك في اللَّيلِ
وحيدةٌ
هي شجرةُ الصَّفصافِ
سعيدةٌ ومغمورةٌ بالأملِ
بِغَنجٍ تمدُّ يدها
تقتطفُ نجمةً
كي تتدلَّى مِنْ أغصانها
مثل حباتِ المَطرِ
بدلَ الثِّمارِ.

3

في ليلةٍ مقمرةٍ

يأتي القمرُ في المَنامِ

يأخذُني مثل فراشةٍ إلى خارج السِّجنِ

يأخذُني إلى هناكَ

ـ حيثُ اللَّيلُ الأسودُ ـ

إلى الفَجر

بينما يصرخُ شهداءُ المدينةِ

بفانوسٍ دمويٍّ

في الشَّوارعِ

وعلى مفارقِ الطُّرُقِ:

«يا عمَّ الذِّكرياتِ!»[1]

أيُّها الحاقدُ!

أثملٌ أنتَ أمْ ماذا؟

أنائمٌ أنتَ أمْ يقظٌ؟

نحنُ سكارى ومنتبهون...

(1) كُتبتْ هذه القصيدةُ باللُّغةِ الفارسيَّة العاميَّة/ الدَّارجةِ. [المترجمة]

شهداءُ المدينةِ،

نائمون ويقظون...

شهداءُ المدينةِ،

في ليلةٍ ما

يخرجُ القمرُ

مِنْ قمةِ الجَّبلِ

مِنْ فوق الوادي

يعبرُ على مفارقِ الطُّرُقِ

ضاحكًا

ذاتَ ليلةٍ سيأتي القمرُ

ذاتَ ليلةٍ سيأتي القمرْ.

السِّرُّ

كانَ لديَّ سرٌّ
قلتُهُ للزُّقاقِ
كانَ لديَّ سرٌّ
قلتُهُ للبئرِ
في الطَّريقِ الطَّويلِ
قلتُهُ للحصانِ الأسودِ
وحيدًا، وبلا رفيقٍ،
قصصتُهُ على صخورِ الطَّريقِ.

بسرِّي القَديمِ
وصلتُ مِنْ الطَّريقِ
لَمْ أتفوَّهْ بحَرفٍ
لَمْ تتفوَّهي بحرفٍ
سكبتُ دمعةً

سكبتِ دمعةً

أطبقتُ شفتيَّ

قرأتِ مِنْ عينيَّ.

المَطرُ

ينهمرُ المَطرُ
ضائعٌ طريقُ الميناءِ
ما أبعدَ شاطئَ اللَّيلِ
مياهٌ سَوداءُ مالِحةٌ
ربِّي! أرسلْ سفينةً
أرسلْ نارَ جنانكَ
أين طريقُ المَجرَّاتِ
أين زهرةُ السَّماءِ
ضوءُ الزهرةِ باردٌ
يدورُ في الظَّلامِ
ربِّي، أوقدْهُ!
اجعلْهُ فانوسَ الطَّريقِ
ضائعٌ طَريقُ الشَّاطئِ
ينهمرُ المطرُ

على القُبَّةِ والمِنْبرِ

اللَّقلقُ العجوزُ المُتعبُ

جالسٌ فوقَ المنارةِ

ـ أيُّها اللَّقلقُ الجَّميلُ

سأقولُ شيئًا مُضحكًا:

في هذا الجَّوِّ المُظلمِ

في هذا الممرِّ الضَّيِّقِ

عندما كنتَ تحلِّقُ

ألَمْ تَرَ الزَّهرةَ؟

ـ يا لَكَ مِنْ مُشاغبٍ

مِن أين أتيتَ؟

ـ ألَمْ ترَ عُصفورتي الصَّغيرةَ محمومةً نائمةً؟

في اِنهمارِ المطرِ

الجَّوُّ مظلمٌ والأرضُ رطبةٌ

ماذا تفعلُ الزَّهرةُ هناك؛

في ثنايا غيمةٍ ممزقةٍ؟

الزَّهرةُ نائمةٌ

لَمْ يلمحْها أحدٌ

ينهمرُ المَطرُ
على سَطحِ هاجرَ
هاجرُ لَديها عرسٌ
هاجرُ لَديها تاجُ الدِّيكِ
هاجرُ الحلوةُ
ـ هل أقولُ لكِ شيئًا مُضحكًا؟
عندما كنتِ تَضعينَ الحِنَّاءَ
وتتزيَّنينَ
وتسرِّحينَ سالِفيْكِ
وترسمينَ شامتكِ
ـ هل أتتْ زهرةٌ لرؤيتكِ؟
لا تَتحاشي ذلك!
ـ يا لكَ مِنْ مشاغبٍ
ليسَ لديَّ وقتٍ لكَ
سوف يأتي العريسُ
وتُسحَبُ السِّتارةُ
سأضعُ يدي بِيدِهِ
ثمَّ تغلقُ الأبوابُ حتمًا

أَلَمْ ترَ أَنَّني مشغولةٌ
وأنَّ لديَّ قلبَ عاشقٍ
في هذا الجَّوِّ المُبكي
والهواءِ الممطرِ؛
اللَّيلُ لا يبلغُ الفَجرَ
ولا الزَّهرةُ تأتي
المطرُ ينهمرُ
على بيوتٍ بلا أبوابٍ
أربعةُ رجالٍ مستيقظونَ
يتكئونَ على الجِّدارِ،
الجِّدارُ مُزخرفٌ،
لا فرشَ لدينا ولا مدفأةْ؛
مرحبًا، أيُّها الرِّجالُ!
زهرتي ضائعةٌ
لَمْ يرَها اللَّقلقُ
ولَمْ ترَها هاجرُ
يا له مِنْ وجعٍ إنْ لَمْ تعُدْ مجدَّدًا!

المطرُ ينهمرُ

اللَّيلُ لا ينتهي

ـ أيُّها الصَّبيُ المُتعبُ

سرعانَ ما سيطلعُ الصُّبحُ

لا تحزنْ أيُّها المَجنونُ!

مَنْ شهدَ ليلاً لمْ يعقبْهُ صباحٌ؟

الزَّهرةُ المُضيئةُ هنا

في قَبضةِ الرِّجالِ

عندما يقومُ الرِّجالُ

وتندثرُ الغيومُ

سيقرأ ديكُ الفجرِ

وتعرفُ الشَّمسُ أنَّ اللَّيلَ قد مَضى،

حانَ وقتُ الحراكِ والعملِ

تنتظرُ الشَّمسُ العاليةُ

صوتُ الجَّرسِ

المطرُ ينهمُر

أين طريقُ المَجرَّاتِ؟

أين زهرةُ السَّماءِ؟

لماذا تغلقُ منقاركَ أيُّها الدِّيكُ؟

أوقدِ الشَّمسَ

لتُضيءَ الطَّريقَ

ضائعٌ طريقُ الميناءِ

المطرُ ينهمرُ!

الجِّنيَّةُ

لـ فاطمة أبطحي ورقصة دمِها البريئة.[1]

كانَ ما كان
تحتَ قِبابِ السَّماءِ الزُّرقِ
كانتْ هناكَ ثلاثُ جنِّياتٍ يجلسنَ عارياتٍ أمامَ الغروبِ
كُنَّ يبكينَ مثلَ غيومِ الرَّبيعِ

جدائلهنَّ سودٌ طوالٌ كالكمانِ
أمامهنَّ ـ في أُفقِ المدينةِ ـ غُلامانِ أسيرانِ
وخلفهنَّ قلعةٌ أسطوريَّةٌ،
قلعةٌ قديمةٌ باردةٌ وسوداءُ

مِنْ الأفقِ كانتْ تأتي أصواتُ الأغلالِ
مِنْ القلعةِ ـوراءهنَّـ كانتْ تعلو أصواتُ عويلِ السُّجناءِ

(1) هذه القصيدة من القصائدِ التي كُتبت بلُغة الأطفال والحكاياتِ السِّحريةِ. [المترجمة]

«أيَّتُها الجِّنيَّاتُ! هل تشعُرنَ بالجُّوعِ؟

أيَّتُها الجِّنيَّاتُ! هل تشعُرنَ بالعَطشِ؟

أيَّتُها الجِّنيَّاتُ! هل تشعُرنَ بالتَّعبِ؟

هل أصبحتنَّ كالطُّيورِ السَّجينةِ؟

ماذا يخبِّئُ بُكاؤكُنَّ؟»

لَمْ تَقُلِ الجِّنيَّاتُ شَيئًا،

وصَدى بُكائهنَّ تعالى مثلَ غُيومِ الرَّبيعِ

«أيَّتُها الجِّنيَّاتُ الجَّميلاتُ!

لماذا تبكينَ

في تلكَ الصَّحراءِ البعيدةِ

في ذاكَ الغروبِ الحزينِ

ألا تتوقَّعنَ هُطولَ الثَّلجِ والمطرِ؟

ألا تتوقَّعنَ مجيءَ الذِّئبِ؟

ألا تخشينَ شيئًا؟

لماذا لا تأتينَ إلى مدينتِنا؟»

يأتي صوتُ مدينتِنا، يأتي صوتُ أغلالِها ـ

أَيَّتُها الجِّنِّيَّاتُ!

أنظرنَ إلى علوِّ قامتي

إلى حصاني الأبيضِ بشَعرهِ العَسلي الطَّويلِ

مَركبي على الرِّيح!

أصالتي كغزالةٍ حديديةٍ

انظرْنَ إلى عُنقِها وطولِها

اللَّيلةَ، يعلِّقونَ في المَدينةِ الإنارةَ

بيتُ الذِّئبِ خَرِبٌ

أهلُ القريةِ فى ضيافتِنا

يأتونَ مهلِّلينَ

راقصينَ

ضاحكينَ

ينثرونَ السُّكَّرَ

ينادونَ فرحينَ:

«المدينةُ مكانُنا!

العيدُ للنَّاسِ، للذِّئبِ القَطيعُ

العالمُ لَنا، للذِّئبِ القَطيعُ

البياضُ مَلِكٌ، للذِّئبِ القَطيعُ

وجهُ السَّوادِ أسودُ، للذِّئبِ القَطيعُ»

أَيَّتُها الجِّنِّيَّاتُ!

النَّهارُ مَضى

والقِلاعُ أوصدتْ أبوابَها

لو تسرعنَ قليلاً

لو تَمتطِينَ حِصاني

سنصلُ إلى مدينةِ النَّاس،

أنصتوا لأصواتهم

لأصواتِ تحطُّم أغلالِ العَبيدِ

أجلْ! أغلالٌ ثمينةٌ تتحطَّمُ حلقاتُها تحتَ الأقدامِ

الذِّئابُ ستصبحُ بلا حيلةٍ

سيذهبونَ إلى الغاباتِ، يرونَها بلا حياةٍ

سيذهبونَ إلى الصَّحاري، يرونَها بلا حياةٍ

لكنْ في مَدينتِنا، آهٍ، أَيَّتُها الجِّنِّيَّاتُ!

في مدينتِنا تتفتَّحُ أبوابُ القِلاعِ،

سيُفتَضحُ أمرُ سادةِ العبيدِ

سيتحرَّرُ العبيدُ،

وَيُرَمَّمُ كلُّ خَرِبٍ ويُبنى
من لديه حزنٌ
سيضعهُ أرضًا
سيُفرَشُ السَّجّادَ
سيتحررُ الأسْرى
الأسْرى حاقدونَ
سيُشهرونَ مناجلَهم
وينسابونَ كالسُّيولِ
سيُوقدُونَ كالنَّارِ
ما أجملَ اللَّعبَ بالنَّارِ في عَتمةِ اللَّيلِ
وما أحسنه! ـ النَّار! النَّار!
الآنَ عند المَغيبِ
لم يتبقَ شيءٌ للَّيلِ
لم يتبقَ شيءٌ للقفزِ في الحوضِ الفِضِّيِّ

الآنَ، يقفُ الغلامان ليرفعا المشاعلَ
ليُسدِّداها على روحِ اللَّيلِ ويدمِّرا ظلامَهُ
سيدخلونَ في الميادينِ
يدًا بيدٍ، راقصينَ

أَيَّتُها الجِّنِّيَّاتُ، كفى بُكاءٍ!

لَمْ تَقُلِ الجِّنِّيَّاتُ شيئًا،
وصَدى بُكائهنَّ تَعالى مثلَ غيومِ الرَّبيعِ

الجِّنِّيَّاتُ العارياتُ
في لَيالي البردِ تحتَ المَطرِ
جالساتٌ يُنصتنَ إلى الجَّدَّةِ
تقصُّ عليهنَّ حكايةَ الجِّنيَّةِ الخضراءِ
والجِّنيَّةِ الصَّفراءِ،
حكايةَ الصَّخرةِ الصَّبورةِ،
حكايةَ المِعزاةِ على السَّطحِ،
حكايةَ ابنةِ ملكِ الجِّنِّ،
إنَّها حكايتكُنَّ أيَّتُها الجِّنِّيَّاتُ
حين أتيتُنَّ إلى عالمِنا
والآنَ أنتُنَّ تبكينَ وتغضبنَ على عالمِنا
وحكايةِ الحزنِ والأسى الخاويةِ
عالمُنا ليسَ حكايةً

لَيسَ رسالةً مغلقةً
عالمُنا مفتوحٌ
لأي أحدٍ يريدُ معرفتَهُ:
في عالمِنا ثَمَّ شوكُ صحارى
عالمُنا فيه الثُّعبانُ
من يريدهُ سيقودهُ قلبهُ إليهِ
عالمُنا كبيرٌ
مليءٌ بالثَّعالبِ والذِّئابِ
عالمُنا مشتعلٌ
هكذا هو
شئتَ أمْ أبيتَ
حسنًا يا جِنِّيَّاتِ الحِكايةِ
أَيَّتُها الطُّيورُ كسيرةُ الأجنحةِ
ما الذي ينقصكُنَّ لتأتينَ إلى عالمِنا
عالمِنا المليءِ بالوَيلاتِ؟

لَمْ تَقُلِ الجِّنِّيَّاتُ شيئًا،
وصَدى بُكائهنَّ تعالى مثلَ غيومِ الرَّبيعِ

وضعتُ يدي على أكتافهنَّ للوداعِ

صرخنَ، صعدنَ نحو الأعلى، نزلنَ إلى أسفلِ...

أصبحنَ كالدُّخانِ

أصبحنَ عجائزَ ثمَّ يانعاتٍ،أصبحنَ كالضحكِ،

أصبحنَ سيِّداتٍ وعَبداتٍ،

أصبحنَ كالدِّيكةِ ثمَّ كالفاكِّهةِ والبذورِ،

أصبحنَ كالرُّمَّانِ، كاليأسِ والأملِ،

أصبحنَ كنُجومِ النَّحسِ

حينَ رأينَ النجمةَ لا تؤثر فيَّ

والسِّحرَّ لا يؤثر فيَّ

أصبحتْ إحداهنَّ قنينةَ نبيذٍ

وأخرى أصبحتْ بحرَ ماءٍ

وثالثةٌ أصبحتْ جبلاً

شربتُ النبيذَ

وركضتُ نحوَ البحرِ

ركضتُ وركضتُ

وصلتُ إلى قمةِ الجَبلِ

كانوا وراءَ الجَبلِ يعزفون على الأوتارِ ويغنُّونَ:

«نحنُ سعداءُ

هزمنا الظُّلمَ

الشَّمسُ بزغتْ

نحنُ هزمنا الظُّلمَ

صارتْ الحُريةُ قُبلتُنا

عندما ثارَ النَّاسُ

امتلكنا حيواتنا

لا نشبعُ مِنْ الفرحِ، الآنَ

ولا نرضى بالعبوديةِ...

ركضنا وسعينا

وفي حوضِ الفضَّةِ قفزنا

قطفنا التُّفَّاحَ الذَّهبيَّ

ووصلنا لبيتِنا»

نحوَ الأعلى ذهبنا

كانتْ كذبةً،

نحوَ الأسفلِ نزلنا

كانتْ قصَّةً حقيقيَّةً...

إنتهتْ قِصَّتُنا

وعاشوا عيشةً سعيدة!

العَاقِبَةُ

إلى «سرور وناصر مقبل».

صرتُ ظلَّ غيمةٍ، افترشتُ ثوبي على السُّهولِ:
قالعُ الأشواكِ الأحدبِ بدأ يمشي في الطَّريقِ

على الطَّريقِ التُّرابيِّ؛
قالَ عابرٌ صَامتٌ، في سِرِّهِ:
«هه! ما المُميَّزُ في المرءِ حين يكونُ ظلَّ غيمةٍ!»

صرتُ حمامةً جبليةً، قفزتُ من أعلى البرجِ الخَربِ:
علَّقَ المُزارعُ قميصًا على عصا، عند محصولِهِ

وقفَ النَّاطورُ خارجَ كوخهِ،
رفعَ يدَهُ وأطالَ النَّظرَ من بعيدٍ، ثم قالَ:
«هه! ما المُميَّزُ في المرءِ حين يكونُ حمامةً وحيدةً بأعلى البرجِ!»

صرتُ غزالةً بريةً، ركضتُ مِنْ الجَبلِ إلى الصحراءِ:

الأطفالُ في السُّهولِ مبتهجونَ

مرَّتْ عربةٌ، وصاحبها المُسنُّ قالَ في سرِّهِ:

«هه! ما المُميَّزُ في المرءِ حين يكونُ غزالةً

بلا شريكٍ في السُّهولِ البعيدةِ!»

صرتُ سمكةَ بحرٍ، طاردتُ الضَّفادعَ إلى الخليجِ البعيدِ

صاحتْ أُنثى طائر بحريٍّ، مِنْ السَّاحلِ المهجورِ، بأعلى صوتها

قالَ البحَّارُ الذي كان قاربُهُ يتَّكئُ على الرِّمالِ الرَّطبةِ:

«هه! ما المُميَّزُ في المرءِ حين يكونُ سمكةَ بحرٍ ضالَّة!»

صرتُ حمامةً جبليةً، قفزتُ من أعلى البرجِ الخَرِب

صرتُ ظلَّ غيمةٍ، افترشتُ ثَوبي على السُّهولِ

صرتُ غزالةً بريةً، ركضتُ مِنْ الجَبلِ إلى الصَّحراءِ

صرتُ سمكةَ بحرٍ، طاردتُ الضَّفادعَ إلى الخليجِ البعيدِ

ارتديتُ عباءةَ صوفٍ وقرأتُ الأورادَ

أصبحتُ رفيقَهم الصَّامتَ، بتُّ كاللُّغزِ

ارتديتُ سبعَ أحذيةٍ حديديةٍ، ذهبتُ إلى قمَّةِ المُستحيلِ

كانتْ أُنثى قمَّةِ المستحيلِ أسطورةً،

قرأتُ الأساطيرَ وعدتُ

عبرتُ مِنْ سبعةِ أقاليمَ وأنا أزحفُ وأتهاوى،

طرقتُ أبوابَ السَّحرةِ، ولَمْ يرفْ لي جفنٌ

عبثًا بحثتُ عَن أُنثى طائرِ الماءِ في الجبالِ والسُّهولِ والصَّحارى،

إذَنْ، صرتُ عنقاءَ

وعشَّشتُ في نيرانِ النَّاسِ!

الأفق المضيء

إلى كاميار شابور

سنجدُ، يومًا ما، حمائمنا مجدَّدًا
وسيضعُ الحنانُ يدهِ بيد الجَّمالِ.

يومَ تكونُ أصغرُ أنشودةٍ قُبلةً
وكلُّ إنسانٍ شقيقًا لكلِّ إنسانٍ.

يومَ لن يُغلقَ أحدٌ بابَ بيتِهِ
سيكونُ القفلُ أسطورةً
والقلبُ كفافَ حيواتنا.

يومًا ما، سيكونُ معنى أيِّ حديثٍ: المَحبَّةَ
حتَّى أنتَ لن تبحثَ عن مُبرِّرٍ لآخرِ كلمةٍ

يومًا ما، سيكونُ لحنُ أيِّ حَرفٍ: الحَياةَ
حتَّى أنا لن أبحثَ عن عذابِ القافيةِ لآخرِ قصيدةٍ.

يومًا ما ستكونُ كلُّ شفةٍ أغنيةً
حتَّى تصيرَ أقصرُ أنشودةٍ قُبلةً

يومَ تأتينَ ويستوي مَعنى المَحبَّةِ والجَّمالِ
إلى الأبد.

يومًا ما،
سوفَ ننثرُ البذورَ لِحمائمنا
سأنتظرُ ذلك اليومَ
حتَّى لو لَمْ أكنْ فيه!

أُنظري!

1

سَنةٌ سيِّئةٌ
سَنةُ الرِّيحِ
سَنةُ الدَّمعِ
سَنةُ الشَّكِّ

سَنةُ الأيَّامِ الطِّوالِ والصَّبرِ الشَّحيحِ
السَّنةُ التي أُستُجْدِيَ فيها الكبرياءُ

سَنةٌ دنيئةٌ

سَنةُ الألمِ

سَنةُ العزاءِ

سَنةُ دموعِ «بوري»[1]

سنةُ دمِ «مرتضى»[2]

سَنةٌ كبيسةٌ

(1) بوراندخت سلطاني شيرازي (1910 ـ 2015). من مؤسسي علم المكتبات والمعلومات في إيران، وأستاذة بقسم المكتبات في المكتبة الوطنية الإيرانية، وعضو في الهيئة العلمية بجامعة طهران. خلال خمسين عامًا من العمل المتواصل؛ عُرفتْ بأمّ المكتبات الإيرانية الحديثة، ولها تأثير كبير على أنشطة وتشكيل المكتبة الوطنية الإيرانية. كانتْ زوجةَ الأديب والمناضل اليساري (مرتضى كيفان). [المترجمة]

(2) مرتضى كيفان (1922 ـ 1955)، شاعر وناقد فنيٌّ وصحفيٌّ وناشطٌ سياسيٌّ، عضو «حزب توده الإيراني». اعتُقلَ في الأيام التي أعقبت إنقلاب 19 أغسطس، لإيوائه ثلاثة جنود فارّينَ من اللجنة العسكرية للحزب، وأُعدِمَ بتهمة خيانةِ النظام الملكي وقتذاك. [المترجمة]

2

الحياةُ ليستْ فخًّا

العشقُ لَيسَ فخًّا

ولا حتَّى الموتُ، ليسَ فخًّا

لأنَّ الرِّفاقَ المفقودينَ أحرارٌ...

أحرارٌ وأنقياءُ.

3

وجدتُ حُبِّي في السَّنةِ السَّيِّئةِ
تقولُ: «لا تيأسْ»!
وجدتُ أملي في اليأسِ
قمري في اللَّيلِ
وحُبِّي في السَّنةِ السَّيِّئةِ
وعندما كنتُ أتحولُ إلى رمادٍ
بدأتُ أشتعلُ
كانَتِ الحياةُ حقودةً مَعي
لكنِّي تبسَّمتُ لَها،
كانَتْ للتُّرابِ عداوةٌ مَعي
لكنِّي نمتُ فوقهِ
لأنَّ الحياةَ ليستْ سوداءَ
لأنَّ التُّرابَ، رحيمٌ.

كنتُ سيئًا، ولَمْ أكن السَّيِّئةَ
هربتُ مِنْ السَّيِّئِ
ولَعنني العالمُ
وجاءتِ السَّنةُ السَّيِّئةُ
سَنةُ دموعِ «بوري»، سَنةُ دمِ «مُرتضى»
سَنةُ الظَّلامِ
ووجدتُ نجمتي،
وجدتُ الطَّيِّبَةَ
بَلَغْتُها وازدهرتُ!

أنتِ طَيِّبةٌ
وتلك هي اعترافاتي
قلتُ الحقيقةَ، وبكيتُ
في هذه المرَّةِ سأقولُ الحقيقةَ لأضحكَ
لأنَّ آخرَ دموعي كانتْ ابتسامتي الأولى

4

أنتِ طيِّبةٌ وأنا لَمْ أكنْ السَّيِّئةَ
عرفتُكِ، وجدتُكِ وكلُّ أحاديثي أصبحتْ شعرًا،
وصار لها قالبٌ
عُقَدي أصبحتْ شِعرًا
كلُّ الثِّقلِ أصبحَ شعرًا
السَّيِّئةُ، الصَّخرةُ، العُشبُ، الضَّغينةُ،
كلُّها صارتْ شِعرًا، كلُّ الأشعارِ صارتْ طَيِّبةً
غنَّتِ السَّماءُ نغمتَها،
والطَّيرُ غنَّتْ نغمتها والماءُ كذلك،
قلتُ: كوني عصفورتي الصَّغيرةَ أزدهرْ شجرةً في ربيعِكِ
الثَّلجُ ذابَ رقصتْ الزهرةُ والشَّمسُ أشرقتْ
نظرتُ إلى الطَّيِّبةِ وتغيَّرتْ
نظرتُ إلى الطَّيِّبةِ
لأنَّكِ طَيِّبةٌ وتلكَ كلُّها اعترافاتٌ، أعظمُ الاعترافاتِ

نظرتُ إلى اعترافاتي، ذهبتْ السَّنةُ السَّيِّئةُ،

وعدتُ إلى الحياةِ...

أنتِ ابتسمتِ، وأنا بدأتُ بالقِيامِ.

5

قلبي يريدُ أنْ يكونَ طَيِّبًا

قلبي يريدُ أنْ يكونَ مثلكِ

ولأجلِ هذا أقولُ الحقيقةَ،

أنظري:

ظَلِّي مَعي!

عِشقٌ عامٌّ

الدمعُ سِرٌّ

الابتسامةُ سرٌّ

العشقُ سرٌّ

دمعةُ تلك اللَّيلةِ كانتْ ابتسامةَ عشقي

لستُ حكايةً لترويها

لستُ نغمةً لتغنيها

لستُ صوتًا كي تسمعيهِ

أو شيئًا ترينهُ أو تعرفينهُ

أنا وجعٌ مشتركٌ

اصرُخيني!

الشَّجرةُ تتحدَّثُ مع الغابةِ

العشبُ مَع الصَّحراءِ

النَّجمةُ مَع المجرَّةِ

وأنا أتحدَّثُ معكِ

أخبريني باسمَكِ

هاتي يدكِ

قولي لي حرفَكِ

امنحيني قلبَكِ

أدركتُ جذورَكِ

تحدَّثتُ بشَفتيْكِ لأجلِ كلِّ الشِّفاهِ

ويداكِ تعرفانِ يديَّ

في العُزلةِ المُضاءةِ بكيتُ معكِ

لأجل الأحياءِ،

وفي المقبرةِ المظلمةِ قرأتُ معكِ

أجمل الأناشيدِ

لأن أمواتَ هذا العام

كانوا أكثرَ العشَّاقِ حياةً

هاتي يدَكِ

يدُكِ تعرفُني

أحدِّثُكِ، يا مَنْ وجدتُكِ متأخِّرًا

كالغيمةِ مع العاصفةِ

كالعُشبِ مع الصَّحراءِ

كالمَطرِ مع البَحرِ
كالطَّيرِ مع الرَّبيعِ
كحديثِ الشَّجرةِ مع الغابةِ

لأنَّني أدركتُ جذورَكِ
لأنَّ صَوتي
يعرفُ صوتَكِ جيِّدًا!

أُحبِّكِ

أُحبِّكِ، أجلسُ بجوارِكِ
وفي عُزلتِكِ تُبنى مدينتي الكبيرةُ

لو أنِّي صرخةُ طائرٍ وظِلُّ شُجيرةٍ
في عزلتكِ سأجدُ هذه الحقيقةَ مرَّةً أُخرى

آتيكِ متعبًا، متعبًا مِنْ ضِيقِ الشَّكِّ
كالمِرآةِ... ممتلئًا بِكِ
لا يسكِّنُ روعي شيءٌ
لا غصنا ذراعيكِ، ولا ينابيعُ جسدِكِ

منطفئٌ مِنْ دونكِ، مثل مدينةٍ في اللَّيلِ
تشرقينَ أنتِ
ألتمسُ دفئكِ مِنْ بعيدٍ

ومدينتي تستيقظُ

بصخبِها وشكوكها وسعيها

وصخبها في سعيٍّ المُتردِّدِ

لا يطمئنُني شيءٌ

بعيدًا عنكِ أبدو كمدينةٍ في اللَّيلِ

أيَّتُها الشَّمسُ

مغيبُكِ يحرقُني

أبحثُ عن فجرٍ ضائعٍ

لا تتفوَّهينَ بكلمةٍ

ولا أسمعُ

تصمتينَ

أصرخُ

أنتِ معي، أنا لستُ مع نفسي

وبدونِكِ لا أجدُ ذاتي

لا يطمئنُني شيءٌ

لو أنّي صرخةُ طائرٍ وظِلُّ شُجيرةٍ

في عزلتكِ سأجدُ هذه الحقيقةَ مرَّةً أُخرى

وأنا صغيرٌ

أنا غريبٌ معكِ

اسمعي صراخَ الطَّائرِ

وامزجي ظِلَّكِ بظِلِّ الشُّجيرةِ

عرِّفيني بكِ

يا غريبتي

وحِّديني بكِ!

أحبُّك

جانبُنا ليسَ ليلاً
لا يتصالحُ الصَّوتُ مع الصَّمتِ،
الكلماتُ تنتظرُ.

معكِ، لستُ وحيدًا، لا أحدَ وحيدًا مع آخرَ
اللَّيلُ أكثرُ وحدةً مِنْ النُّجومِ.

جانبُنا ليسَ ليلاً
أحجارُ الصَّوَّانِ، قربَ الفتيلةِ، بلا طاقةٍ

غضبُ الشَّارعِ في قبضتِكِ،
في شَفتيكِ، يُصقلُ الشِّعرُ المُضيءُ
أحبُّكِ، واللَّيلُ يخافُ مِنْ ظلامِهِ.

لَمْ أعُدْ وحِيدًا

على كتفي حمامةٌ تشربُ مِنْ فمكِ الماءَ
على كتفي حمامةٌ تنعشُ حَنجرتي
على كتفي حمامةٌ وقورةٌ وطيبةٌ
تحدِّثني عن الضِّياءِ
والإنسانِ ـ ربِّ كلِّ الآلهةِ

أمشي مع الإنسانِ في أبديَّةٍ مرصَّعةٍ بالنُّجومِ
ولجتْ الحقيقةُ في الظَّلام
في الزُّقاقِ رجلٌ سقطَ على الأرضِ
بكتْ امرأةٌ في البيتِ
تبسَّمَ طفلٌ في المَهدِ

النَّاسُ يناضلونَ لأجلِ الحقيقةِ
النَّاسُ توأمُ الأبديةِ

وأنا لستُ غريبًا عن الأبديَّةِ

الحياةُ تقرأ النَّشيدَ تحتَ ثنايا الجُدرانِ

الصَّخريةِ في السِّجنِ السَّيِّئِ

في أعيُنِ الدُّمى الممسوخةِ

فانوسُ اللَّيلِ يميلُ إلى الطُّلوعِ

مدينتي تسترجعُ رقصاتِ أزقَّتِها

بأيِّ مكانٍ، وفي أيِّ زمانٍ،

لَمْ تبقَ صرخةُ حياةٍ دون إجابةٍ

أُنصتُ لأصواتٍ بعيدةٍ،

ومِنْ بعيدٍ ينصتونَ لِصوتي.

أنا حيٌّ

صرختي ليستْ بلا إجابةٍ

قلبُكِ الطَّيِّبُ إجابةُ صرختي

طائري بصوتهِ الذَّهبيِّ يسكنُ بينَ أغصانٍ وأوراقِ بيتِكِ

فاتنتي! ارتدي ثيابَكِ الجميلةَ

يحبُّنا العشقُ،

أنا معكِ أتبعُ حلمي في الصَّحوِ
أدركُ الشِّعرَ مِنْ الحقيقةِ على جبينكِ.

تحدثيني عن الضِّياءِ
والإنسانِ الذي له قرابةٌ مَع كلُّ الآلهةِ
معكِ، لَمْ أعدْ وحيدًا في فجرِ أحلامي.

اليَنبوعُ

بحثتُ عَن عينيك في الظَّلامِ
وجدتُ عينيك في الظَّلامِ
وامتلأ ليلي بالنُّجومِ.

ناديتُكِ
في أحلَكِ اللَّيالي، ناداك قلبي
وأنتِ، مِنْ صَدى صوتي، أتيتِ لي
بِيديْكِ غنيتِ ليديَّ
مِنْ عينيكِ لعينيَّ
مِنْ شفتيْكِ لشَفتيَّ
بجسدكِ غنَّيتِ لِجسدي.

استأنستُ بِعينيْكِ وشَفتيْكِ
استأنستُ بِجسدِكِ

شيءٌ ما همدَ بداخلي
شيءٌ ما ازدهرَ بي
ومجدَّدًا غفوتُ في مهدِ طفولتي
ومجدَّدًا وجدتُ ابتسامةَ ذلك الزَّمنِ
كانَ الشَّكُّ قد عشَّشَ بداخلي.

يداكِ تدفَّقتا كالنَّبعِ نحوي
تجدَّدْتُ... تيقَّنْتُ،
وعانقتُ اليقينَ كالدُّميةِ
وغفوتُ في مَهدِ السَّنواتِ الأولى
في تَنورتِكِ في مَهدِ أحلامي.

عادتْ ابتسامةُ ذلك الزَّمنِ إلى شَفتيَّ

بجسدكِ قرأتُ التَّهويدةَ لجسدي
رافقتْني عيناكِ
وأغمضتُ عينيَّ
لأنَّ يديكِ تجلبانِ الطُّمأنينةَ

السَّيِّئةُ مظلمةٌ

اللَّيالي مجرمةٌ

يا محبوبةَ القلبِ،

أَيَّتُها اليقينُ أنا في خصامٍ مع السَّيِّئةِ

وأغنِّيكِ مثلَ اليومِ العظيمِ.

أناديكِ، أنصتي لقلبي يناديكِ

اللَّيلُ يحيطُني بسورٍ

وأنا أنظرُ إليكِ

مِنْ نافذةِ قلبِكِ أنظرُ إلى نجومِكِ

لأنَّ كلَّ نجمةٍ شمسٌ

وأنا أصدِّقُ الشَّمسَ

وأنا أصدِّقُ البَحرَ

وعيناكِ ينبوعُ كلِّ البحارِ

والإنسانُ ينبوعُ كلِّ البحارِ.

ربيعٌ آخرُ

مَحبوبتي، لا أنوي خداعَ نفسي!
نِيَّتي ليستْ خداعَ نفسي.

لو كذبتِ الشِّفاهُ
فالحقيقةُ تَتعالى مِنْ يديكِ
وأنا أتحدثُ مِنْ خلالِ يديكِ.

يداكِ أختا قَدري
أتحدَّثُ مِنْ الغاباتِ المحترقةِ
مِنْ المحاصيلِ الرَّطبةِ
أتحدثُ مِنْ قريةِ قَدري

في كلِّ أخضرَ رأيتُ الدَّمَ،
في كلِّ ابتسامةٍ رأيتُ الألمَ

تَبزغينَ، وأستجيبُ...

أصرخُ وأرتاحُ.

مَحبوبتي، لا أنوي خداعَ نفسي!

نِيَّتي ليستْ خداعَ نفسي.

أنتِ هنا ولعنةُ اللَّيلِ غير مُجديةٍ

في الغُروبِ العقيمِ، تُخصِّبينَ قلبي بتلقينِكِ

ومِنْ يديْكِ أزيِّنُ بالأضواءِ كلَّ اللَّيالي اللَّزجةِ

أرى حياتي كحُلمٍ

وأعيشُ أحلامي في الحياةِ

أنا أعيشُ الحقيقةَ

مِنْ كلِّ قطرةِ دمٍ تنمو الخُضرةُ ومَنْ كلِّ ألمٍ تَنمو ابتسامةٌ

لأنَّ كلَّ شَهيدٍ شَجرةٌ

وأنا أتيتُ لكِ مِنْ الغاباتِ الكثيفةِ

أشرقتِ،

واستجبتُ،

صرختُ

ثمَّ هدأتُ...

وأمامَ الرَّبيع أقسمتُ على كلِّ ورقةٍ خضراءَ

وأنتِ، في طُرقِ اللَّيلِ،

نوَّهتِ عَن الحُبِّ الجَّديدِ

سمعتُ هتافاتِ التَّائهينَ ليلاً

في أشدِّ اللَّيالي عتمةً

اتَّخذتُ مِنْ ابتسامتكِ ألعابًا ناريَّةً

مُذَّاكَ والقلبُ بيتُنا الصَّغيرُ

ويداكِ أختا قَدري.

دعيني أحدِّثكِ عَن الغاباتِ الرَّطبة وثمارِ المَحاصيلِ

دعيني أحدِّثكِ عن القريةِ المُشتركةِ لقَدري

لا أنوي خداعَ نفسي،

نِيَّتي ليستْ خداعَ نفسي!

أقولُ لكِ

لا يوجدُ مكانٌ آخرُ
قلبُكِ مملوءٌ بالأسى
سماواتُكِ فقدتْ أزرقَها الدّافئَ

تعيشينَ تحتَ سماءٍ بلا لونٍ وبلا حياةٍ
على أرضكِ المطرُ يملأ وجهَ حُبِّكِ ببثورِ الجُدَرِيِّ
نفقتْ جميعُ طيوركِ

تعيشينَ في صحراءَ بلا طيورٍ أو ظلالٍ
هناك، حيثُ كلُّ نباتٍ في انتظارِ نشيدِ العَنقاءِ

لا يوجدُ مكانٌ آخرُ
قلبُكِ مملوءٌ بالأسى
آلهةُ سماواتكِ
هوتْ على الأرضِ

كطفلٍ متشرِّدٍ ووحيدٍ
تضحكين مِنْ الرُّعبِ
وغرورٌ أحمقُ يمنعُ بكاءكِ.

هذا الإنسان الذي صنعتهِ مِنكِ
مِنْ الإنسانِ الذي أحببتُهُ
وأحبَّ!

كتفًا بكتفٍ كنتِ ترافقينَ الحياةَ
خضتِ كلَّ المعاركِ
لم تؤثِّرْ بكِ لعنةُ الآلهةِ
والآنَ، عاجزةٌ وباردةٌ
لقد جعلتِني أجثو على ركبتيَّ
أمامَ الوحدةِ

هل أنتِ مظهرٌ لضياءِ القدرِ المُركَّبِ للبشريَّةِ في عصرِنا؟

البشرُ الذين كنتُ أحبُّهم
البشرُ الذين أحبُّهم

لا يوجدُ مكانٌ آخرُ
قلبكِ مملوءٌ بالأسى

أقولُ لكِ: تخافينَ!
أنتِ خائفةٌ مِنْ الحياةِ
مِنْ الموتِ قبل الحياةِ
ومِنْ الحُبِّ قبلهما
تنظرينَ إلى العَتمةِ
ترتجفينَ مِنْ الرُّعبِ
وتَنسيْنَني
أنا الذي بِجواركِ!

مِن أعمامِكَ

لا لأجِلِ الشَّمسِ، ولا لأجلِ ملحمتِها
لأجلِ ظلِّ سقفٍ صغيرٍ
لأجلِ أغنيةٍ
أصغر مِنْ يديكَ

لا لأجلِ الغاباتِ، ولا لأجلِ البحرِ
لأجل ورقةٍ واحدةٍ
لأجلِ قطرةٍ واحدةٍ
أكثر إشراقًا مِنْ عينيْكَ

لا لأجلِ الجُدرانِ ـ لأجلِ ظِلالها
لا لأجلِ كلِّ البَشرِ ـ ربَّما لأجلِ رضيعِ عدوِّهِ
لا لأجلِ العالمِ ـ لأجلِ بيتِكَ
لأجلِ يقينِكَ الصَّغير
بأنَّ الإنسانَ هو العالَمُ!

لأجلِ أمنيتي بأن أكونَ للحظةٍ بجواركَ
لأجلِ يديكَ الصَّغيرتيْنِ في يديَّ الكبيرتيْنِ
وشفتيَّ الغليظتينِ على وجنتيكَ البريئتيْنِ.

لأجلِ سُنونو في الرِّيحِ، عندما كنتَ مبتهجًا
لأجلِ قطرةِ ندىً على ورقةٍ، عندما تكونُ نائمًا
لأجلِ ابتسامةٍ واحدةٍ
عندما تجدني بجانبكَ
لأجلِ ترنيمةٍ واحدةٍ
لأجل قِصَّةٍ واحدةٍ في أبردِ اللَّيالي وأشدِّها وحشةً
لأجلِ دُمْيتِكَ، لا لأجلِ الرِّجالِ الكِبارِ
لأجلِ رواقٍ أوصلني لكَ، لا لأجلِ الطُّرقِ الكبيرة البعيدةِ
لأجلِ الميزابِ يَجري بِهِ المَطرُ
لأجلِ قفيرِ صِغارِ النَّحلِ
لأجل عويلِ غيمةٍ بيضاءَ باتِّساعِ السَّماءِ الهادئة الكبيرة

لأجلِكَ
لأجلِ كلِّ شيءٍ صغيرٍ،

لأجلِ كلِّ نَقاءٍ ضُحِّيَ في سبيلِهِ

تذَكَّرْ أعمامَكَ

أعني «مرتضى» (1)

(1) كُتبت هذه القصيدةُ إثر إعدام الأديب والمناضل اليساري (مرتضى كيفان) صديق شاملو الأقرب. وقد ذكر في هامش القصيدةِ أنه يخاطبُ ولدَهُ ويعرِّفهُ بصديقِهِ الرَّاحل، ويقولُ: «كان إنسانًا خلوقًا وذكيًّا وفريدًا، قتلَهُ المفاجئ لن يُنسى. والآنَ، حيثُ أكتبُ هذا الهامشَ، يمضي على رحيلِهِ 35 عامًا، لكنَّ حزنَ فقدهِ يتجدَّدُ في قلبي كما لو أنَّني سمعتُ نبأ رحيله للتوِّ». [المترجمة]

وداعًا!

يلزمُ قلبانِ لأجلِ العيشِ
قلبٌ يُحِبُّ وآخرُ يُحَبُّ
قلبٌ يعطي وآخرُ يقبلُ
قلبٌ يقولُ وآخرُ يجيبُ
قلبٌ لي، قلبٌ للإنسانِ الذي أريدُ ـ
لأشعرُ بوجودِ الأنسانِ بقربي
بحارُ عينيكِ ستجفُّ
أريدُ نبعًا فوارًا
نهداكِ نجمانِ صغيرانِ
خلفَ هذين النَّجمينِ أريدُ إنسانةً:
إنسانةٌ تختارُني
إنسانةٌ أختارُها
إنسانةٌ تنظرُ إلى يديَّ
إنسانةٌ أنظرُ إلى يديْها،

إنسانةٌ بجانبي

للنَّظرِ إلى أيدي النَّاسِ،

إنسانةٌ بِجانبي، مِرآةٌ بجواري

لأضحكَ فيها، لأنظرَ فيها...

لَمْ تنقذْني الآلهةُ

لَمْ ينقذني وصالُكِ اللَّذيذُ أيضًا

لا وصالُكِ، لا عيناكِ،

لا نَهداكِ، ولا يَداكِ،

لَمْ يكنْ قلبُكِ مِرآةً بِجواري

لَمْ يرأفْ بي قلبُكِ.

حريقٌ باردٌ

حينَ كانتْ شُعلةُ الظُّلمِ
تحرقُ برعمَ شفتيكِ
عينايَ الباردتانِ كانتا
أبوابًا عمياءَ توصِدُ صحنَ الوجعِ القديمِ.

وجبَ عليهم تركنا ننثرُ رمادَ صرخاتنا في كلِّ مكانٍ
وجبَ عليهم تركنا نزرعُ براعمَ شِفاهنا
على أغصانِ أصابعِ حبٍّ أعظم
وجبَ عليهم تَركي أُطفئُ برودةَ حُزني على شَفتيكِ المشتعلتَيْنِ
لتُشعلَ عيناكِ المُتَّقِدتانِ الضَّوءَ في صَحني المُنطفِئِ

لكنَّ الظُّلمَ المتَّقدَ
أحرقَ برعمَ شفتَيْكِ
عينايَ الباردتانِ بقيتا
أبوابًا عمياءَ توصِدُ صحنَ الوجعِ القديمِ.

قصيدةٌ غير مُكتملةٍ

أمضيتُ شبابي مُحطَّمًا ومُتعبًا،
هزيلاً،
بعصا الكهولةِ،
مذعورًا مِنْ الغدِ...
نافرًا مِنكم.

الآنَ، أنا في منتصفِ ليالي عُمري
حيثُ نجمةٌ تنتظرُ توقَ نَظرتي
في منتصفِ ليالي عمري، حدِّثيني!
ـ مُبكِّرةَ الألفةِ وجدتُكِ متأخِّرًا ـ
لو أنَّكِ تلكَ النَّجمةُ
سألعنُ الفجرَ
ليبتعدَ ويتأخَّرَ!

معكِ
الشَّمسُ
تبتسمُ للأبديَّةِ
حتَّى آخرِ لحظاتِ النَّهارِ
مَعكِ العشبُ
كلُّ الغاباتِ
مَعكِ خطوةٌ واحدةٌ
تأخذني إلى دربِ الخُلودِ.

يا مخلوقةَ آخرِ الأيدي
مَعكِ صمتٌ واحدٌ بألفِ صرخةٍ

يدايَ مغمورتانِ بِنظراتِكِ
ضوءٌ عابرٌ
يوقظُ اللَّيلَ الكسُولَ
مِنْ نومِهِ الأسودِ العميقِ
والمَطرُ
يُهدي ـ لجفافِ النَّهرِ ـ خُضرةَ العُشبِ.

عُقدةٌ

يا أناشيدَ البحارِ!

تمَّوجي على شاطئِ صِمتي الغاضبِ

أوقدي نجمةَ الأغاني

في ذَهولِ دَمي الحَزينِ، يا أناشيدَ البحارِ!

ثلاثُ بِشاراتٍ، ثلاثةُ أشقَّاءَ

انقلبوا في «وادي القمر المُمطرِ»

كنتُ كلَّ واحدٍ منهم.

ثلاثَ عشرةَ ضحيةً، ثلاثةَ عشرَ هرقلَ

على أعتابِ معبدٍ يونانيٍّ تحوَّلوا إلى رمادٍ

كنتُ كلَّ واحدٍ منهم.

ثلاثمئةِ ألفِ يدٍ وثلاثمئةِ ألفِ إلهٍ

سُجِنوا في تلالِ قصرِ الآلهةِ بسلسلةِ أغلالٍ واحدةٍ
وكنتُ كلَّ هؤلاءِ الثَّلاثمئةِ ألفٍ.

آهٍ، أيَّتُها البِشاراتُ الثَّلاثُ، أخواتي الثَّلاثُ
إنَّنا ثلاثَ عشرةَ ضحيةً، ثلاثةَ عشرَ هرقْلَ(1)
وأنا، الآنَ، عقدةٌ لن تحلَّها ثلاثمئةِ يدٍ!

يا نشيدَ البحارِ!
دعني أتموَّجُ على شاطئِ الغَضبِ
لأصبحَ لُؤلؤةً في مَحارةٍ، كلمةً في قالبِكَ
يا نشيدَ البحارِ!

(1) ذكرَ (أحمد شاملو) في هامش هذه القصيدة بأنَّ سببَ كتابتها هو سماعه بنبأ إعدام سريٍّ لثلاثة عشرَ شابًّا شيوعيًّا يونانيًّا، كانوا أعضاءَ في «الحزبِ الدِّيمقراطيِّ اليونانيِّ»، عبَّرَ عنهم بثلاثة عشرَ «هرقلَ». [المترجمة]

لأجلِكُمْ، أنتمْ الذينَ الحُبُّ حياتُكم

أنتم الذين الحُبُّ حياتكم

والغضبُ مماتكم

أنتم الذين تَضيئون أملَ النُّجومِ

في يأسِ السَّماء

أنتم الذين تَخلقون السَّنواتِ

والقرونَ

تولدونَ رجالاً يكتبونَ على خشبةِ الإعدامِ

التِّذكارَ

تربُّونَ تاريخَ المُستقبَلِ العظيمِ

في بطُونِكم الصَّغيرةِ

أنتم الذين تربُّون الفتْحَ
في رحمِ الخسارةِ
أنتم الذين الحبُّ حياتكم
والغضبُ مماتكم

أنتم بريقُ نجومِ الحُبِّ
في ظلمةِ القلوبِ الباردةِ
أنتم الذين حرقتم شرارةَ القُبلةِ
على رمادِ الشِّفاهِ العَطشى
وعلَّمتُمونا الصَّبرَ والقوةَ والتَّعبَ
تحتَ التَّعذيبِ
والأقدامُ المجدورةُ
في أحذيةٍ باهظةِ الثَّمنِ
في بحثٍ دائمٍ عَن الحُبِّ العابرِ
في الطُّرُقاتِ البعيدةِ.

وفي جذورِ عقائدكم
رجلٌ يقودُ قاربَهُ
على المياهِ البعيدةِ.

أنتم الذين الحُبُّ حياتُكم
والغضبُ مماتكم
أنتم الجَّمالُ، كي يمدحَ الرِّجالُ الجَّمالَ
وكلُّ رجلٍ يندفعُ إلى طريقٍ ما
هو مسحورٌ بابتسامةٍ منكم.

وكلُّ رجلٍ مقيَّدٌ في حريَّتهِ
بسلسلةٍ ذهبيةٍ لحبٍّ ما.

أنتم الذين الحُبُّ حياتكم
والغضبُ مماتكم

أنتم روحُ الحياةِ
والحياةُ بدونكم موقدٌ منطفئٌ.

مفرحةٌ نغماتُ حِضنِ أرواحكم
في أُذنِ الرَّجُلِ
تدعونَ - في رحلةِ الحياةِ الحافلةِ بالمخاطرِ - أنْ يهدأ روْعُ الرِّجالِ في أحضانِكم،
وعبدُكُم كلُّ رجلٍ أنانيٍّ عابدٍ لذاتهِ

امنحونا حبّكم

أنتم الذين الحُبُّ حياتكم!

امنحوا غضبكم لأعدائنا

أنتم الذين الحُبُّ حياتكم

والغضبُ مماتكم

أنتم الذين الغضبُ مماتكم!

السِّمفونيَّةُ المُظلمةُ

ازدهرتْ اللَّيلةَ براعمُ الياسمينِ،
وابتهجتْ الظُّلمةُ التي ابتلعتْ بستاني
من عطرِ الياسمينِ الأخَّاذِ.

يتصاعدُ عطرُ الياسمينِ مِنْ صدرِ اللَّيلِ،
استيقظتْ القُبُلاتُ التي تُختطفُ تحتَ الظِّلالِ
والسَّعادةُ التي كان شاهدُها الوحيدُ اللَّيلَ
وبسِمفونيَّةِ الياسمينِ بدأتْ الظُّلمةُ تحيا.

رائحةُ الصَّنوبَرِ المُرِّ ضرباتُ لحنٍ حزينٍ في المَقبرةِ
الياسمينُ يقرأُ التَّهويدةَ وتتقطَّرُ الظُّلمةُ
ما بين السَّماءِ الفارغةِ مِنْ النُّجوم والأرضِ النَّائمةِ
كانَ اللَّيلُ العنيدُ عجينَ الموتِ.

المَحبَّةُ، هل لها موعدٌ مَع زوجِها الموتِ، اللَّيلةَ؟
يدًا بيدٍ يتجوَّلانِ ما بينَ نسائمِ الغموضِ والحزنِ

تلاشتْ أحزانُ النَّهارِ تحتَ ظِلالِ اللَّيلِ والهمساتِ،
صرنا نسمعُها كضرباتِ الحَيْرةِ
حينَ تتمدَّدُ بلحنٍ مريرٍ وحلوٍ في الظَّلامِ

بدأتْ ألحانُ المرارةِ والانطفاءِ الجَّميلِ
تتراقصُ، اللَّيلةَ، بشؤمٍ
على أعتابِ الأحلامِ، أمامي

اللَّيلةَ، العشقُ جميلٌ ومنعشٌ، والموتُ نحسٌ وقبيحٌ،
جبروتُ القوَّةِ تحتَ سماءٍ مُظلمةٍ وفوقَ حرارةِ الأرضِ
يتحكَّمُ بكلِّ شيءٍ.

اللَّيلةَ، يوقظُ عطرُ الياسمينِ النَّهارَ مِنْ تحتِ ركامِ شوْقي،
يوقظُ الصَّبرَ والأملَ،
اللَّيلةَ تُطفِئُ رائحةُ الصَّنوبرِ المُرِّ شُعلةَ الحُبِّ

الذي بدأ ينمو في قلبي

اللَّيلةَ يكون لسِمفونيةُ ظلامِ الياسمينِ والصَّنوبرِ

الحزينِ لذةٌ سَرمديةٌ في قلبي

إنَّها تمتزجُ ببعضِها مرَّةً أُخرى

اللَّيلةَ، ثمَّةَ صخبٌ مِنْ الحُبِّ والمَوتِ في رُوحي.

غناءٌ مسائيٌّ للأزقَّةِ[1]

يا آلهةَ وجعي، آهٍ! يا آلهةَ وجعي!
دمُكم تناثرَ على جدارِ «تبريزَ» القديمِ
سَقطتْ أشجارُ الوادي الأخضرِ المَتينةُ
على الأرضِ
القادةُ الكبار
رقصوا على المشانقِ
وتهشَّمتْ مِرآةُ الشَّمسِ الصَّغيرةُ
في بحيرةِ الملحِ.

(1) كتبَ (أحمد شاملو) هامشًا تحت هذه القصيدة مفادهُ: كتبتُها بعد عامٍ من هزيمة الديمقراطييّن في «آذربيجانَ»، وكنتُ أعتقدُ بعد أعوامٍ من عدم النضج السياسيّ بأنَّ هذا الحراكَ ثورةٌ حقيقيَّةٌ. حدث ذلك في عام 1946، عندما شارك الديمقراطيونَ مع النظام الشيوعيِّ في الثَّورةِ وكنتُ في العشرين من عمري، رافقتُ أبي الذي كان مسؤولاً على الحدود في محافظة «أرومية». والقصيدةُ التي لها جوانب ثوريةٌ أصبحتْ فيها بعد نقطةً مخجلةً عرفتُها متأخِّرًا، والمهمُّ أنني عرفتُها. أما الأسماء التي وردت في القصيدة فتخصُّ المدنَ والنِّقاطَ المختلفةَ التي رأيتُها في محافظة «أرومية». كما أودُّ الإشارةَ إلى أنني كتبتُ هذه القصيدةَ متأثرًا جدًّا بـ«ماياكوفسكي»، ولا يمكنني إنكارُ ذلك! [المترجمة]

كانتْ صرختي غريبةً على قلبي

كنتُ لحنًا غريبًا لنبضاتِ قلبي

لأنّي لَمْ أكنْ سوى نفخةَ ضياعٍ،

لأنّي لَمْ أغنِّ أغنيتي بعدُ،

لا تزال الأسلاكُ والحَجرُ ممتزجةً بِذاتي

كنتُ سلكًا وحَجرًا، كنتُ طائرًا وقفصًا

كنتُ واقفًا في الشَّمسِ وظلِّي مُلقىً

على الوحلِ القديمِ.

كانتِ الغيمةُ تبصقُ على الجِّبالِ والأزقّةِ

البحرُ يتحرَّكُ

واللَّبلابُ يغطِّي التِّلالَ الكُرديَّةَ

ومِنْ ذلك الجانبِ ـ مِنْ البحيرةِ ـ كانتِ الرِّياحُ تهبُّ

وتركلُ سقفَ المدينةِ بينما يضغطُ الغبارُ على القرى

البعيدةِ بصَوتهِ السَّاخطِ

زحفَ فيضانٌ غاضبٌ غطَّى «شهرچاي»

ينحدرُ المَنسيونَ مِنْ البُحيرةِ والسَّهلِ والتَّلَّةِ
لينقذوا الحقيقةَ المريضةَ
ويأمروا الطُّغاةَ بأن يتذكروا الإنسانيةَ
سمعتُ صَدى الرَّصاصِ مِنْ أعلى «تلِّ الشَّيخِ»
ولكنْ، لَمْ أستيقظْ
لأنَّ غفوتي كانتْ تتكسَّرُ
ـ مُنذ ذلك الحين ـ
بالنَّغماتِ والقُبُلِ المفاجئةِ
تضغطُ الابتساماتُ الحزينةُ على شفتيَّ الغاضبتيْنِ
(كنتُ نائمًا)
«أروميةُ» الباكيةُ صمتتْ
وفي الصَّمتِ بدأتُ أنصتُ لصخبِ الثَّورةِ من بعيدٍ
(كنتُ أُحصي حبيباتي)

رصاصةٌ واحدةٌ
أطلقتْ صرختها
وخَرجتْ مِنْ انطفاءِ برجِ «زرادشتَ» المتحطِّمِ
(كنتُ أنظر باتِّجاهٍ آخرَ)

تعالتْ أصواتٌ أُخرى

بدأ العبيدُ ـ فوقَ خرابِ «رنج آباد» ـ بالرَّقصِ

تطلَّعَ النَّاسُ برؤوسهم مِنْ البيوتِ المظلمةِ

وبدأ ثلجٌ ثقيلٌ بالتَّساقطِ

كانَ أبي آمرَ قلعةٍ محصَّنةٍ

أوصدَ أبوابَها وأطفأ أضواءها

(كنتُ أهمسُ بشَيءٍ)

كانَ الثَّلجُ يتساقطُ بلا توقُّفٍ

لكنَّ النَّاسَ خرجوا إلى الشَّوارعِ والأزقَّةِ

فغطَّى الثَّلجُ، كثوبٍ دافئٍ، عُريَ أجسادِهم

(كنتُ أرتجفُ قربَ النَّارِ)

كنتُ غريبًا وقصيدتي صرخةُ غربتي

كنتُ حجرًا وسلكًا أجهلُ طُرق التَّفكيكِ

وكان الغضبُ يربطُهم معًا

تصافحتْ أيديهم، لأنَّ الغُربةَ تخلقُ من الحشودِ عائلةً

كانوا يربطونَ السَّماءَ المُمطرةَ بابتسامةِ العُراةِ
ومُخملَ المَزارعِ الأصفرَ بأحلامِ الجِّياعِ
كانوا في الثَّلجِ والظَّلامِ
يعبرونَ مِنْ الثَّلجِ والظَّلامِ

وصراخُهم ـ ما بينَ الجُّموعِ ـ آصرةٌ
تخلو مِنْ العلاقاتِ البعيدةِ
كانوا جاذبيةَ الضَّياعِ:
يربطونَ الموتَ لتخليدِ الحياةِ

اللَّيلةَ، الرِّياحُ رتيبةٌ
وضحكةٌ مجنونةٌ تنبضُ بهذا اللَّيلِ الصَّامتِ
في قلبِ أزقَّةِ الوحدةِ الحَقودةِ
مَنْ أنتَ يا قارعَ أبوابِ قلبي الثَّمينةِ؟

آهِ! اللَّعنةُ عليكم، أيُّها المتأخِّرونَ المَنسيُّونَ:
أيَّتُها الظُّلماتُ الصَّامتةُ
يا أشباحَ الوحدةِ

يا ميولاً شريرةً للأفكارِ التَّعيسةِ

اللَّعنةُ عليكم.

وضعتُ نافذةً جديدةً لمحفلِ حياتي

وسلبتُ القبلاتِ الملوَّنةَ مِنْ فم الآخرِ

لأضعَها على شِفاهِ أسيادِ غَضبي

مُنذ زمنٍ طويلٍ وأنا شاعرٌ للشَّمسِ

وقصيدتي، كتبتُها على مدارِ الشُّهُبِ الحزينةِ الضَّائعةِ

تلك التي انطفأتْ من ظمأ الضَّوءِ

أنا أكتبُ للمُومساتِ والعُراةِ

للمسلولينَ

والمفلسينَ

للَّذينَ يتأمَّلونَ التُّرابَ الباردَ

وللَّذين لا أملَ لهم في السَّماءِ.

أرِقْ دمي ليملأ الفراغَ بين البشرِ

دعْ دمنا يجري

لتصلَ الشُّموسُ للنَّائمينَ

أسيادَ غَضبي! يا أسيادَ غضبي الموجعِ!
أخرجُ مِنْ قلعةِ قصائدي المُظلمةِ
وأصرخُ في أزقَّةِ الثُّوَّارِ
أسلبُ القبلاتِ الملوَّنةَ مِنْ فمٍ آخرَ
لأضعَها على شِفاهِ آلهةِ أوجاعي.

بإصرارِ الماسةِ

والسُّمُّ الأحمرُ للعشقِ
في قلبِ الكأسِ البِلَّوريَّةِ

والانتظارُ الممتدُّ في القوسِ والسَّهمِ
في تثاؤبِ الحَدثِ القادمِ

والغنجُ في رقصِ حنجرتكِ
على استسلامِ خَنجري

وأنتِ فضَّلتِ الصَّمتَ
وأنا الإصرارَ،
أنتِ في بعضِ الأحيانِ...
وأنا دائمًا.

وصبغةُ دَمِ التَّوقيعِ
على رسالةِ احتياجي
فقدتْ لونَها،
وقطراتُ دَمِي
تضحكُ في عنقِ الحُبِّ المَسلولِ.

ربُّ عشقٍ واحدٍ
ربُّ إصرارٍ واحدٍ
تموتُ ليلتُنا المزدهرةُ
في فجرِ الخليقةِ

(من تُربةِ حبِّهِ الأحمرِ
بفمِ جرحٍ يفيضُ دمًا
يأخذُ قبلةً دافئةً:
«أوِ، يا مخلوقي!
مرَّةً أُخرى، مخلوقي،
مجددًا!»
ويموت)

وبسعيِ عشقِهِ
في شفتيْ طفلي
يضحكُ الغدُ،
ومِنْ قلبِ الكأسِ الشَّفافةِ
التي سقتنا العشقَ الأحمرَ
وفي تثاؤبِ ذلك الحدثِ
الذي متُّ في امتدادِ قوسٍ وسهمِ انتظارِهِ
ومِنْ استسلامِ خَنجري
الذي سلَّطتُهُ على عنقكِ الرَّاقصِ

وبإصرارِ الماسةِ التي جررتُها على صمتكِ البِلَّوري
سأعلِّقهُ قُرطينِ في أُذني طفلي!

وقطرةُ مطرٍ تائهةٍ
تهربُ في انعكاسِ مِرآةِ الشَّاطئِ
سأسقي حُبِّي لقلبكِ:
العشقُ الأحمرُ الذي شربتهُ في كأسِ قلبٍ رأيتُ فيها
دورانَ سمكةِ موتي المغرورِ

التي سوف تأخذُ القُبلةَ الدافئةَ
مِنْ فمِ جرحٍ تمرَّغَ بالدِّماءِ،
على أرضِ الحُبِّ الأحمرِ

كإصرارِ الرَّبِّ
سأموتُ في النَّهايةِ
في آخرِ نفَسٍ لليلِ الخليقةِ
وحبِّي الذي هو كلُّ وجودي
سيبتلعُهُ جوعُ مرآةِ قلبكِ مثلَ ظلٍّ تائهٍ!

فإن لَمْ تسمعي، سأُسمِعُكِ
إصرارَ مُحبِّكِ تحتَ نافذةِ اللَّيلِ الطَّويلِ
في صرخةِ قلبٍ يتمتمُ:

«تجرَّعتُ سُمَّ حبِّكِ من كأسِ قلبي
وسأُخمِدُ كلَّ نارِ حديثٍ يُضرِمُها قلبي
نارٌ تشتعلُ لتضيءَ ألفَ نجمةِ حبٍّ
سأُخمِدُ كلَّ هذا في صَمَمِ أُذُنيْكِ!»

«روكسانا»

لا تدعْ أحدًا غيري، يعرفُ ما حدثَ لي مَع «روكسانا»!

لا تدعْ أحدًا يعرفُ
كيف شعرتْ أرضيةُ هذا الكوخِ الخَشبيِّ بِطرقِ
الأقدامِ فوقها ذهابًا وإيابًا على صَدري!
وكيف وقعتْ ظِلالي الباردةُ والطَّويلةُ
على هذا الشاطئِ المتروكِ
حتى يومَ لا تضيءُ فيه الشَّمسُ أعيُنَنا
وكيف قمتُ بخياطةِ كفني بأملٍ وعجلةٍ
وحفرتُ قبري

رغم أنِّي كالنَّسيمِ عبرتُ أيامِ عمري
ومررتُ على كلِّ شيءٍ وتأمَّلتُ بكلِّ شيءٍ وتعمَّقتُ بكلِّ شيءٍ

رغم أنِّي سحبتُ كلَّ شيءٍ ورائي
كلَّ الأحداثِ والمغامراتِ والمحبَّةِ والمُعاناةِ
وخبأتها وراء ستارِ جبيني المحترقِ مِنْ الشَّمسِ؛
لكنَّني لن أقولَ شيئًا
سألتزمُ بالصَّمتِ
وأدعُ عمري يمضي كالنَّسيمِ،
وأقفُ على كلِّ شيءٍ وأتأمَّلُ بكلِّ شيءٍ
وأتعمَّقُ بكلِّ شيءٍ،
أسحبُ كلَّ شيءٍ ورائي وخلفَ ستارِ جبيني أخبِّئُ
كلَّ الأحداثِ والمغامراتِ، كلَّ المحبَّةِ والمعاناةِ
مثلَ سِرٍّ خلفَ هذا السِّتارِ
لأودعها أخيرًا في البئرِ...
سأدمِّرُها ولن أخبرَ أحدًا عَن ضياعِها!

لا تدعْ أحدًا يعرفُ أنِّي لُدِغتُ عِوضَ تقبيلي أو مداعبتي!
لا تدعْ أحدًا يعرفُ، لا أحد!
وما بين كلِّ الآلهةِ
لن يشهدَ إلهٌ ـ غيرُ النِّسيانِ ـ على كلِّ هذا الأسى.

ثمَّ تمامًا، كأنَّ شيئًا لَمْ يكنْ

كأنَّ شيئًا لَمْ يحدثْ

كأنْ لَمْ يكنْ لديَّ اسمٌ حتَّى

ـ ولَمْ أعبرْ كالنَّسيمِ ولَمْ أتأمَّلْ ولَمْ أرَ أيَّ حدثٍ ـ

لا تدعْ أحدًا يعرفُ

لا أحد

إلى يوم بزوغِ الشَّمسِ التي تغطي العُشبَ والغاباتِ

إلى يومِ تجفِّفُ الشّمسُ مياهَ بحرِ الحرمانِ

وترميني كقاربٍ متهالكٍ على الشَّاطئِ

وهكذا تعادُ روحي

إلى «روكسانا» إلى روحِ البحرِ والحُبِّ والحياةِ

هذا لأنَّ «روكسانا» حكمتْ عليَّ بالهجرانِ وخوفٍ يفتكُ بالأعصابِ

لقد أدانتْني

إلى يوم بزوغِ الشَّمسِ

إلى يوم جفافِ البحارِ أن أظلَّ حبيسَ انتظارِها

وتلكَ هي حكايةُ اللَّيلِ الذي علَّقتُهُ بطرفِ فستانها

وطلبتُ مِنها أن تأخذني معها

لأنَّ «روكسانا» ـ روحُ البحرِ والحبِّ والحياةِ ـ لا يسعُها كوخُ الشَّاطئِ الخَشبيِّ

وأنا بدونها ـ بلا سعي وبلا حبٍّ وبلا حياةٍ ـ لن أعيشَ سِوى باليأسِ والمِحَنِ

أخيرًا، في صرخةِ العاصفةِ المجنونةِ ليلاً، إذْ تضربُ البحرَ
تحتَ ضرباتِ الرَّعدِ، كانتْ تجرُّ الحياةَ في ثوبِ الفطرِ البريِّ نحو الجِّبالِ
خرجتُ متأخرًا مِنْ الكوخِ الخشبيِّ
وعلقتُ في العاصفةِ التي حرَّكتْ ردائي الأحمرَ
وأنا تحتَ ضوءِ الفانوس لمحتُ طرفَ فستانِها
وبردُ الخريفِ هزَّ عظامي
لكنَّ ظِلَّيْ قدميَّ الطَّويليْن اللَّذيْن عبرا بسُرعةٍ
مِنْ أمامِ الفانوس قد عجَّلا برحيلي
كانَ قلبي يشتعلُ في النَّارِ
وموجُ البحرِ يقتلعُ صخورَ الشاطئِ
واللَّيلُ يبدو ثقيلاً وباردًا في العاصفةِ
والأرضُ كانتْ مليئةً بالهواءِ النَّاريِّ
وأنا، بدوتُ كالشَّيطانِ تحتَ ردائي الأحمرِ
شيطانٌ مدعوٌّ للذَّهابِ إلى بيتِ الخدينِ الشَّغوفِ
لكنَّ القلبَ كانَ في النَّارِ وكنتُ أشعرُ بحرارتها الحارقةِ في عنقي
والرِّياحُ تعيقُ تقدُّمي
والرَّعدُ يخنقُ ـ قُربَ الشَّاطئِ ـ صخبَ الطُّيورِ
وضعتُ الفانوسَ في القاربِ

وقمتُ بفكِّ حبالِهِ

حتَّى ضربتِ الموجةُ القاربَ

وجُرِفتُ نحوَ ظلامِ البحرِ

وفي ضجيجِ الموجِ والرِّيحِ - في منتصفِ تلكَ اللَّيلةِ الباردةِ -

وصلتُ إلى ذلك البحرِ المجنونِ

كان زبدُ الغضبِ يخرجُ مِنْ فمِهِ الأزرقِ

والأمواجُ تتصاعدُ مِنْ الشاطئِ

والبحرُ يصنعُ دوَّاماتِهِ

وأنا أنغمسُ في منحدرِ البحرِ

حتَّى شَعرتُ بارتطامِ القاربِ على رمالِ الشَّاطئِ

ورأيتُ روحي القلقةَ تُسْلِمُ ذاتَها ببطءٍ إلى العالمِ المبلَّلِ،

وشعرتُ أنَّ الراحةَ تتسرَّبُ إلى داخلِ روحي

لكنَّ اللَّيلَ كانَ هائجًا

والبحرَ هائجًا

كانتِ الثمالةُ تخرجُ مِنْ برودةِ الأمواجِ بِجنونٍ

تبحثُ عن لذَّتِها وتصرخُ

لكنِّي في النِّهايةِ هدأتُ

والآنَ، أبدو كحلزونٍ تائهٍ وجدَ مَحَارةً مِنْ تحت أقدامِ مُرتادي الشَّاطئِ

ورأيتُ لو أنّني سلَّمتُ الفانوسَ للمياهِ وفسَّرتُ ظلامَ اللَّيلِ بإغماضةٍ
أبدو كـ «بوذا» تطهَّرَ مِنْ العذابِ
ذلك الذي سلَّمَ الوجعَ إلى أعتاب «النيرفانا»
أنا الهاربُ مِنْ الموتِ إلى الحياةِ
ورائحةِ البِرَكِ القذرةِ ليلاً قرب مَواطنِ الطُّيور
جرفتني الرِّياحُ وغضبُ الأمواج إلى أعتابِ البحرِ
جُذِبتُ إلى حافةِ البحرِ
بدوتُ كقاربٍ قطعتْ الرِّياحُ حبالَهُ
وفي سكونِ الشَّاطئ المُميتِ
أدركتُ أنَّ الطَّريقَ الذي سلكهُ «بوذا»
سيعودُ بي إلى الحياةِ
في هذه الأثناء
تحتَ ضوءِ الفانوسِ الأصفرِ،
كنتُ أنظرُ إلى تمرُّدِ الأمواجِ
وكانَ الهدوءُ يسري في جَسدي وروحي
واللَّيلُ كانَ هائجًا
البحرُ كانَ يرفرفُ كطيرٍ مذبوحٍ
أو كسكِّيرٍ ظمآنَ يعربدُ باحثًا عَن اللَّذةِ

هناكَ أدركتُ أنّني وجدتُ كلَّ شيءٍ حسب رغبتي

وأنّني تحمَّلتُ ثقلَ هدوءِ الشَّاطئِ المُميتِ

ونفادَ روحي المضطربةِ الباحثةِ عَن الرَّاحةِ

- راحةٌ مصدرُها الغليانُ! -

وأخيرًا في ليلةٍ مُظلمةٍ كقاربٍ مترنِّحٍ في مهبِّ الرِّيحِ

قطعوا حبلَهُ في البَحرِ

سلَّمتُ قلبي إلى عاصفةِ البحرِ

وكانَ البحرُ هائجًا

وانا تحتَ أمواجِهِ الحيةِ

وجدتُ راحةَ حياتي،

وجدتُ كلَّ ما كنتُ أحلمُ به

لكنْ، فجأةً، في ظلمةِ الضَّبابِ فوقَ القاربِ

- الذي كانَ يتحرَّكُ كالمَهدِ -

وفي انعكاسِ الضَّوءِ الأصفرِ على ردائي الأحمرِ وجهٌ مألوفٌ، ألقى بظلِّهِ على عينيَّ!

وزحفتِ المياهُ قربَ القاربِ المُترنِّحِ الذي كانَ يحترقُ في حمَّى البردِ

صرختُ: «روكسانا!»

لكنَّها كانتْ مضطربةً في هدوئها،

بينما صرختي بمثابةِ حشدٍ مِنْ الدُّخانِ على وجهها،

صرخةٌ بدتْ كما لو أنَّها روحُ مُذنِّبٍ ضربَ وجهَها الحالمَ مع دنوِّ ميقاتِ الفجرِ وصياحِ الدِّيكةِ

تلكَ الصَّرخةُ عذَّبتْها

وأنا تحتَ ستارةِ الضَّبابِ الرَّقيقِ؛

رأيتُ عينيْها تنطبقانِ

وأسنانَها تعضُّ بقوةٍ على شَفتيْها

صرختُ: «روكسانا!»

كانتْ مضطربةً

ومثلَ ضبابٍ تزيحهُ الرِّيحُ

حطَّمتْها تلكَ الصَّرخةُ، بصمتٍ، كعاصفةٍ مجنونةٍ

كشفتْ ألوانَها

وعرَّتْها

وقالتْ:

ـ أنا هذا البحرُ اللاَّمتناهي!

وكانَ البحرُ هائجًا

وفي قلبِ البحرِ كانتْ تدورُ العاصفةُ

صرختُ: «روكسانا!»

لكنَّ «روكسانا» كانتْ تحترقُ في حمَّى البردِ

وزبدُ البحرِ يسيلُ مِنْ فمِ البحرِ

والنَّارُ تضطرمُ في قلبي

ووجهُ المرأةِ الضَّبابيةِ كان يتلوَّنُ تحتَ تأثيرِ ضَوءِ الفَانوسِ الأصفرِ وردائيَ الأحمرِ.

شَعرتُ بظلِّها الكبيرِ على القاربِ والفانوسِ

وبصمتٍ مَهولٍ، قالتْ:

«أنا تلك العاصفةُ، أنا تلك الصرخةُ،

أنا هذا البحرُ الهائجُ الذي تموجُ بداخلهِ مئةُ ألفِ روحٍ حيَّةٍ»

«روكسانا»!

لو استطعتَ المجيءَ لاصطحبتُكَ معي!

لأصبحتَ غيمةً، ولخرجت النيران من قلبينا

وأضاءتِ البحرَ والسَّماءَ ساعةَ لقائنا

كنّا سنقرأُ الأناشيدَ في صرخاتنا
وفي قلقِ الأمواجِ، وفي زبدها، كنَّا سنجدُ الرَّاحةَ
لكنَّكَ لن تستطيعَ المجيءَ
لن تقوى على حمْلَ قدمِكَ خطوةً أبعدَ!

بل أستطيعُ يا «روكسانا»... أستطيعُ!
نعم، كانَ يمكنُكَ ذلك... أما الآنَ فلا!
بيننا مَسافةٌ بقدْرِ ما بينَ الغيومِ في السَّماءِ والبشرِ التَّائهِ على الأرضِ من مَسافةٍ
ـ «روكسانا!»
ولَمْ تعد نارُ الأملِ تشتعلُ في صَرختي.

ربَّما سيسعُكَ ـ في آخرِ يوم، قبل أن يسلبوا منكَ إشارات الحياةِ، مثلَ قاربٍ يقطعُ البحرُ حبلَهُ مِن الشَّاطئِ ـ ربَّما سيسعُكَ أنْ تدورَ في حياتي بلا توقُّفٍ على بحرِ القلبِ!

بهدوئي تهدأ،
وفي عاصفتي تصرخُ،
وتكونُ غيمةً تبكي للبحرِ...
وهكذا تغسلُ الدُّموعَ عن وجهكَ،

حتى إذا بزغتِ الشَّمسُ على العشبِ والغاباتِ يومًا،

وجفَّتْ مياهُ هذا البحر وحوَّلَتني إلى حفرةٍ بلا ماءٍ أو ثمرٍ

ستكونُ كقاربٍ منسيٍّ على الشَّاطئِ

وتكونُ المسافةُ بيني وبينكَ أصغرَ

أمَّا إذا فكَّرتَ بأنَّكَ تَستطيعُ الآنَ بلوغي؛ أنا روحُ البحرِ وروحُ العشقِ وروحُ الحياةِ...

فلا تستطيعُ!

لا تستطيعُ!

«رو كسا نا!»

لقد تحوَّلتْ صرختي إلى همسةٍ قلقةٍ غيرِ مُجديةٍ

كان البحرُ هائجًا

وخيالُ الحياةِ يعربدُ بسبب اضطرابها

و«روكسانا» على القاربِ،

وأنا فوقَ البحرِ بجسدِ الغيمةِ أتحرَّكُ مع الرِّيحِ

وفي حمَّى جَسدِها الحيِّ، صرختْ:

« ـ ربَّما نعودُ لِبعضِنا مرَّةً أُخرى:

في اليومِ الذي تكونُ فيه كالبحرِ الجَّافِّ
وتتهالكُ مثلَ قاربٍ مَنسيٍّ على الشَّاطئِ،
وبيننا مَسافةٌ بقدْرِ ما بينَ الغيومِ في السَّماءِ والبشرِ التَّائهِ على الأرضِ من مَسافةٍ»

« ـ أستطيعُ يا روكسانا
أستطيعُ»

« ـ لا تستطيعُ!
لا تستطيعُ»
« ـ روكسانا!»
كانَ الرَّجاءُ يبكي بتضرُّعٍ في صوتي
والبحرُ كانَ هائجًا
« ـ لو استطعتَ المجيءَ لاصطحبتُكَ معي!
لأصبحتَ كموجةٍ عاليةٍ تسعى فوقَ البحرِ،
كنَّا سنقبضُ على الحياةِ في ظُلمةِ اللَّيالي والعاصفةِ
بينما الأمواجُ تدورُ في البحرِ».

في هجومِ اليأسِ سعيتُ،
لكنَّ سلسلةَ المرساةِ شُدَّتْ على قَدميَّ
والأمواجُ بجوار القاربِ قيَّدتْ روحي بسجنٍ ثقيلٍ وقاسٍ!
و«روكسانا» على القاربِ،
وأنا فوقَ البحرِ بجسدِ الغيمةِ أتحرَّكُ مع الرِّيحِ...
وفي حمَّى جَسدِها الحيِّ، صرختْ:

«لا تستطيعُ!»

وكلُّ أمرئٍ يقيِّدُ ما يحبُّهُ في السَّلاسلِ
وكلُّ امرأةٍ تسجنُ لُؤلؤها الثَّمينَ في الصَّندوقِ
وأنا الذي وضعتُ تلكَ السِّلسلةَ الثمينةَ بقدميكِ
إلا أنَّكِ قبلَ أن تصلي إليَّ كانَ يمكنُ أن تكوني فريسةَ البحرِ
وعيناكِ تكونانِ كلؤلؤتيْنِ مضيئتيْنِ لا تطالُهما أيدي الغاصةِ؛
لابتلعتْكِ المحارةُ!

لا يمكنُكَ المجيءُ!

«كانَ عليكِ أن تعودي إلى الكوخِ الخشبيِّ،
يومَ تجفّفُنا الشَّمسُ - قُربَ البحرِ - لتحيلَنا بلا ثمرٍ
ومِنْ حُبِّي تستمدِّينَ قوَّتَكِ»

أنا في آخرِ روحٍ مِن شُعلةِ الفانوسِ
رأيتُ مطرقةَ المطرِ تهوي على زبدِ أمواجِ البحرِ اللامتناهية،
وفجرًا وجدني رجالُ الشَّاطئِ مخمورًا على متنِ قاربٍ،
حيثُ جرفتْني الأمواجُ التَّائهةُ إلى هناك

لا تدعْ أحدًا يعرفُ غيري، ما جرى لي مَع «روكسانا»!
أنا الآنَ في كوخٍ خشبيٍّ تعوي الرِّيحُ بسقفهِ الطِّينيِّ،
والمطرُ يتسرَّبُ مِنْ شقوقِ الجُدرانِ،
أنظرُ مِنْ النَّافذةِ إلى البحرِ الهائجِ
ومن وراءِ الجِّدارِ الخشبيِّ
أشعرُ بفضولِ النَّاسِ في مجيئهم وذهابهم
لرؤيةِ المجانين
وأسمعُ همساتِهم تقولُ:

«ـ اسمعوا! المجنونُ يتحدَّثُ مَع نفسهِ»

وأنا أصرُّ أسناني مِنْ الغضبِ
أنتظرُ يومَ بزوغِ الشَّمسِ لتجفِّفَ مياهَ البحارِ
وتجرفَني مثلَ قاربٍ إلى الشَّاطئِ وتَرمي بي هناك
لتوصلَ روحي لـ «روكسانا»
ـ روحِ البحرِ والحبِّ والحياةِ ـ
وما أنتظرهُ كشُعلةِ نارِ الأملِ في أعماقِ عينيَّ تشتعلُ
وأصرخُ في سرِّي بصمتٍ مميتٍ:

«روكسانا!»
وسمعتُ صرخاتِ «روكسانا» اللاَّمتناهية
مِنْ عمقِ البحرِ
مَع تسارُعِ الأمواجِ التي تحملُ ألفَ رجاءٍ حيٍّ بِداخلِها،
كانتْ تصرخُ، باستمرارٍ:
«لا يمكنُكَ المجيءُ
لا يمكنُكَ المجيءُ!»

أَلكمُ الجِّدارَ بقبضتي،

أُنادي النَّاسَ الفضوليِّينَ الذينَ تُسعدُهم مشاهدةُ المجانين وأرى ظِلالَهم تنعكسُ على الجِّدارِ،

أُنادي:

«أتسمعونَ؟

أيُّها التُّعساءُ!

أتسمعونَ؟»

والظِّلالُ مِنْ شقوقِ الجُّدرانِ تسقطُ على الأرضِ

وأنا، تحتَ ضرباتِ الأقدامِ الهاربةِ

أسمعُ صراخَ «روكسانا» مِنْ عمقِ البحرِ

مع تسارُعِ أمواجي

مع الرِّيحِ التي تعبرُ فوقِ الأمواجِ البعيدةِ،

الأمواجِ التي تصرخُ:

«لا يمكنُكَ المجيءُ!

لا يمكنكَ المجيءُ!»

غَزَلُ العُزلةِ الأخيرةِ

1

كنتُ متواضعًا

وكتبتُ الشِّعرَ بوداعةٍ،

مِنْ أعماقِ أحلامي التَّعيسةِ المَوؤُدةِ...

إلى عَظَمةِ الحُبِّ الإنسانيِّ؛

كي يهبَّ النَّسيمُ ويمزِّقَ الغيومَ المُمطراتِ،

وامتلأتُ كالبحرِ مِنْ صَفاءِ السَّماءِ،

امتلأتُ مِنْ السَّماءِ والمَراعي والنَّاسِ

امتلأتُ مِنْ الثَّلجِ النَّاعمِ وشَمسِ الحُبِّ التي تفترشُ المَدى،

وفي لحظةِ الصَّمتِ والهدوءِ المَسلوبِ منِّي؛

امتلأتُ مِنْ الصَّمتِ والهدوءِ مُجدَّدًا

لأنَّني ـ ومنذُ زمنٍ ـ لستُ سوى إطارٍ فارغٍ أطِيلُ جَرَّهُ بأسْناني، لستُ سِوى ذاتٍ تصرخُ مِنْ فراغِها

جسدٌ

وجهٌ

يدٌ

ظِلٌّ -

يقظةٌ بألفِ عينٍ في الحُلمِ والذِّكرى،

الظِّلالُ

الأطفالُ

النِّيرانُ

النِّساءُ -

ظلالُ الأطفالِ ونيران النِّساءِ،

أحجارٌ

الأصدقاءُ

المَحبَّةُ

العوالمُ -

أحجارُ الصَّديقِ والحبِّ في العالمِ،

الأشْجارُ

المَوتى

والأشْجارُ الميِّتةُ،

وطنٌ تقبضُ على حدودِهِ الشَّمسُ والهواءُ،

مُدُنُهُ، الجُرُوحُ، وهُويَّاتُ مُواطنيهِ

وشيءٌ آخرُ، شيءٌ آخرُ

شيءٌ أعظمُ مِنْ كلِّ النُّجومِ، مِنْ كلِّ الآلهةِ

قلبُ امرأةٍ تجعلُ منِّي طفلاً يمسكُ بطرفَ فُستانِها!

لأنَّني، منذ زمنٍ، لا أملكُ سِوى هيبةِ العُزلةِ

التي تمضغُها أسنانُ الغُربةِ

لستُ سِوى فردٍ يئنُّ مِنْ وحشةِ الغُربةِ.

اسمٌ في اللاَّمكان وكلِّ الأمكنةِ

اسمٌ في اللاَّوقت وكلِّ الأوقاتِ

آهِ، كنتُ كالظِّلِ أجيءُ على الألْسُنِ

من دونِ أن تشرقَ شفتي
وكنتُ أعبرُ مِنْ الماضي كالغدِ
مِنْ دون أن يتعفَّنَ لحمُ ذاكرتي
لَمْ أتعلمْ شيئًا مِنْ الحُبِّ
ولَمْ أقرأْ حديثًا قريبًا مِنْ أحدٍ، ولَمْ أسمعْ

كنتُ ظلاً يتحدَّثُ مَع العدمِ

لَمْ أُشهرِ الحُبَّ علانيةً في الأسواقِ
فكيف أكونُ مُناديًا اسمَ الإنسانِ وكلَّ العالمِ؟
هل كنتُ أخدعُ عبيدَ الغدِ بطبُولِ قلبي الفارغةِ؟

كنتُ صرخةً خافتةً في سقفِ عُشِّيَ الباردِ
كنتُ طفلاً لأمٍّ يأسي،
وكنتُ أتعلَّقُ بطرفِ فستانِ مُربِّيتي، أُمِّ الأوجاعِ

آهِ، هذا اليأسُ دونَ شكلٍ لا مبرِّرَ لهُ
(ذلكَ النَّبعُ الفَوَّارُ سهيمُ العُزلةِ في عُمقِ قلبِ الشَّرِّ)
ولأجلِ تَوجُّعٍ ليسَ لَهُ مُبرِّرٌ آخرُ

وأنا «الإسكندرُ» التَّعِسُ في ظلماتِ ماءِ الخُلودِ
كيف أكونُ لسانَ صرخةِ النُّجومِ في هذا الممرِّ المُظلمِ؟

أليسَ الإنسانُ معجزةً؟
الإنسانُ شيطانٌ هزمَ الربَّ،
وقيَّدَ العالمَ وحطَّمَ السُّجونَ!
وشتَّتَ الجِّبالَ ولوَّثَ البحارَ وشربَ النِّيرانَ وجعلَ المياهَ رمادًا

الإنسانُ هذا الشَّقاءُ الحاكمُ! هذا المُندهِشُ المُتَفاجِئُ،
الإنسانُ ملكُ الحُبِّ الأعظمِ،
وأعظمُ المُنعزلينَ.

الإنسانُ ذلك الشَّهريارُ الكبيرُ
النائمُ بهدوءٍ في حرمِ أحضانِ أسرارهِ
وبعظمةِ تمرُّدِهِ يركلُ سِرَّ الطَّبيعةِ ومخابئَ الآلهةِ.

الإنسانُ...
أضاءَ ليلتي بهذهِ المرأةِ والصَّبيِّ والأخِ الكبيرِ،

بهذهِ الشَّمسِ التي حطَّمتْ ليلَ سِجني
بلا حُبٍّ وبلا حياةٍ، تحدَّثَ بالحُبِّ والحياةِ هنا!

أليسَ الإنسانُ معجزةً؟
آهٍ، كيف لَمْ أعدْ أسمعُ مسيرةَ أمواجِ المُحيطِ العَظيمةِ،
كيف لا أنظرُ إلى المستقبلِ في شيطانِ أعيُنِ أطفالي
وكيف لا أشعرُ بالجَّمالِ الوحشيِّ
في كلِّ مكانٍ حصارٌ لا نهائيٌّ يلتفُّ حولَ أحلامي
وأنا، آهٍ! كيف أصبحتُ بين أيدي الوجعِ والضِّيقِ!

قلتُ لنفسي: ها!
أنا وحيدٌ وأجوفُ
وصرتُ أسمعُ فوضى الصَّمتِ المُدهشِ وأناشيدَ الثَّورةِ،
لكنِّي لستُ سِوى صحراءَ قاحلةٍ تدوسُ عليها عقاربُ الزَّمنِ...
أنا عابرُ صحراءٍ قاحلةٍ، يصرخُ مُستوحِشًا عزلتِهِ:

أنا وحيدٌ وأجوفُ، وأُمَّتي جذورُ المُعجزاتِ
أنا منفذٌ ضيِّقٌ إلى عينيَّ،

وأُمَّتي ممرٌّ عبورِ مَياهِ الأبديَّةِ

أنا نقاءٌ، رقَّةُ الدُّموعِ، وأُمَّتي عَرقٌ ودمُ الفرحِ.

آهِ، إلى الجَحيمِ!

ألبسُ قميصَ الصَّبرِ الصُّوفيِّ،

على جروحِ ذكرياتي...

لا أثقُ بطَرقِ الحُبِّ الوَحشيِّ، في الماضي،

على بواباتٍ خفيضةٍ للقُلوبِ.

2

في موقدِ كلِّ الينابيعِ
في فجرِ كلِّ النُّجومِ
ولكلِّ الطُّيورِ بترانيمِها وسعادتِها التي مَنحتِني إيَّاها

تلْمَسِينني لأعودَ إلى الحياةِ
مع أوَّلِ فجرٍ أبصرُ فيه ذاتي!

قُربَ قدميَّ المترقِّبتيْنِ
تتفتَّحُ الطُّرقُ
كقبضاتٍ كانتْ مغلقةً
وأنا
مع تفتُّحِ الطُّرُقِ
أنظرُ إلى التحامِ البشرِ والآلهةِ.

تفتَّحتْ ورقةٌ على غُصنِ محبَّتي
ووقعَ ظلٌّ باردٌ على ظمأ روحي الخالدةِ
وعيونُ شُموسِ الأرضِ الكبيرةِ
تضيءُ أعماقَ روحي التَّائهة.

محبةُ النَّاسِ شَمسٌ
لكنِّي دونَكِ
كنتُ أرضًا قاحلةً... دونَكِ

من شفتيْكِ
تتسرَّبُ مياهُ آخرِ العُزلةِ إلى نومي
فاستمعتُ بشغفِ قلبٍ مُرهفٍ - على وشكِ الانطفاء - إلى شَررِ نشيدِ الرَّبيع الأخضرِ القادمِ.

الغزلُ الكبيرُ

أحطِّمُ كلَّ أصنامي
لأفترِشَها في طريقكِ
لأجلِ سماعِ لحني وأُغنيتي

أحطِّمُ كلَّ أصنامي
ـ أَيَّتُها العابرةُ! يا ضيفةَ لَيلتيَ الأثيريَّةَ ـ
مِنْ طريقِ غَزلي اللاَّنهائيِّ،
مِنْ تمجيدِ الأصنامِ التي حرقتني كالعُودِ في النَّارِ
وعلَّقتْكِ في خِزانةِ آلامي

رغمَ أنِّي قتلتُ إنسانًا في نفسي
رغمَ أنِّي ولدتُ إنسانًا في نفسي
رغمَ أنِّي في صَمتيَ المُؤلمِ عرفتُ الموتَ والحياةَ
لكنْ ما بينَ هذيْنِ الغُصنيْنِ المتفرِّقيْنِ في نَفسي

ما بينَهما
أنا مِرساةُ آلامِ ذَاتي وسَعيُها الدَّائمُ
في هذا الجَّانبِ،
في المَدى الدَّمويِّ المُحطَّمِ،
يقفُ إنسانٌ منِّي
أراهُ، أعرفهُ
نصفُ روحهِ في الانتظارِ ونصفهُ الآخر يتوجَّعُ:

أنقذني يا مفتاحَ الفضَّةِ الكبيرَ!
«أنقذني!»
وفي ذلكَ الجَّانبِ
في مَدى القمرِ المُضيءِ بالنُّجومِ المُتقابلةِ
امرأتي، قَمري
ليلُ عينيْها في اللَّهيبِ الأُرجوانيِّ للوجعِ، يشرقُ:
«ـ خُذني إليكَ!
يا صاحبَ أمانيَّ البِيضِ!
خِذني إليكَ!»

أقفُ حيثُ المدى

وألمُ الوقوفِ في المنتصفِ

يضغطُ على صَدري

لقد رأيتُ الإنسانَ الذي في نَفسي

منذ زحفتْ عينايَ ـ يومذاك ـ لتزيحَ السَّتائرَ الزُّرقَ،

كانَ مَصلوبًا على روحي،

بأربعةِ مساميرَ في المَدى المُحطَّمِ الدَّمويِّ،

أدركتُ ـ في المدى غير المرئي للإنسانِ ـ بأنّني ما بينَ القمرِ والنُّجومِ،

ثمَّةَ ـ في روحي ـ أعيُنٌ واسعةٌ وموجعةٌ

تبحثُ عن نصفِها الآخرِ

وتحترقُ

والآنَ، حانَ الوقتُ كي أصبحَ على هيئةِ وجعٍ مبرحٍ

وجعٌ يقطعُ روحي التي تشقَّقتْ مِنْ الجَّهلِ،

الآنَ، أنا قطعةٌ واحدةٌ مِنْ الألمِ

ولِدتُ تحتَ شَمسِ مساءٍ صيفيٍّ لاهبٍ...

في عالمِ الألمِ

عيونٌ كبيرةٌ مِنْ الشَّمسِ ازدهرتْ في عينيَّ
وأُذُنايَ امتلأتْا بصمتيْنِ، والتمعتا:
« ـ أنقذني يا مفتاحَ الفضةِ الكبيرَ مِنْ سجني المُظلمِ،
أنقذني!»
« ـ خُذني إليكَ، يا صاحبَ أمانيَّ البِيضِ!»

وإذْ أضاءتِ النُّجومُ اللَّيلَ؛ تراءتْ امرأةٌ في المدى،
ارتاحَ ظهرها المتعبُ بين يديَّ
وانسدلَ شعرُها على عنقِها مُسترسِلاً إلى ما بين نهديْها
انعكسَ ظلُّ شَفتها السُّفلى على فكِّها
وتدحرجَ رأسُها إلى حِضني
تمازجتِ الأرواحُ ببعضها
سالتْ دمعةٌ من سوادِ عينيْها؛
فتوجَّعتِ الأرواحُ وأرعدتْ سُحُبُ الظُّلمِ

كان رأسُها متَّكِئًا على حِضنِ الإنسانِ الذي كنتُهُ،
لكنْ، عندما فتحَ عينيه لَمْ يتعرفْ عليها!
انسلَّتْ كالثُّعبانِ وتلاشتْ في المَدى

في تلك الليلةِ المقمرةِ ظهرتْ،
وبدأتْ بالأنينِ مُجدَّدًا:

« ـ خُذني إليكَ، يا صاحبَ أمانيَّ البِيضِ!»
وطافَ أنينُها المَدى:
«خذني اليكَ!»
اتكأتْ على صدغي المُتألِّمِ
ما بين المدى، على بلاطٍ ملعونٍ،
كانَ الطَّريقُ الطَّويلُ يبحثُ عن قدميَّ
اصمتوا
كي أسمعَ صوتَ حوافر حصانٍ يأسي الأسودِ العاري بشَعرِهِ المتطايرِ
تنحَّوا جانبًا!
أريدُ رؤيةَ الصُّورِ البعيدةِ والقريبةِ
لستائرِ المَدى والنُّجوم أمامي:
الصورُ البعيدةُ والقريبةُ، التَّشابُهُ والاغْترابُ،
المَحبَّةُ وقولُ الحقيقةِ
ـ ليسَ بينَ أمانيَّ النَّائماتِ حقدٌ أو خِداعُ ـ
الشَّمسُ الخضراءُ، حرارةُ الرَّملِ في مهودِ الجِّبالِ العاليةِ

والثَّلجُ المتحرِّكُ، ودَمُ الأمواتِ الأسودُ في صرخةِ صَمتهم الطَّويلِ
الذي كانَ يتسلَّقُ ساقَ البابونجِ البَرِّيِّ
وتعبُ لقاءٍ لا أملَ فيه جعلَني غريبًا مَع ذاتي:
تعبُ الوصولِ، أشبهُ بلحظةِ الاستسلامِ
لونهُ أبيضُ وخجولٌ
في شَّمسِ المَساءِ الصَّيفيِّ الحارِّ؛
دعوني في مهدِ أوجاعي اليائسةِ،
وبللُ أدعيةٍ لا تُستجابُ أبدًا سالتْ مِنْ عينيَّ دموعًا،
الطُّرقُ بين المَدى طويلةٌ وموحشةٌ
أيُّها الطَّريقُ الطَّويلُ الموحِشُ
مطرقتُكَ الوحشيَّةُ تدقُّ باستمرارٍ على لحظاتِ يومي
وأمسي في نبضِ الحاضرِ
وتتلألأُ النُّجومُ
على صَريرِ أسْناني
هل اِبتعلتْكَ الغيمةُ الخانقةُ؟
لستَ سِوى ذلكَ العبيرِ المهينِ في أنفِ الجَّهلِ
برائحتهِ المميتةِ!
يالحزنِ روايةِ تلك الثِّيابُ القذرةِ على أجسادِ البَشرِ،

وها أنا تبكي بروحي رغبةٌ عمياءُ في مكانٍ بعيدٍ
فما الذي يصلبني على هذه الأرضِ الجَّافَّةِ القاتمةِ
التي لا تتحملُ ثِقلي؟
أهذا هو جحيمُ الرَّبِّ الذي ليسَ فيه غيرُ مذاقِ النَّارِ قصاصًا دون سببٍ؟
وأين هو؟
قولوا لي أين ربُّ البحرِ العميقِ لرغباتِ أوردتي النَّابضةِ،
التي حفرتْ اسمَها بالخناجرِ في كلِّ نفَسٍ موجعٍ على كَبِدي؟

صمتٌ لأجوبتي، صمتٌ لأجوبتي!
صمتٌ بثقلِ جثةِ رجلٍ يائسٍ
بين شطري روحي ثَمَّ أهواءٌ ومدنٌ
هناك أناسٌ بِسعيهم وأمانيهم
قرىً بجداولَ وأنهارٍ وجسورٍ،
أسماكٍ وزوارقَ
بين شطري روحي هناك طبيعةٌ وعالمٌ
عالمٌ لا أريدُ رؤيتهُ
كيلا أعثرَ على شطرِ روحي الثَّاني،
كنتُ حلمًا فارغًا، بلا شكلٍ، بلا رؤيةٍ

لكنّني، الآنَ، نائمٌ في عَتمة هذا المدى
لَمْ أعدْ حينًا، لَمْ أعدْ شيئًا،
ولستُ حتّى ظِلّ كائنٍ يتحرُّك على الأرضِ.

ليلٌ مُرصَّعٌ بالنّجومِ غطّى ذاكرتي:
ابتعدي يا شَمسَ النّهارِ المُظلمةِ! لا أريدُ رؤيتكِ،
لَمْ أعدْ أودُّ التعرُّفَ على أحدٍ،
من بين كلِّ البشرِ الذين أحببتُهم،
وكلِّ الآلهةِ التي احتقرتُها؛
أيُّهُم سينتقمُ منّي الآنَ؟
وهذا الحصانُ البرّيُّ الهائمُ في عاصفةِ عينيْكِ
يعزفُ القيثارَ مَعي، ترى ماذا يريدُ أن يقولَ لي؟
في هذا المدى الدّمويِّ المُحطَّمِ، انسانٌ منّي واقفٌ
وشطرٌ مِنْ روحهِ يترقَّبُ شطرَها الثّاني بتوجُّعٍ:

« ـ أنقذْني يا دَمِي الأخضرَ اللّزجَ، أنقذني!»
في ذلكَ الجانبِ، في المَدى المُقمرِ المَليءِ بالنُّجوم
امرأةُ أحلامي ـ

وليلُ عينيْها المُشمسُ يحترقُ في اللَّهيبِ الأُرجوانيِّ مِنْ الألمِ، ويتصاعدُ دُخانُها:

«خذني اليكَ!

يا صاحبَ أمانيَّ البِيضِ!

خُذني إليكَ!»

وما بين هذيْنِ الأُفُقيْنِ أقفُ

حُبِّي قفصُ طيورٍ فارغٌ،

حَزينٌ ومَلولٌ في طريقِ طُوفانِ جهدي،

مُعلقٌ على شجرةِ دهشتي اليابسةِ

ورِعدةٌ مجنونةٌ مِنْ الذِّكرى،

ستملأُ سردابَ قلبي السِّرِّيِّ بعوائها الغامضِ

لكنِّي سأذهبُ في منتصفِ ليلٍ ما،

مِنْ عالمٍ ليسَ لي، مِنْ الأرضِ التي عبثًا قيدوني بِها

حينها ستعرفينَ دَمِيَ الأخضرَ!

ـ ستعرفينَ أنَّ شيئًا ما، فيكِ، صارَ فارغًا

ستعرفينَ يا طيرَ قفصي الصِّغير الفارغِ!

ستعرفينَ بأنَّكِ وحيدةٌ، تتذوَّقينَ غربتَكِ بألمٍ تحتَ أسنانِ حزنكِ:

الحزنُ الذي آخذهُ معي الحزنُ الذي أجرُّهُ معي

لقد مضى ذلك الزَّمنُ الذي كنتُ فيهِ متألِّمًا؛
تتوجعُ روحي المرهَقةُ والممزَّقةُ بشقاءِ الجَّهلِ
لقد مضى ذلك الزَّمنُ وتحرَّرتُ إلى الأبد من الألمِ الذي يسري تحتَ جلدِكِ

قتلتُ الإنسانَ فيَّ، ليولدَ إنسانٌ آخرُ
وفي صَمتي المُوجعِ المُميتِ عرفتُ الحياةَ،
لكن ما بينهما ـ في مِرساةِ آلامِ ذَاتي سعيها الدَّائمِ ـ لَمْ أكنْ سِوى وجعٍ:

وجعُ شَتاتِ روحي
التي مزَّقها بؤسُ الجَّهلِ
فقط عندما أقبِّلُ ذكراكَ أدركُ بأنَّني مِتُّ منذ زمنٍ،
وأنَّ شَفتيَّ أبردُ من جبينِ ذكراكَ البارِدِ
يا رفيقي...
أيُّها الغصنُ المنفصلُ منِّي!

الحرفُ الأخيرُ

«لأولئك الذين يحاولون أن يكونوا أوصياءَ المقابرِ القديمةِ»

لستُ «فُريدون» [1]

ولا «فلاديمير» [2] الذي وضعَ في آخرِ الجُملةِ رصاصةً أشبهَ بنقطةٍ في نهايةِ مقطعِ حياتهِ

لنْ أعودَ

ولنْ أموتَ

لأنَّني «ألف ـ بامداد» [3]

ولَمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ على دفنِ ذاتي الغريبةِ عنِّي،

مثلما يُدْفنُ البلُّوطُ المتينُ في مَعبرِ الصَّحاري.

---

(1) فريدون توللي: شاعر وناشط سياسي وعالم آثار إيرانيٌّ [1917 ـ 1985]، عُرِف منذ بداية مشواره الأدبيِّ بأنّه شاعر رومانسي/ كلاسيكي. [المترجمة]

(2) فلاديمير مايا كوفسكي: كاتب وشاعر ثوري سوفيتي ولد في روسيا عام 1893، وانتحر فيها عام 1930، بعد فشله في حياته العاطفية وعدم تحقيق الثورة طموحاته وأحلامه. كتبَ (شاملو) هذه القصيدة في ذكرى انتحاره. [المترجمة]

(3) بامداد: لقبُ «أحمد شاملو» الشِّعريُّ، وله تأويلٌ آخرُ بمَعنى الفَجرِ أو مَطلعِ النَّهارِ. [المترجمة]

وَلَمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ على دفنِ ذاتي الغربيةِ عنِّي،
مثلَما سقطَ على الأرضِ «فلاديميرُ!»

وسطَ طاولةِ قِمارِ القوَّادينَ ومجلاتِ الأنظمةِ المُجلَّلة
أدقُّ شامةَ شِعري الوحيدةَ
لأنَّكم ساخرو «نيما» (1)
لأنَّكم قتلةُ كلِّ صنوفِ «فلاديمير»
لكنْ، الآنَ أنتم بضيافةِ شاعرٍ يقظٍ
ماجنٍ
أذابَ حبةَ الموتِ كقطعةِ سُكَّرٍ في قلبِهِ
ـ أسألكم أيُّها الشُّعراءُ المحترمونَ،
يا مَنْ ترمونَ قصائدكم في كلِّ مكانٍ!
عِوضَ أن تركلَ «قِطعةُ التَّاريخِ»(2) أزِمَّتكم؛
ماذا يمكنُ لكم أنْ تفعلوا أكثرَ؟

---

(1) نيما: إشارة إلى الشَّاعر الكبير (نيما يوشيج) مجدِّدِ الشِّعر الفارسيِّ المعاصِر. [المترجمة]
(2) قِطعةُ التَّاريخ: إشارة إلى التَّاريخِ الشِّعريِّ بحِسابِ الجُملِ، أي أنْ تؤرِّخَ لحادثةٍ ما، كالولادةِ أو الوفاةِ، كتابيًّا في بيتٍ أو شطرِ بيتٍ شِعريٍّ، اعتمادًا على القيمةِ العدديةِ لكلِّ حرفٍ، وفقًا لقواعدَ معروفةٍ لدى شُعراءِ الصَّنعةِ. [المترجمة]

أُمّي نُسيَتْ مثل سُوناتا قديمةٍ
وأنا ولدتُ في مَظروفِ قرارٍ خلال الاجتماعِ الكبيرِ
لأتوغَّلَ في الأعماقِ بينَ النَّاسِ وأتَّصلَ برُقعةِ زَمني

لأُغرسَ كالإبرةِ وأخرجَ
وأُوصلَ شتاتَ لحافِ السَّماءِ ببعضهِ

لينقشَ النَّاسُ - في كلِّ الدَّواوينِ - الكلمةَ على عينِ التَّاريخِ
النَّاسُ الذينَ أحبُّهم
الأوفرُ نصيبًا مِنْ كل حبٍّ لَمْ أمتلكْهُ يومًا.

في دُكَّانِ الجِّزارةِ على اللَّوحةِ الخشبِ
قُربَ ساطورِ النِّسيانِ الكبيرِ والحادِّ
خلفَ زجاجاتِ الخمرِ الفارغةِ
تحتَ فردةِ حذاءٍ قديمةٍ مليئةٍ بمساميرِ اللاَّمبالاةِ
امرأةٌ بلا معبدٍ، تنامُ تحتَ ضوءِ القمرِ على ألفِ عمودٍ مِنْ شَعرِها الفوضويِّ
إنَّها حبيبتي، سَيِّئةُ الحظِّ

سكبتُ، يومًا، في ثقبٍ تحتَ نهدِها
غزلاً سامًا
لتتجلّى عيناها المليئتانِ بالشّمسِ في قَدري
لكنْ، هذا الغَزلُ السَّامُّ أفسدَ دمَ حبيبتي وماتتْ
وحينَ تحوَّلَ جسدُها إلى تمثالٍ ثلجيٍّ
لطمتُ بيديَّ الثَّمينتيْنِ على سِندانِ جُمجمتي
وبدأتُ بالعويلِ كإلهٍ مكبَّلٍ بالسَّلاسلِ

وكزحفِ الجَّرادِ كانَ صوتُ صُراخي
إذْ جفَّفَ حقولَ مسرَّاتي
ورغمَ ذلكَ
رغمَ «حقراءِ الأوراقِ المَنسيَّةِ»
أنا أمامَ حراسةٍ ممتلئةٍ بالقَملِ
في بقعةٍ من ضريحِ إمامٍ عتيقٍ لَمْ أنذرْ له يومًا
خروفَ «مُسمَّطٍ»[1] واحدٍ!

---

(1) المُسمَّطُ: لونٌ من الشِّعر، يؤتى فيه بأشطار (أربعة في الغالب) مقفَّاةٍ بقافيةٍ واحدةٍ، ثم يُؤتى بعدَها بشطرٍ على قافيةٍ مخالفةٍ. [المترجمة]

لكن لو أردتم أن يتقيأَ الشُّعراءُ عند أقدامِكم

كلَّ ما أكلتموهُ طيلةَ السَّنواتِ

فماذا أفعلُ أنا؟

لأنَّ قصائدي، اليومَ، نطفُ شَكٍّ لمشاعرَ كبيرةٍ غدًا.

ماذا يفعلُ الصُّبحُ لو أنَّ الغدَ توأمُ النَّصرِ؟

ماذا يفعلُ الصُّبحُ

لو أنَّ الأمسَ قبرٌ لا تخرجُ مِنه سوى نبتةِ النَّدمِ؟

ماذا يفعلُ الصُّبحُ ببذرةِ التَّجربةِ المُرَّةِ في فاكِّهتِها السَّوداءِ

إذ كانَ المُستقبَلُ سيهزمُ الماضي؟

«د. حميدي»[1]، الشَّاعرُ الذي بلا حيلةٍ يسبحُ ككائنٍ بدائيٍّ في مياهِ القرونِ البعيدةِ،

وأنا «ألفُ ـ بامداد» أُحذِّركم (يا أمواتَ ألفِ مَقبرةٍ)

(1) د. مهدي حميدي شيرازي: شاعرٌ محافظٌ، يُعدُّ من المعارضِيَن البارزينَ للشِّعرِ «النِّيمائي» وحركة التَّجديدِ في الشِّعر الفارسيِّ المعاصرِ. [المترجمة]

لأجلِ القافيةِ؛ باحترامٍ مبهمٍ

إنَّ سعيكم لا يدومُ، لأنَّ مسافةَ قميصٍ هي كلُّ ما يفصلُ بيني وبين المتمرِّدينَ الذينَ يعانقُ بعضُهم البعضَ.

الأفضلُ مِنْ ذلكَ،
مناديلُ شِعرِكم القذرِ
تلكَ التي رميتُها على فتياتِ الحبِّ المَريضِ.

الأفضلُ مِنْ ذلكَ،
قدمي التي داستْ سلالمَ قصائدكم الموزونةِ الطَّويلةِ
أفضلُ مِنْ تمايلِ وغنجِ السَّادةِ أصحابِ النَّظاراتِ
أقرباءِ أحافيرِ القصائدِ والرُّباعيَّاتِ
منتسبي جمعيَّاتِ (مفاعلن فاعلاتن)
حراسِ بيوتِ دعارةِ المجلاَّتِ...
لقد بصقتُ على أبوابِها
صرخةُ وليدِ الزِّنا، «أنا»، سَوف تصلبُكم
داعرونَ عَجزةٌ يعوقونَ الطَّريقَ

أنا أمامكم جميعًا،

ـ لستُ فاجرًا متفنِّنًا! ـ

لا أعودُ

ولا أموتُ

ودِّعوا أسماءكم يا مَن لا أسماءَ لكم

لأنَّني

لستُ «فريدون»

ولا «فلاديمير»!

العيونُ المُظلِمةُ

عيناكِ كانتا منارتي السَّوداءَ
عيناكِ كانتا مرثيتي الموجعةَ
مرثيتي الموجعةَ، وتوحُّشَ وأدي.

تمتدُّ أنوفُ اليأسِ في حلمي الذي لَمْ يبدأ بعدُ،
تصرخُ الثَّعابينُ في أحلامي بأعيُنٍ جهنميَّةٍ
وأنتِ أخذتِ معكِ نظرتَكِ،
ومنحنياتِ جسدكِ في ثوبِ لهيبكِ،
مُطفأةٌ وحازمةٌ
بثقلٍ
عبرتِ مِنْ طريقِ العاصفةِ
حيثُ جسدي المفضوحُ معلَّقٌ على أعتابهِ بألفِ زهرةٍ وعينٍ تترصَّدُ.
دعيني أشعرُ بثقلِ أمواجِ منارةِ البحرِ
وهي تضربُ روحي بذكراكِ

دعي معبدَ كُفركِ الكبيرَ المنطفئَ يحوِّلُني إلى رمادٍ في حريقِ صُراخي
كوني شوكةَ نبتةٍ قربَ صحاري البحثِ
ليتعلَّقَ ظلِّي - بجراحِهِ ودمائِهِ - بآلافِ الأشواكِ مِنْ نظرتِكِ المشرقةِ

في ممرٍّ طويلٍ ضائعٍ
تعالتْ آلافُ الصَّيحاتِ الوحشيَّةِ
آلافُ النَّوافذِ الضائعةِ أغلقتْ مصاريعها
وشرَّعتْ آلافَ أبوابِ السِّرِّ...
وسِحرَ عينيْكِ،
سُلِبتْ شُعلةُ النَّارِ مِنْ شُقوقِ الشَّمعةِ نِصفِ المحترقةِ،
تسرَّبتْ آلافُ صيحاتِ الذُّعرِ إلى مستنقعاتِ الصَّمتِ،
آلافُ النَّوافذِ الضَّائعةِ فتحتْ مصاريعها
وركضتْ أنفاسُ اللَّيلِ مِنْ ألفِ فمٍ صوبَ الممرَّاتِ الطَّويلةِ
أُغلقتْ آلافُ الأبوابِ السِّريَّةِ،
حتَّى أنا، أحزُّ على كبِدي بماسةٍ؛
ومن وراءِ أبوابِ الغضبِ المغلقةِ أتبدَّلُ إلى هياكلِ اليأسِ
عيناكِ كانتا منارتي في نهايةِ الممرَّاتِ المغلقةِ للحُزنِ،
بينما آلافُ أقفالِ السِّرِّ الفُولاذيَّةِ على أبوابٍ مغلقةٍ وثقيلةٍ

بدتْ تعاويذُ أزهارِ عذابيَ السِّحريِّ،
كثعابينِ السَّحرةِ؛
تشربُ وتزدهرُ مِنْ عُمقِ آبارِ أراضيكِ
وأنا مرساةٌ هامدةٌ في اليأسِ

أتيبَّسُ وأنظرُ، أتوجعُ وأتنفَّسُ، وأصرخُ عاليًا:
عيناكِ كانتا منارتي السَّوداءَ
عيناكِ كانتا مرثيتي الموجعةَ
مرثيتي الموجعةَ، وتوحُّشَ وأْدي.

نشيدُ الرَّجُلِ الذي يَمشي وحدَهُ

1

وقفتُ أمامَ كلِّ ملحمةٍ

ثمَّةَ رجلٌ، الآنَ، بين جدرانِ غرفتهِ ينتظرُ القصيدةَ الأخيرة

من نافذةٍ صغيرةٍ في الكوخِ،

ينظرُ إلى شجرةِ الحَورِ اليابسةِ

إلى شجرةِ حورٍ، يعشِّشُ فيها طائرٌ أسودُ

والرجلُ كلَّ يومٍ، من خلفِ نوافذِ ملحمتهِ، يشغلُهُ الزُّقاقُ!

يقولُ في سِرِّه:

«لو أنَّ شجرتي تزدهرُ، سيحلِّقُ الطَّائرُ الأسودُ...

لو أنَّ الطَّائرَ الأسودَ يمضي، ستزدهرُ شَجرتي»

والبحَّارُ الذي فَقدَ آخر خشبةٍ مِنْ السَّفينةِ

في قلبهِ، لَمْ يعدْ حقًّا يؤمنُ بالرَّبيعِ

لأنَّ كلَّ قلبٍ مَبغى
والبِحارُ محاطةٌ بالقُلوبِ
والرَّجُلُ الذي كانَ يتحدَّثُ عن الخَيرِ،
اعتُقِلَ خلالَ حصارٍ سيئٍ
لأنَّ الخيرَ لمْ يكنْ سِوى خُدعةٍ
فلَمْ يخرجْ السَّيئُ إلى الشَّارعِ دونَ حجابٍ!

لأنَّ الأملَ كانَ يبحثُ عَن متَّكأ قويٍّ
وكلَّ سورٍ في هذهِ المدينةِ، كان أحجارًا متهالكةً
والرَّجُلَ الذي فقدَ خشبةً مِنْ السَّفينةِ لَمْ يعدْ يبحثُ عنها
لأنَّ قطعةَ الخشبِ ليستِ السَّفينةَ
والبحَّارَ على الشَّاطئِ
لَمْ يكنْ سِوى غريبٍ

2

ابكِ مَعي لأجلِ موتِ قائدٍ طُعنَ مِنْ الخلفِ
يقولُ لسَيفهِ:
« ـ لماذا سقطتَ على الأرض؟»
أهذا الدمُ أكثر سوادًا مِنْ رفاقي؟
فيجيبهُ السَّيفُ:
« ـ لماذا تختارُ رفاقًا أقسموا على السَّيئةِ قبل أعدائكَ؟

وقائدُ الحربِ الذي اسمهُ تعويذةُ الانتصارِ،
وحيدٌ، وحيدٌ يخدشُ أرضَ الغُربةِ الدَّامِيةِ:

ـ أين أنتم، أين أنتم يا شركاءَ القَسمِ؟
كان سَيفي الحادُّ في طريقِكم
لقد أقسمْنا بالحقيقةِ»

لم يجبْهُ أحدٌ...

إنَّهم يقرعونَ الكؤوسَ رافعينَ نخبَ الكذبةِ؛

« ـ أين أنتم يا رفاق

دعوني أنظرُ في أعيُنِكم؟»

فيجيبهُ السَّيفُ:

« ـ لَمْ يقولوا الحقَ كي ينظروا في عينيك؟

انظرْ إلى النُّجومِ!

سيحلُّ اللَّيلُ، الآنَ، بكلِّ نجومهِ...

انظرْ إلى النُّجومِ

لا نقاءَ في الأرضِ!»

ويصلُ اللَّيلُ مِنْ الطَّريقِ

مِن حيثُ اللَّيالي بلا نجومٍ!

إذْ لا نقاءَ على الأرضِ

الأرضُ خاليةٌ مِنْ الخيرِ والحقيقةِ

وسماءُ الأرضِ

أكثر السماواتِ فقدًا للنُّجومِ!

3

رجلٌ بينَ جدرانِ غرفتِهِ ينتظرُ الخرابَ الأخيرَ
ينظرُ مِنْ النافذةِ إلى الزُّقاقِ:
امرأةٌ مسرعةٌ تقذفُ خائفةً زهرةً حمراءَ في الشَّارعِ
يرسلُ لها العابرُ المُنتظِرُ قُبلةً
وفي البيتِ، رجلٌ يغمغمُ:

« ـ سيدتي تحبُّني بالتأكيدِ،
أعرفُ ذلكَ مِنْ قُبلاتِها الظَّمْأى
سيدتي تدركُ حُبِّي لها، وتستحقُّه!»

4

والرَّجلُ الذي يمشي وحيدًا، يغمغمُ:

« ـ تمطرُ في الزُّقاقِ ولا دفءَ في البيتِ!

فرَّتِ الحَقيقةُ مِنْ مَدينةِ الأحياءِ، أنا سَأذهبُ بكلِّ ملاحمي إلى المقبرةِ

وحيدًا

فبأيِّ رفيقِ سفرٍ يمكنُ لي الوثوقُ؟

ولماذا أختارُ رفيقَ دربٍ لأتساءلَ مرتابًا طوالَ الوقتِ:

هل يشدُّهُ وزرُهُ إلى تلويثِ الأمواتِ الأنقياءِ؟

وآخرُ:

« ـ الهواءُ الذي أستنشقهُ، ملوَّثٌ بأنفاسِ رفاق الدَّربِ المُخادعينَ!»

وفي الحقيقةِ

ما حاجةُ سالكِ هذا الطريقِ إلى رفيقِ دربٍ؟»

من حدود العزلة

عيناك السّوداوانِ تخدعانكِ، أيَّتُها المُتسائلةُ البَريئةُ
ـ لَنْ تجديني أبدًا في الظّلامِ مِن حَولي
لأنَّ عينيكِ ليسَ فيهما أثرٌ من نيرانِ الشَّوقِ

تريدينني أكثرَ إشراقًا
احترقي مِنْ شوقكِ لي وكوني أكثر توهُّجًا
لأنَّكِ لنْ تجديني في هذا الظَّلامِ مُجدَّدًا
ستخدعُكِ آلافُ الأعيُنِ، أيَّتُها المُتسائلةُ البَريئةُ
قِفي واشْعلي ضوءَ شَوقِكِ أكثرَ!

أنا زاخِرٌ بما لَمْ أقلْ،
ومفعمٌ بما لَمْ أكتبْ
مِنْ الأفكارِ المَجهولةِ
ومِنْ القصائدِ التي لَمْ أفكرْ بِها
عقدةُ دموعي مَلآى بالوجعِ... وجعِ الامتلاءِ

حانَ وقتُ البُكاءِ،
لو كانَ بالإمكانِ البكاءُ وحيدًا
أو الوثوقُ بحِضنِكِ
أو على الأقل بالأبوابِ،
التي يمكنُ الوثوقُ بأنَّها ستُفتحُ يومًا على الأشرارِ

مَع ذلك، تعالي إلى سِجني
نافذتهُ الوحيدةُ تُطِلُّ على دارِ المَجانينِ
لكن كيفَ؟ حقًّا كيفَ؟
في عمقِ لَيلٍ، كهذا، دونَ نجومٍ
ستتعرَّفينَ إلى سِجني الصَّامتِ

نحنُ في الظُّلمةِ
لأنَّ أحدًا لمْ يشتعلْ في غرامِنا

نحنُ وحدَنا
لأنَّ أحدًا لم يدْعُنا إليهِ

نحنُ مُنطفئانِ

لأنّنا لنْ نأتي لكم مرّةً أُخرى،أبدًا!

نرفعُ أعناقنا

لأنّنا لَمْ نثقْ بأحدٍ

دون أن نختارَ عدمَ الثّقةِ.

قربَ بركةٍ مَهجورةٍ

شجرةٌ بلا ربيعٍ

شجرةٌ تجفُّ مِنْ قوّةِ لبِّها الدَّفينةِ

والدَّناءةُ تحرمُ، رويدًا رويدًا، الوجوهَ مِنْ الضِّياءِ

غراميّاتٌ بريئةٌ، بلا هدفٍ أو عملٍ

والمحبَّةُ

ترجعُ مِنْ سَفرِها الطَّويلِ بيديْنِ فارغتيْنِ

تحتَ أطواقِ الخرائبِ المُشتركةِ

نِسوةٌ مَنبُوذاتٌ

في حجابٍ وقاحتهنَّ الأسودِ

يُنصتنَ إلى مرثيةِ إلهٍ جلاَّدٍ وطاغٍ

ويذرفنَ الدُّموعَ على جشعِ بُؤرتهنَّ الدَّنيئةِ

إلهي الرحيمُ لا عبيدَ له

وليسَ قاسيًا ولا مُفزعًا

أنا وإياه نُفينا إلى حدودِ العُزلةِ المُباركةِ

يا رفيقيَ الأرضيَّ، يا إبليسَ السَّماءِ!

وحدتُكَ وأبديَّةُ البَراءةِ

على أرضِ اللهِ، مثلُ نبتةٍ لَمْ تنضجْ بعدُ

لم تبكِ عينُ محبَّةٍ على حيرتكم، أبدًا!

في هذه السَّماءِ المقيَّدةِ، لَمْ تُضئْ نجمةٌ بعدُ

وآلهتكم الغريبةُ لن تلجأ إلى ذاتِها

لأنَّ القلوبَ مخادعةٌ

وفي الملاذِ الأخيرِ، وضعَتْ أنثى التِّنِّينِ بيوضَها

كقاربٍ بلا صاحبٍ

في ليلةٍ غائمةٍ

نعبرُ البِحارَ المظلمةَ صوب الغرقِ الأخيرِ

لا أملَ في التَّحيةِ

لا أملَ في المُلاطَفةِ.

وحيدٌ

يأخذونني الآنَ إلى المذبحِ
انصتوا أيُّها المُشاهدونَ!
بعدَ العدِّ
حماقاتُكم أكثر مِنْ ذنوبي التي لَمْ أرتكبْها
ـ ليسَ لي صلةٌ مَعكم
جِنانكم استحالتْ رمادًا وهي تنتظرُ احتضاني
في لَهيبِ البرزخِ
لآخذَ معي النَّارَ، هديةً، إلى جحيمِ خوفِكم
ومِنْ بصقةِ النَّارِ، يرتوي سكَّانُ الجحيمِ المساكينِ
لأنَّني أكرهُ كلَّ شَيءٍ فيكُم ومَعكم
مِنْ الأولادِ
والأب
مِنْ حضنكم العَفنِ
مِنْ أيديكم، كم ضغطتْ بالخداعِ على يديَّ

مِنْ صلحكم وحنانِكم

ومِنْ نفسي

كيف عَن غير قصدٍ صرتُ أشبهكُم

أنا مرعوبٌ مِنْ القربِ والبعدِ

آلهتكم ستغفرُ لـ «سيزيف»[1] الماكر

وأنا «بروميثيوس»[2] الخاسرُ

ومِنْ التَّعب

هيَّأتُ المائدةَ لغربان القَدَر الضَّائعِ

غروري في أبديَّةِ عذابي

كنتُ أشعرُ بمنقارِ نسرٍ في خاصرتي كلَّما ألقيتمْ عليَّ التَّحيَّةَ

إنَّ طعنةَ حربةٍ في كبدي، لأشهى إليَّ مِنْ تقبيلِ شِفاهكم

(1) سيزيف: أحد أبطال الأساطير اليونانية، ومن أكثر الشخصيات مَكرًا بحسبِ الميثولوجيا الإغريقية، لأنه خدع آلهة الموت وعاد إلى الحياة، مما أغضبَ كبيرَ الآلهة زيوس فعاقبهُ بأن يحملَ صخرةً من أسفلِ الجبل إلى قمَّتِهِ، حتَّى إذا بلغَ القمَّةَ تدحرجت الصَّخرةُ إلى الوادي، حيثُ يعود مجدَّدًا لرفعها نحوَ القمَّةِ ويظل هكذا إلى الأبد؛ ليصبحَ (سيزيفُ) رمزًا للعذابِ الأبديِّ. على أنَّ هناك روايةً أخرى مفادها أن (سيزيفَ) كان حاكمًا باطشًا وجبَّارًا أغضبَ شرُّهُ الآلهةَ، ثم غفروا له، أمَّا الذي أُدينَ إلى الأبدِ بالعذاب هو (بروميثيوس)، بخطيئة مجالسة البشرِ. [المترجمة]

(2) بروميثيوس: عملاق قاتلَ في الحرب العظمى إلى جانبِ آلهةِ الأولمبِ ضد العمالقة، وقد كان ذو حنكة ودهاء ومحبًا للبشر دونًا عن باقي الآلهة، وبسبب هذه الرفقة غير المناسبة أخبر البشرَ بسرِّ الآلهةِ التي أمرتْ ـ بسبب هذه الخطيئة ـ بتقييده بالسَّلاسل في جبال «القوقاز» حتى تأكل النُّسورُ الجائعة كبدَهُ إلى الأبد؛ فكلَّما أُكِلَتْ كبِدُهُ نمتْ من جديدٍ. [المترجمة]

لأنَّني لَمْ أسمعْ مُطلقًا مِنْ شفاهكم غيرَ العبثِ
وشوكةً تَنغرسُ في بؤبؤيْ عينيَّ، أكرمُ مِنْ نظراتِكم

لأنَّ نظراتِكم ليستْ سِوى نظرةَ سَيِّدٍ إلى عبدهِ
القَتلةُ أفضلُ مِنْ رجالِكم،
والعاهراتُ أطهرُ مِنْ نسائكم
إنَّي لأفضِّلُ لَعنةً أبديَّةً،
ولا أريدُ الربَّ الذي يفتحُ أبوابَ جِنانهِ لكم
خذوا جِنانكم الرَّخيصةَ،
رفقةُ الأتقياءِ والنَّومُ مع العذارى لكم
وأنا «بروميثيوس» الخاسرُ
الذي هيَّأ مائدتَهُ، وإلى الأبدِ، لغربانِ القدرِ الضائعةِ،
وأطعَمَهم مِنْ كبدِهِ،
انصتوا أيُّها الواقفونَ في مرمى النَّظرِ
وانظروا إلى ضحيةٍ غريبةٍ: هي أنا...
فليسَ لي صلةٌ بكم أبدًا!

خلفَ الجِّدارِ

ما أشدَّ مرارةَ الاعترافِ بأنَّ رجلاً جبارًا وغاضبًا
خلفَ جدرانِ معاركهِ الباسلةِ وقعَ، وانهزمَ!

رجلٌ ينحتُ كلَّ ليلةٍ شكلَ الزَّهرةِ في الحجارةِ
يرمي، الآنَ، إزميلَهُ الثَّمينَ جانبًا
ليأمرَ يديهِ اللَّتيْنِ خَوَتا مِنْ العشقِ والأملِ والمُستقبلِ:
« ـ اختصروا هذا العبثَ، الاستمرارُ فيهِ مملٌّ وهراءٌ،
قصِّروا هذا الطريقَ السَّمجَ الذي يشبهُ المُضيُّ فيهِ الغطسَ في مستنقعٍ»

لقد تمَّ مَضغي
ويا للحسرةِ على أنيابِ الوحوشِ!
بل الفُ حسرةٍ، لقد قبلتُ عذابَ المضغِ بسعةِ صدرٍ، إذْ ظننتُ بأنَّني سأستطيعُ إطعامَ رفاقي الجائعينَ من لحمِ جسدي في سنواتِ القحطِ هكذا...
كنتُ سعيدًا بهذا العذابِ

وهذه السَّعادةُ لَمْ تكنْ سوى خُدعةٍ
ابتلعَ المستنقعُ براءتي
وتلكَ فرصةٌ للقساةِ الكذبةِ
فليسَ الرفاقُ سِوى أعداءَ
ليسوا سِوى كذبةٍ
بينما كنتُ أجيرَ موتي
ويا للحسرةِ أحببتُ الحياةَ!
هل كان هذا السَّعيُ المستمرُّ ليُقرعَ جرسَ موتي بصخبٍ؟

لَمْ أحلِّقْ
كنتُ أرفرفُ مذبوحًا
خلفَ جدرانِ معاركي الباسلةِ
غرُبتْ كلُّ الشُّموسِ
في هذا الجانبِ مِنْ الجِّدارِ، رجلٌ وإزميلُهُ
رجلٌ ينظرُ إلى يديهِ؛
بينما يداه خاويتانِ مِنْ الأملِ والعشقِ والمستقبلِ...
في هذا الجانب مِنْ الشِّعرِ،
عالمٌ فارغٌ، عالمٌ رتيبٌ بلا حراكٍ،

فسيحٌ إلى الأبدِ

تتأرجحُ المُهودُ الثَّابتةُ مِن مجرَّةٍ لأُخرى

الظَّلامُ يملأُ الفَراغَ الباردَ،

مِنْ جوهرِ المَوتِ

ومِنْ خلفِ المعاركِ المجيدةِ

رجلٌ وحيدٌ

يَبكي في جنازتهِ!

بُسْتَانُ المِرآةِ

1961 ـ 1960

حلمُ الحارثِ

حينَ يغلبُني النُّعاسُ
أنامُ عندَ بدايةِ المَساءِ
والحشائشُ التي اقتلعتُها مِنْ جذُورِها صباحًا
وفي المَساءِ أيضًا،
ما زلتُ اقتلعها خلالَ النَّومِ!

على ما يبدو

على ما يبدو، كلُّ شيءٍ في هذا البيتِ الأسودِ،
حاقدٌ وعنيدٌ معي
مِنْ نعيقِ الغُرابِ على السَّطحِ
حتَّى الفانوسِ الذي تحرِّكهُ الرِّياحُ

على ما يبدو، يتحرَّكُ اليأسُ
في السُّكونِ الحاكمِ على هذا الخرابِ
ويبدو أنَّ الموتَ يقودني بِصمتٍ
نحوَ بيتِ الأحزانِ

وأنَّه يصارعُني ولا حيلةَ لديَّ
وكأنَّما الأحزانُ كلُّها مخبأةٌ في طيَّاتِ ثِيابهِ

كلُّ طوقٍ في هذا البيت

يحني رأسهِ بحزنٍ على ركبتيْهِ
وكلُّ عمودٍ يمدُّ ساقَهُ الطَّويلةَ
إلى موقدِ الحُزنِ والعَوزِ
تبدو الظِّلالُ متشابكةً فيهِ
وبكلِّ ليلةٍ، على السَّريرِ، تقصُّ أمُّ الأحزانِ
في أذنيْهِ حكايةَ المَوتِ

يبدو في شُرفتهِ
حيثُ تقيمُ الأشباحُ مَأتمًا في كلِّ لَيلةٍ،
والأراملُ، منذُ مَغيبِ الشَّمسِ، بلا حيلةٍ
يجلسنَ أسفلَ شرفتهِ.

تبدو ظلمةُ لَيْلهِ في نَارِ النَّهارِ
مَخفيةً
يبدو منذ بدايةِ المساءِ يجلسُ في الكمينِ
حزنُ الغدِ في البيتِ المدمَّر
حسرةُ الموتِ تذرفُ دموعَها على هيكلهِ الخاوي
في البيتِ المُدمَّر كلُّ شيءٍ جالسٌ في كمينِ عذابِ الأمسِ وحُزنِ الغدِ.

حريقُ القلعةِ المُنطفئةِ

إلى أمي

امرأةٌ تبكي بِصمتٍ حتَّى الفَجر
امرأةٌ تئنُّ حتَّى الفجرِ،
لكي أُولدَ
وتكونَ لي يدٌ وساقٌ

يا للحسرةِ! امرأةٌ بَكتْ حتَّى الفجرِ
لَمْ يقذْني ذلك الأنينُ الصامتُ:
أنا حريقُ قلعةٍ منطفئةٍ
حلَّ اللَّيلُ فيَّ... وفي الصَّباحِ احترقتُ

حريقُ القلعةِ المُنطفئةِ التي دُفنتْ
وأصبحتْ رمادًا،

التحقتْ بالفناءِ،

حريقُ القلعةِ المنطفئةِ،أجل!

لا بكاءُ المَرأةِ حتَّى الفجرِ.

المفتاحُ

غرقتُ في أفكاري فوقعَتْ منِّي الكأسُ
شهوةٌ عارمةٌ بدأتْ تغلي في قلبي

«أيُّها الرَّبُّ،
أصبحَ وجهُ رفيقتي مِرآةً
وصِرتُ أرى فيه وجوهَ الأصدقاءِ»

أخذتُ معي الحكايةَ إلى سكَّانِ الجَّبلِ البعيدِ
قالوا لكي تخرجَ هذه الفكرةُ مِنْ رأسي؛
عليَّ قتلُ سبعِ أفاعٍ عُميٍ، في ثمانِي آبارٍ جافَّةٍ سودٍ، في سبعِ أراضٍ رمليَّةٍ حُمْرٍ أو تحتَ ثمانِي قلاعٍ

عُدْتُ مِنْ الطَّريقِ مُجدَّدًا، نادمًا ومأسورَ القلبِ
بقدمٍ متعبةٍ وجسدٍ مرهقٍ ووجهٍ أصفرَ وباردٍ

في رأسي ألفُ فكرةٍ حزينةٍ ولا حيلةَ عندي
بخيبةِ أملٍ وبكاءٍ سقطتُ على أعتابِ القَلعةِ
خرجَ مِنْ القلعةِ مُسنٌّ بشعرهِ الأبيضِ
سألني عينًا بعينٍ كيف حالي،
ثمَّ قالَ:
«هذا الطلسمُ القديمُ، مفتاحهُ بيدكَ
لا تختلطْ بعبثٍ مع أحدٍ ولا تبحثْ عن مِرآةٍ!»

الحَدَثُ

رجلٌ سقطَ مِنْ مهبِّ الحدثِ
رجلٌ كالصَّاعقةِ نهضَ جرَّاءَ الحدثِ
اختارَ ذلك العارَ وصنعَ منهُ درعًا
أراد ذلك الاسمَ بلا ذريعةٍ

أتتِ الغيومُ مُسرعةً
هطلَ موكبُ المَطرِ
وعبرتِ الصَّاعقةُ السَّهلَ الظَّمآنَ
التَّلِّ الخاوي، انهارَ بأنينٍ وارتعاشٍ
وتلكَ النَّبتةُ الصَّغيرةُ، مُلئتْ بالشَّوقِ
التفَّتْ وامتزجتْ بالرَّبيعِ

ازدهرتِ الأغصانُ المُتيبِّسةُ مِنْ جديدٍ
وذلك الطبلُ خَفُتَ صوتُهُ
رجلٌ سقطَ مِنْ مهبِّ الحدثِ
رجلٌ كالصَّاعقةِ نهضَ جرَّاءَ الحدثِ.

الثَّلجُ

مرحبًا، مرحبًا، أَيُّها الثَّلجُ الجَّديدُ!
اجلِسْ! طيبٌ جلوسُكَ على السُّطوحِ

جلبتَ النَّقاءَ أَيُّها الأملُ الأبيضُ!
هذه الأيامُ جميعُها ملوَّثةٌ

تَعِسٌ غِناءُ المُطربِ
مرارةٌ تُقطَّرُ في الكأسِ
الدُّموعُ تقتلُ البَسمةَ
والفَضيحةُ تحدُّ سَيفها للاسمِ

السَّبتُ كالجُمُعةِ، العامُ كالذي تلاهُ
الرَّسامُ يرسمُ نفسَ اللَّوحةِ

طائرُ السَّعدِ وقعَ في الفَخِّ
حين حرَّرناهُ
الطُّرقُ أخذتْ مكانَ السَّهلِ
يا للحسرةِ، لَمْ تخطُ فوقها قدمٌ!

سقطَ الظَّمآنُ، هناكَ، على أرضِ الموتِ
كشُعلةِ نارٍ تبعثُ خطابَها مِنْ الماءِ
حينَ جاءتْ فرصتُنا
قبَّلنا الأيَّامَ بنهمٍ.

بفجاجةٍ احترقنا، لا غرضَ هناك
وداعًا!
واصلْ هطولكَ أيُّها الثَّلجُ،
مرحبًا، مرحبًا بكَ!

أسيرُ اللَّيلِ

إلى أديب خوانساري وسِحر صوتهِ.

طائرٌ حلَّقَ مِنْ أقصى الظَّلامِ
تساءَلَ اللَّيلُ، ثُمَّ عادَ إلى النَّومِ
صاحَ الطَّائرُ: يا للويلِ! ثمَّ حلّقَ
لَمْ يعرفْ طُرقَ اللّيلِ...
سقطَ في الظَّلامِ.

أنا ذلك الطَّائرُ، عائدٌ للظَّلامِ
نغمتي الويلُ، مَشربي نهرُ الدَّمِ
طعامي خُدعةٌ في فخاخِ العالمِ
عُشّي يهزهِزهُ مَهدُ الدَّمعِ.

العُشُّ يَتحرَّكُ والطَّائرُ في أركانهِ
صوتُ الصَّريرِ يُخيفُ روحَ الطَّائرِ

يا إلهي! لو لَمْ يكنْ هناكَ الشَّكُّ
هل ستكونُ هذه الأرضُ مُظلمةً هكذا؟
لو لَمْ يكنْ هذا الجسدُ سجنَ الشَّكِّ
لكانَ اللَّيلُ مُمتلئًا بفوانيسِ الشَّمسِ

أنا ذلكَ الطَّائرُ والويلُ مِنْ نَغمتِهِ
لحنُ اليائسينَ مأخوذٌ مِنْ آلتي
هو مستاءٌ مِنْ اللَّيلِ، واللَّيلُ فرِحٌ بِهِ
اللَّيلُ سعيدٌ بعذابِ طائرٍ معذَّبٍ منهُ
أحيانًا يرفرفُ في القاعِ
أحيانًا يصرخُ مِنْ شدَّةِ الحُزنِ

لو لَمْ يكنْ اللَّيلُ فرحًا به
لما كانتْ تلكَ القيودُ على قدميْهِ

الويلُ لو أشرقتْ شَمسُ المَحبَّةِ
على السَّجانِ الجريحِ،
مِنْ أسِيرهِ المَحبوسِ!

أنا ذلك الطَّائرُ، لستُ أكثرَ ولا أقلَّ
قاربٌ تائهٌ في بحرِ الحزنِ
لو أنَّ أملي يأخذني إلى الأمامِ قليلاً
لجرفتني روحي العاصيةُ إلى الماضي.

لو أنَّ الأملَ يمنحُني فُرصةً
سيكونُ البحرُ مأمنيَ الأخيرَ
لكنَّ البحرَ المُسنَّ يَمنعُني
يقولُ لي الأملُ: تعالْ، وخذْ مجرفةً!

لَمْ أنجُ مِنْ الحُزنِ ولا مِنْ الأملِ
أعومُ في مَكاني

أنا ذلك الطَّائرُ الذي حلَّقَ ومَضى
لمْ يعرفْ مسالكَ اللَّيلِ فسقطَ
لا يهمُّهُ حُزنُ الرُّوحِ ولا يهابُ الاسمَ
يصيحُ في الظَّلامِ: الويلُ!
ويمضي بسلامٍ.

المَغيبُ في «سياهرود»

تهطلُ سِيمفونيَّةُ اللَّيلِ
بهدوءٍ على الحنينِ الصَّامت لانطفاءِ الغروبِ

يحترقُ الغروبُ بِصمتٍ
من نارِ النَّهارِ الكئيبةِ

تُؤخَذُ أغنيةُ الحنينِ
إلى رياحِ الجنوبِ
لتهمسَ الرِّياحُ على السَّطحِ

لا كلامَ على شفتيْهِ
لكنَّه مُنطَفئٌ مفعمٌ بالحديثِ

صوتُ الرَّاعي

يعودُ ليهبطَ كالظِّلالِ

في هذا اللَّيلِ الأعمى

يزحفُ الثُّعبانُ

كالطَّريقِ المُتعرِّجِ

أسفلَ النَّهرِ العاصي

دونَ أن يخرجَ مِنْ خيمةِ أسرارهِ

آهٍ، يالعذوبةِ أنْ تقرأ الغابةُ ألحانَها!

في الأقاصِي

في الأقاصي، نارٌ بلا دُخانٍ
في شَاطئِ البَحرِ الباردِ في المَساءِ
شُعلةٌ تلتَهبُ
ما الذي حدثَ يا ترى؟
هل القصرُ العالي يحترقُ؟
أمْ بقايا كومةٍ مِن حقدٍ ونفاقٍ؟
لا شيءَ يحدثُ!
في الأقاصِي نارٌ بلا دخانٍ
على شاطئِ البَحرِ تلتهبُ شعلتها
وهنا، بالقُربِ منِّي، اللَّيلُ مرعبٌ
فمهُ مَحمومٌ
يعرفُ ما جرى
إنَّهُ عنيدٌ يجعلُ السَّوادَ أكثر اسودادًا
أجل! بالقُربِ منِّي، لا شيءَ يحدثُ:
في الأقاصِي، ثمَّةَ نارٌ بلا دُخانٍ
وهُنا لا دخانَ إثرَ أيِّ مصباحٍ!

على الرَّصيفِ

رفاقي المجهولونَ
كالنُّجومِ المُحترقةِ
سَقطوا ببرودٍ على التُّرابِ
كأنَّما ستظلُّ لَيالي الأرضِ دومًا بلا أنجُمِ
ثمَّ
بعد ذلك
ماذا سأكونُ
بومةٌ صامتةٌ في عُشٍّ وجعِها الأسودِ،
وضَعتُ درعي جانبًا
أخذتُ الفانوسَ مَضيتُ في الطَّريقِ
مشيتُ في الزُّقاقِ بينَ النَّاسِ
وصرختُ بهذا النِّداءِ المَجيدِ:
«انظروا ـ من خلفِ الزُّجاجِ ـ إلى الشَّارعِ
انظروا الدَّمَ على الرَّصيفِ

الدَّمَ على الرَّصيفِ

الدَّمَ على الرَّصيفِ

هذا دمُ الصَّباحِ يبدو على الرَّصيفِ

كما لو أنَّ قلبَ الشَّمسِ ينبضُ في قطراتِهِ»

مَضتْ ريحٌ مُسرعةً

على نائمينَ فوقَ التُّرابِ

تركَ الغُرابُ عشَّهُ

فوقَ غصنِ التِّينِ العاري في البُستانِ

الشَّمسُ حيةٌ!

في هذا اللَّيلِ الأسودِ

(والسَّوادُ أفضلُ

أمامَ علكةِ النِّفاقِ في أجسادٍ أصبحتْ كلّها أفواهًا)

سَمعتُ نبضاتِ قلبِ الشَّمسِ

أكثرَ إشراقًا

أكثرَ غضبًا

أكثرَ خفقًا مِنْ ذي قبل.

من خلفِ الزُّجاجِ انظروا إلى الشَّارعِ!

من خلفِ الزُّجاجِ

انظروا إلى الشَّارعِ!

من خلفِ الزُّجاجِ انظروا

إلى الشَّارعِ!

من خلفِ الزُّجاجِ

بدأتْ أوراقُ الشَّمسِ، على عَريشةِ البُستانِ القديمِ، بالنُّموِّ

تعلّقتْ فوانيسُ النُّجومِ على طريقِ الشَّمسِ

عدتُ مِنْ الطَّريقِ مفعمَ الرُّوحِ بالأملِ

وقلبي ينبضُ

ارتديتُ درعي مجددًا

جلستُ قربَ النَّافذةِ

ومِنْ النَّغمةِ التي أقرأها بِجنونٍ

حطَّمتُ بابتسامةِ نصرٍ

كأسَ الشِّفاهِ الباردةِ للشُّهداءِ في الزُّقاقِ

صرختُ:

هذا دَمُ الصَّباحِ يبدو على الرَّصيفِ

كقلبِ الشَّمسِ ينبضُ في قطراتِهِ

انظروا ـ من خلفِ الزُّجاجِ ـ إلى الشَّارعِ
انظروا الدَّمَ على الرَّصيفِ
انظروا الدَّمَ على الرَّصيفِ!

العِقابُ

هنا أربعةُ سجونٍ
في كلِّ سجنٍ نفقٌ
في كلِّ نفقٍ عدَّةُ غُرفٍ
وفي كلِّ غرفةٍ عددٌ من الرِّجالِ المُقيَّدينَ بالسَّلاسلِ

من بين هؤلاءِ السُّجناءِ،
سجينٌ طعنَ زوجتَهُ حتَّى الموتِ لحظةَ بُهتانٍ مظلمٍ
آخرُ، في ظهيرةٍ صيفيةٍ، لوَّثَ خبزَ أولادهِ بِدمِ خبَّازِ الحيِّ الجَشِعِ

من بينهم،
جلسَ عددٌ منهم في يومٍ شاغرٍ وممطرٍ
جلسوا في كمينٍ على طريقِ آكلي الرِّبا
قفزَ آخرونَ ـ في صمتِ الأزقَّةِ ـ على جدارٍ خفيضٍ نحوَ السُّطوحِ
بينما زارَ آخرونَ المقابرَ ـ بعدَ منتصفِ اللَّيلِ ـ واقتلعوا أسنانَ الموتى الذَّهبيَّةَ

لكنَّني،
لَمْ أقتلْ أحدًا في ليلةٍ مظلمةٍ عاصِفةٍ
لكنَّني،
لَمْ أقطعْ الطُّرقَ على آكلي الرِّبا
لكنَّني،
لَمْ أقفزْ - في أنصافِ الليالي - مِن سَطحٍ لآخرَ

هنا أربعةُ سجونٍ
في كلِّ سجنٍ نفقٌ
في كلِّ نفقٍ عدَّةُ غُرفٍ
وفي كلِّ غرفةٍ عددٌ من الرِّجالِ المُقيَّدينَ بالسَّلاسلِ

مِن بين السُّجناءِ ثمَّةَ رجالٌ يحبُّون ميتةَ النِّساءِ
مِن بين السُّجناءِ مَن يوجدُ رجالٌ في أحلامِهم،
في كلِّ ليلةٍ تخرجُ صرخةُ امرأةٍ تخشى الموتَ

ولكنَّني،
لَمْ أجدْ في النِّساءِ سِوى

ـ تلكَ

توأمُ روحي لو لَمْ أجدْها يومًا لانطفأتُ ميِّتًا ـ

لكنَّني،

في أعماقِ جبالِ أحلامي،

لا أجدُ سِوى انعكاسٍ باردٍ مِنْ نغمةِ أعشابِ هذه الصَّحراءِ التي تَنمو ثمَّ تجفُّ وتسقطُ

لَمْ أسمعْ شيئًا سواهما

لو لَمْ أكنْ سجينًا

ربَّما في فجرٍ ما

سَأعبرُ مِنْ هذه الأرضِ الباردةِ الدَّنيئةِ

كذِكرى بعيدةٍ ومُرتعشةٍ،

تلكَ هي الجَّريمةُ!

تلكَ هي الجَّريمةُ!

السَّمكةُ

أعتقدُ

أنَّ قلبي لَمْ يكنْ دافئًا وأحمرَ هكذا مِنْ قبلُ:

أشعرُ، في أسوأ لحظاتِ هذا اللَّيلِ المميتِ، بآلافِ ينابيعِ الشَّمسِ تَغلي في قلبي لشدَّةِ اليقينِ،

أشعرُ بأنَّ ألفَ غابةٍ مُبتهجةٍ ستَنمو بغتةً في كلِّ أرجاءِ هذا المُستنقعِ المُقفرِ اليائسِ

آهِ، أيُّها اليقينُ الضَّالُ
أيَّتُها السَّمكةُ الهاربةُ
في مُنزلقِ ينابيعِ المَرايا المتداخلةِ!
أصبحتُ، بسحرِ العشقِ، ينبوعًا صافيًا
فجِدْ لي طريقًا في ينبوعِ المرايا!

أشعرُ بأنَّ يدي لَمْ تكنْ يومًا سعيدةً ومنبسطةً هكذا:

أشعُر بأنَّ شلاَّلاً مِنْ الدُّموعِ الحُمر في عينيَّ، وشمسًا ـ لا تأفلُ ـ تتنفَّسُ النَّشيدَ

أشعرُ ـ الآنَ ـ بأوردتي، وبكلِّ نبضةٍ في قلبي

كنْ يقظًا!

ثَمَّ قافلةٌ ستَقرعُ الأجراسَ

خيَّمَ اللَّيلُ وأنا عارٍ مِنْ البَدءِ

كروحِ الماءِ: في صدرهِ سمكتان؛ وفي يدهِ مِرآةٌ

جديلتُهُ المُبلَّلةُ كالطَّحالبِ المُلتويةِ

صرختُ مِن قمَّةِ اليأسِ:

«آهِ، أيُّها اليقينُ المَوصولُ

لَمْ أجدْكَ بعدُ!»

الصَّنوبرُ

إلى أبو الفضل نجفي

كطائرِ «الواقِ» الجريحِ، أجلسُ بحزنٍ على طرفِ البُحيرةِ مساءً،
مغمورًا بالأفكارِ، متعبًا وحزينًا

هرمةٌ أشجارُ الصَّنوبرِ الحالكةُ، وأفكارُها سودٌ
كمَغيبِ الشَّمسِ: حزينٌ، متعبٌ ومغمورٌ بالأفكارِ.

أنا مُظلمٌ، كأشجارِ الصَّنوبرِ،
لَمْ تشرقْ الشَّمسُ، مُنذ أمدٍ طويلٍ، على رُوحي

أجرُّ ـ دونَ جدوى ـ قدميَّ في بيتِ حُزني
وأمسحُ ـ بلا توقُّفٍ ـ بيدي على جَبيني

ـ يا أنبياءَ الخيرِ الضَّائعِ!

يا أنبياءَ

بلا أفكارٍ

بلا أغلالٍ

بلا سيوفٍ!

في ممرِّ القَداسةِ المَهجورِ،
دونَ كتابٍ يخبرُ عَن حكاياتِ الجَّحيم المرعبةِ
أرى بأنَّ رفعَ رايةِ حُزنِكم أمرًا مستبعدًا للغاية.

لأنَّ سُمَّ العَذابِ ـ في قَلبي ـ مِن برائتكم العاجزةِ،
أجلسُ بحزنٍ كطائرِ «الواقِ»،
على طرفِ البُحيرةِ مساءً،
كأشجارِ الصَّنوبرِ المُعمِّرةِ يعلوني الغُبارُ
كما لو أنَّ أمطارَ الغُيومِ قد هجرتْني منذُ أمدٍ بعيدٍ

أجرُّ ـ دونَ جدوى ـ قدميَّ في بيتِ حُزني
وأمسحُ ـ بلا توقُّفٍ ـ بيدي على جَبيني.

جسرُ (الله وردي خان)

لفروز ويحيى هدى، لذكرى عزيزٍ رحلَ بمرارةٍ

الرِّياحُ، والسُّحبُ المُعطِّرةُ
السُّحبُ والأمطارُ الوفيرةُ

الجِّسرُ كالثُّعبانِ النَّائمِ
فوق النَّهرِ المُتعرِّجِ:
البَدَنُ في الماءِ، والرَّأسُ على ضفَّةٍ، والذَّيلُ على أخرى.
ليسَ لديه فكرةٌ عن الجَّفافِ
لا يحدسُ قلبُهُ الطُّوفانَ
لا تناغُمَ مع النَّسيمِ الخفيفِ
لا كبرياءَ مع حُمَّى العاصفةِ
لا يُربِّي أملاً في رأسِهِ
ولا فتورًا متأصِّلاً في روحِهِ
كلُّ قطعةٍ مِنْ عظامهِ حكايةٌ مِنَ اللاَّمبالاةِ

الرِّياحُ، والسُّحبُ المُعطَّرةُ
السُّحبُ والأمطارُ الوفيرةُ

هو معبرٌ للشَّمسِ والمَطرِ
لا يُبالي بالمطرِ والشَّمسِ.
واقفٌ
في مكانهِ
الجِّسرُ!

هو معبرٌ لمواكبِ الفوانيسِ والأفراحِ الصَّاخبةِ
هو معبرٌ لمواكبِ العزاءِ الحَزينةِ
يكادُ هيكلُهُ أنْ يتهدَّمَ مِنْ حَملِ أسماءِ مَن لا أسماءَ لهم،
واقفٌ
في مكانِهِ
الجِّسرُ!

الرِّياحُ، والسُّحبُ المُعطَّرةُ
السُّحبُ والأمطارُ الوفيرةُ

بقرةٌ حاملٌ ومصابةٌ

قرويٌّ يتبعُها

الضَّبابُ يُغطي نِهايةَ الجِّسرِ المُؤدي إلى الشَّاطئ

كما لو أنَّه موقدُ عشاءٍ مغطىً بالدُّخانِ

في تلكَ الأثناءِ

مِنْ فوقِ مأوى اللاَّمبالاةِ الباردِ

رجلٌ هادئٌ في الخَيالِ

يحدِّقُ في أمواجِ النَّهار شَديدةَ الانحدارِ.

لَيْلِيَّة 8

إلى إسماعيل صارمي

يا إلهي! مِنْ أعماقِ اللَّيلِ
أنصتُ إلى صَوتٍ مُوحشٍ ومُرعبٍ

لو لَمْ أجلسْ محطَّمًا في مَكاني
أو أقُمْ كالرِّيحِ مِنْ مكاني

يا إلهي! مِنْ أعماقِ اللَّيلِ
أنصتُ إلى صَوتٍ مُوحشٍ ومُرعبٍ

أُنادي بأنينٍ في هذا اللَّيلِ الدَّامي
وأتذوقُ كلَّ حينٍ صرخةَ هذا المسكينِ
بمذاقٍ مصحوبٍ بالألمِ

يا إلهي! مِنْ أعماقِ اللّيلِ
أنصتُ إلى صَوتٍ مُوحشٍ ومُرعبٍ

لو لَمْ أتحركْ مِنْ مكاني
ولمْ أملكْ حديثًا على شَفتيَّ

يا إلهي! مِنْ أعماقِ اللّيلِ
أنصتُ إلى صَوتٍ مُوحشٍ ومُرعبٍ

الـرَّسـمُ

إلى بروين دولت آبادي

اللَّيلُ

بعنقٍ دامٍ

يغني منذ القِدَمِ

البَحرُ

جالسٌ ببرودٍ

الغُصْنُ

في سَوادِ الغَابةِ

يجهشُ

صوبَ النَّورِ

الفقرُ

متعبٌ مِنْ عذابٍ ليسَ لي
جالسٌ على ترابٍ ليسَ لي

عشتُ باسمٍ ليسَ لي
بكيتُ مِنْ وجعٍ ليسَ لي

تلذَّذتْ روحي بمتعةٍ ليستْ لي
أمنحُ روحي لأجلِ موتٍ هو لي!

رِثاءٌ لمَوتى آخرينَ

العَرياتُ

1

وصلتِ العرباتُ مِنْ ذلك الجانب مِنْ العالمِ
دونَ ضجيجِ الحديدِ
الذي ملأ مسامعَ زمانِنا

العرباتُ وصلتْ مِنْ ذلك الجانب مِنْ العالمِ
الجِياعُ قاموا مِنْ مكانِهم
لأنَّ رائحةَ الخُبزِ الحارِّ كانتْ تفوحُ مِنْ حمولةِ العرباتِ
العراةُ قاموا مِنْ مكانهم
لأنَّ صوتَ جلاجلِ الثِّيابِ جاءَ مِنْ حمولةِ العرباتِ
السُّجناءُ قاموا مِنْ مكانِهم
لأنَّ حمولةَ العرباتِ لَمْ يكنْ فيها حبلُ مشنقةٍ ولا حريةٌ،

الموتى قاموا مِنْ مكانِهم

إذْ لا أملَ أنْ يكونَ سائقو العرباتِ مِنْ الملائكةِ

وصلتِ العرباتُ مِنْ ذلك الجانب مِنْ العالمِ

دونَ ضجيجِ الحديدِ

الذي ملأ مسامعَ زمانِنا

وصلتِ العَرباتُ مِنْ ذلك الجانب مِنْ العالمِ

دون أنْ تجلبَ معها أيَّ أملٍ!

شَبحانِ

2

الجُّذورُ في التُّرابِ

الجُّذورُ في المَاءِ

الجُّذورُ في الصُّراخِ

اللَّيلُ غنيٌّ بأرواحِ الصَّمتِ

وبالأيدي التي تقودُ الأرواحَ

الأيدي التي تبعدُ الأرواحَ

إلى البعيدِ.

ـ شَبحانِ في الظَّلامِ

رَقصا حدَّ الإرهاقِ

ـ نحنُ رَقصنا

لقد رَقصنا حدَّ الإرهاقِ

ـ شَبحانِ في الظَّلامِ

في رقصةٍ سِحريةٍ جَسَّدا الإرهاقَ مُجدَّدًا

اللَّيلُ غَنيٌّ بأرواحِ الصَّمتِ

الجذورُ مِنْ الصَّرخةِ

مِن الرَّقصِ والإرهاقِ.

غيرُ الحُبِّ

3

غيرُ الحُبِّ الجنونيِّ
كلُّ شيءٍ في عالمِكم يجلبُ الجنونَ.
غيرُ الحُبِّ
لتلكَ المَرأةِ
التي أُحبُّ
كيفَ تكونُ اللَّعنةُ
أكثرَ لذةً
مِنْ القَداسةِ!
كيف يكونُ المَوتُ
أكثرَ بهجةً مِنْ الحياةِ!
كيف يكونُ الجُوعُ
أكثرَ دفئًا مِنْ خُبزِكم
كيفَ نرضى بِذلك!

اللَّعنةُ عليكم، غيرُ الحُبِّ الجنونيِّ
كلُّ شيءٍ في عالمِكم يجلبُ الجنونَ.

الإضرارُ

4

متعبٌ
محطَّمٌ ومتأرجحٌ
أنا موجودٌ
أنا موجودٌ
أنا موجودٌ

مِنْ هذه الصَّرخةِ
إلى تلكَ الصَّرخةِ
هناكَ صَمتٌ مُطْبَقٌ

تائهٌ بفمٍ مُنطَبِقٍ
في وديانِ الصَّمتِ

أنا أعرفُ
أنا أعرفُ

أنا أعرفُ

تلويحةُ الغُصنِ

تُشيرُ لوجودِ الغابةِ

ورقصةُ شَمعةٍ ترتجفُ عاجزةً

تشيرُ إلى آلافِ مِنْ الجِّيرانِ الصَّامتينَ

أجلسُ في الصَّمتِ

مرهقًا

محطَّمًا

وقَلبي

معلَّقٌ.

ممتلئٌ بالحِقْدِ

5

كَتَبْنا وبَكينا
قُمنا للرَّقصِ ضاحكينَ
عَبرْنا بنُواحٍ مِنْ أرواحنا

لمْ يكترثْ أحدٌ لأمرِنا

في الأقاصِي
شَنقوا رَجُلاً

لم يرفعْ أحدٌ رأسهِ ليشاهدَ

جَلسْنا وبكينا
خرجْنا بصرخةٍ مِنْ هيئاتنا

صَرخةٌ ثُمَّ لا شيءَ

6

صرخةٌ وبعدَها لا شيءَ
ذلك لأنَّ الأملَ غيرُ قادرٍ
على سحقِ رأسِ اليَأسِ بقدمهِ

رقدْنا على سَريرِ العُشبِ
مُترعينَ بيقينِ الحَجرِ
وعقدْنا قِراننا مَع الحُبِّ على سَريرِ العُشبِ
وبأملٍ راسخٍ
قُمْنا مِنْ سَريرِ العُشبِ مَع الحُبِّ بيقينِ الحَجرِ نفسِهِ

لكنَّ اليأسَ قديرٌ جدًا
حوَّلَ الأسرَّةَ والحَجَرَ لهمسٍ عابرٍ

صرخةٌ...
ثمَّ لا شيءَ

صَرخةٌ

7

لا أملكُ أُمنيةً أكبرَ مِنْ هذه:
أنْ أقومَ بالبَحثِ عَن صَرختي الضَّالَّةِ

بمعُونةِ فانوسٍ مُحطَّمٍ
أو بلا عوْنِهِ
بأيِّ رُكنٍ على هذه الأرض
بأيِّ مكانٍ في هذه السَّماءِ

صَرخةٌ في مُنتصفِ اللَّيلِ
أجهلُ سَببها الذي أخرجَها مِنْ أعماقي
لتهرُبَ إلى السَّماءِ البعيدةِ

يا بوَّاباتِ العالمِ جميعًا،
أنجدوني لأستردَّ صَرختي الضَّالَّةَ
مُجدَّدًا!

لَيْلِيَّة 9

إلى محمود كيانوش

اللَّيلُ المُعتِمُ
اللَّيلُ اليَقِظُ
اللَّيلُ الغَنيُّ
أجملُ لَيلٍ للمَوتِ
قولي للسَّماءِ أنْ تُعطيَني خَنجرًا نجومهُ من مَاسٍ

ليلٌ
ليلٌ مديدٌ
إنَّه يقِظٌ بسببِ أمواجِ البَحرِ الهائجِ

البحرُ الفارغُ
البحرُ المسكينُ

الغابةُ المُسنَّةُ، تتنفَّسُ الصُّعداءَ
تحرَّكتْ لوهلةٍ
وطائرٌ مِنْ الأراضي الرَّمليةِ
يبدأُ بالعويلِ والتَّحليقِ
إلى البحيرةِ المُظلمةِ
البحيرةُ المُظلمةُ
استيقظتْ مِنْ نومِها
وبتهويدةِ البَحرِ الهائجِ
غطستْ مجدَّدًا
في نومٍ بِلا حُلمٍ

الغابةُ غريبةٌ مع الأنينِ والحَماسِ
تُغطِّي جرحَ الفأسِ بلُعابِ الطُّحلبِ الأخضرِ،
هياجُ البَحرِ مِنْ الخوفِ والسُّكوتِ والسُّكونِ

اللَّيلُ مُعتمٌ
اللَّيلُ مَريضٌ
إنَّه يقِظٌ بسببِ أمواجِ البَحرِ الهائجِ

اللَّيلُ غنيٌّ بالظِّلالِ وهبوبِ البحرِ
أجملُ ليلٍ للمَحبَّةِ بعينيْكِ
لا حاجةَ لي لألماسِ النُّجومِ
قولي هذا للسَّماءِ!

المَطَرُ

ثُمَّ رأيتُ سَيِّدةَ حبِّي المتكبِّرةَ
على أعتابٍ مفروشةٍ باللُّوتسِ
كانتْ تفكرُ بالسَّماءِ المُمْطرةِ

ثُمَّ رأيتُ سَيِّدةَ حبِّي المتكبِّرةَ
على أعتابٍ مفروشةٍ باللُّوتسِ المُبلَّلِ،
وكانتِ الرِّيحُ تداعبُ فستانَها.

سيدةُ حبِّي المتكبِّرةُ والمطرُ
على عتبةٍ مَفروشةٍ بأزهارِ اللُّوتس،
عائدةٌ مِنْ رحلةِ السَّماءِ الشَّاقَّةِ مرَّةً أُخرى.

في مُنتصفِ اللَّيلِ

مخالبُ الرِّيحِ الباردةِ
لا تخشى شيئًا
لكنَّني خائفٌ:

تبدو، هناكَ، امرأةٌ ترتدي السَّوادَ
تتنبَّأ بالفاجعةِ
لتُبكيَها على سَطحِ البيتِ

ومخالبُ الرِّياحِ اللاَّمباليةِ
في هذا المستودعِ
تبحثُ عن شيءٍ

لَيْلِيَّة 10

الحُبُّ
حادثةٌ تجلسُ في كمينِ الوقوعِ والتَّجدُّدِ
لأنَّ كليهما الآنَ نائمٌ:

في هذا الجانبِ مِنْ السَّريرِ
رَجلٌ وامرأةٌ
على الجانبِ الآخرِ

عاصفةٌ على الأبوابِ
عاصفةٌ على السَّطحِ

رجلٌ وامرأةٌ نائمانِ
وفي كمينِ التَّكرارِ والوقوعِ:
الحُبُّ متعبٌ.

امرأةٌ نائمةٌ

بالقربِ منِّي، لِصقي
صدرُها على مسافةٍ قريبةٍ منِّي
ببطءٍ يزفرُ الهواءَ
ويشهقهُ

عيناها اللَّتانِ أُحبُّ
وتحتَ جفنيهما
أسئلةٌ مخبوءةٌ:
«أين أنتَ؟
مَن أنتَ؟
وما تريدُ؟»

صدرُها ببطءٍ يزفرُ الهواءَ
ويشهقهُ.

شاهدةُ قبرٍ

لا في الذَّهابِ حِراكٌ
ولا في البقاءِ سُكونٌ

لا يمكنُ للغُصونِ مفارقةُ الجُّذورِ
والرِّيحُ المنافقةُ لَمْ تقلْ سِرَّها للأوراقِ كما يجبُ

سَيِّدةُ حبّي أمٌّ غريبةٌ
والنَّجمةُ المُسرعةُ
في ممرِّ اليَأسِ
تدورُ في مدارِ الخُلُودِ.

مطرٌ

على حَريرِ اللَّيلِ الفاقدِ للنُّجومِ
تراشقَ المَطرُ الكثيفُ

قريبًا منَّا...
ليسَ ثَمَّ غريبٌ
قريبًا منَّا
ليستْ هناك صحبةٌ.

البيتُ مُطفأٌ
وحريرُ اللَّيلِ الأسودِ
وهطولُ المطرِ.

إلى الشَّكِّ

الزُّقاقُ مُغلقٌ حتَّى الأبديةِ،
الجِّدارُ الصَّخريُّ بعيدٌ عن لمسِ اليدِ.

في ميدانٍ ملؤهُ أكاليلُ الأزهارِ
والنُّعوشِ تعبرُ منه بلا مُنازعٍ
لا مجالَ للتَّأمُّلِ في الابتسامةِ
أو في الدَّمعِ.

تقفُ البيوتُ باستقرارٍ في طريقِ الرِّياحِ غيرِ المُستقرَّةِ،
الشَّجرةُ تبيعُ وقارَها في معبرِ الرِّيحِ المازِحةِ.

«أيُّها الشَّجرُ، يا أخي!
الآنَ يأتي صاحبُ الفأسِ مِنْ الطريقِ الوعِرِ!»

«أيُّها المُسافرُ يا شَريكي في الألمِ!

لو أتيتَ إلى بيتِ اليقينِ

فليسَ أمامكَ سِوى هاويةِ الشَّكِّ الحتميةِ!»

البيوتُ غيرُ مستقرَّةٍ في معبرِ الرِّيحِ المستقرَّةِ،

والشَّجرةُ تتغنَّجُ، في معبرِ الرِّيحِ الحازِمةِ.

المَعادُ

أنا الرِّياحُ
سأكونُ أُمًّا للهواءِ
سأشعرُ بدورانِ الأرضِ
الذي يشبه حركةِ النُّطفةِ
في جيفةِ جَسدي
سأكونُ التُّربةَ والجنينَ، الأرضَ
سأحضُنُ الهواءَ كما يحضُنُ رحمُ المَرأةِ الجَّنينَ
سأُعاني
مِن برودةِ جَسدي التُّرابيِّ الميِّتِ
سأتعذَّبُ
مِنْ الضَّغطِ الشَّهوانيِّ لذراعِ النَّسيمِ عليَّ
سأتعذّبُ، كثيرًا، بسببِ لِقائي بي
وسأكرِّرُ الكلامَ المكرَّرَ
في أذنيهِ غيرِ الرَّاغبتَيْنِ بالاستماعِ.

أقفُ ثابتًا على التُّرابِ

أقفُ ثابتًا على التُّرابِ،
والتُّرابُ صلبٌ كاليقينِ.

شككتُ في النَّجمةِ،
والنَّجمةُ لَمعتْ في دمعةِ شَكِّي.

ثُمَّ
شككتُ في الشَّمسِ لأنَّها تُخبِّئُ النُّجومَ كالجَّواري البِيضِ
في صرحِ ضريحِها المجيدِ
الجُّدرانُ تحدُّ مِنْ السِّجنِ
الجُّدرانُ لا تحدُّ مِنْ السِّجنِ
ما بينَ سِجنَيْنِ
بوابةُ بيتِكِ عتبةُ الحُريَّةِ
ولكنْ، في العَتبةِ
لا خيارَ لكِ
بينَ الرَّفضِ والقُبولِ.

الزُّقاقُ

إلى الدكتور مجيد حائري

زُقاقٌ لا ينقطعُ
بين جدارين،
وعُزلةٌ
بثقلِ عَصا مُسنٍّ يتوكَّأ عليها
في زُقاقِ الصَّمتِ.

ثُمَّ
الشَّمسُ،
ظلٌّ منكسرٌ
حزينٌ، ومنكسرٌ

البيوتُ

بيتُ البيوتِ
وصراخٌ مِنْ بعيدٍ،
مدينةٌ شَطرنجيةٌ!
مدينةٌ شَطرنجيةٌ!

جِدارانِ
ودهليزُ الصَّمتِ
ثُمَّ
ظلٌّ يشيرُ إلى غيابِ الشَّمسِ.

ناسٌ وصراخٌ مِنْ الأعماقِ
ـ لسنا قطعَ شَطرنجٍ
ـ لسنا قطعَ شَطرنجٍ!

الاعتراضُ

مِنْ كلِّ الجِّهاتِ،
مِنْ الجِّهاتِ الأربعِ
مِنْ ذلك الجانبِ الذي يبدو مغَطىً بضبابِ الصَّباحِ
خفيفًا وغريبًا
وحتَّى ذلك الجانبِ،
لا شيءَ هناك!

لا عطشُ الصَّحراءِ
لا شجرةٌ ولا ستارةٌ
وهْمُ لَعنةِ الآلهةِ
مِنْ الجِّهاتِ الأربعِ
مسدودةٌ طُرقُ الهروبِ
أقيسُ الزَّمنَ
بطولِ سَلاسلِ قيْدي

وثقلَ الشَّمسِ
بِوزنِ كُرةِ معدنٍ سوداءَ صُفِّدتْ بقَدمي
أحملُها بيديَّ
بزهدٍ يَمضي العمرُ
في هذا المَضيقِ العَبثيِّ.

قاضي القدرِ أجرمَ مَعي
فمَنْ سيحكمُ بيننا؟

لَعنتُ كلَّ الآلهةِ
مثلما لَعنتْني
وفي السِّجنِ الذي لا مفرَّ مِنه
كنتُ بريئًا
بِشكلٍ سيئٍ!

البابُ المُغلقُ

منذُ أمدٍ طَويلٍ
لَمْ تفكِّرْ يدٌ
بطرْقِ بوابةِ بيتنا الخفيضةِ.

ننظرُ في المِرآةِ والقمرِ والسَّريرِ
ننظرُ إلى أيدي بَعضنا
والبوابةُ تكرِّرُ ترنيمتَها الهادئةَ
في هذا الصَّمت الممتدِّ

هكذا
نغيِّرُ الهمسَ المُملَّ إلى ترنيمةٍ أُخرى

هكذا
في البلادِ الغَريبةِ

مع كلٍّ ابتسامةٍ ونظرةٍ مقيدةٍ؛
نجدُ ابتسامةً ونظرةً مألوفةً لَنا

هكذا
على أرضٍ قاحلةٍ
أشاحتِ الغيومُ وجهها عنها
وجدنا قرينًا قويًّا لنا

السَّماءُ
فوقَ البيتِ
تكرِّرُ الرِّياحَ
الحديقةُ حُبلى بربيعٍ آخرَ

والنَّحلُ الصَّغيرُ
يلتقي بالزَّهرةِ كلَّ عامٍ
في موسمِها المُحدَّدِ

باحةُ البيتِ ثملةٌ بعطرٍ أخَّاذٍ

أرنبٌ يرعى العشبَ الطَّازجَ
وعلى الصَّخرةِ حِرباءُ ذكيَّةٌ
تتنفَّسُ في أفقِ شَمسٍ حارقةٍ
الغُيومُ وصخبُ المدينةِ مِنْ بعيدٍ
تكرِّرُ السَّماءَ المستعادةَ
كما أنَّ العصافيرَ
والرِّياحَ
تهمسُ بترنيمةِ البقاءِ
على نَبتةِ «الصَّبَّارِ» المحَمَّلِ باللَّبنِ
إنَّه واقفٌ بانتظارِ الصَّيفِ في الطَّريقِ
ليوقظَ جذورَهِ المشبعةَ بالمِياهِ

أنا أنظرُ فيكِ
وأتنفَّسُ فيكِ
والحياةُ تكرِّرُني
كما تكرِّرُ الرَّبيعَ
والسَّماءَ
والعُشبَ

ونقاءُ السَّماءِ

يمتدُّ في وَريدي

منذُ أمدٍ طَويلٍ

لَمْ تفكِّرْ يدٌ

بطرْقِ بوابةِ بيتنا القصيرة.

قولي لهم: لا حاجةَ لي بسماعِهم بعدَ الآن،

قولي لهم: معكِ لا أخشى لقاءَهم الجَّهنَّميَّ

حتَّى الطَّيرُ بأجنحتها السِّحريةِ الممتلئةِ بأنغامِ اللَّيلِ والصَّباحِ

لا تحطُّ على أغصانِ أشْجارِ بيتِنا اليَانعةِ

ننظرُ في المرآةِ والقَمرِ والسَّريرِ

ننظرُ إلى أيدي بَعضنا

حتّى البابُ، يكرِّرُ ترنيمتَهُ الهادئةَ

في نَشيدٍ أبديٍّ إلى نظرتِنا

ليسَ في الصَّمتِ الموجعِ
بل في الصُّراخِ المُمتدِّ
يتَّصلُ
في ربيعٍ مليءٍ بالأنهُرِ والشُّموس
بالخلُودِ.

مِن مَدينةٍ باردةٍ

الصَّحراءُ كانتْ جاهزةً لتُضيءَ
واللَّيلُ كانَ سيتخلَّى عن عنادِهِ وإصرارِهِ

حملتُ السَّهلَ على العربةِ وعبرتُ مِنْ العاصفةِ
كانتْ نظراتُهم السُّودُ فقط
تلك التي تجاوزتْ ضوءَ الصَّحراءِ
وعندما كانتِ الشَّمسُ
عابسةً ومحطَّمةَ القلبِ
عبرتْ مِنْ السُّهبِ
والسَّماءُ بلا حيلةٍ
لعنتْ الظَّلامَ الأبديَّ

ضَربتِ الرِّياحُ العاتِيةُ قوائمَ البابِ
وامرأةٌ في انتظارِ زوجِها، قامتْ بذعرٍ مِنْ مكانها

انطفأَ الضَّوءُ مِنْ أنفاسِ الرِّياحِ الكريهةِ
والمرأةُ غطَّتْ جدائلَها بحريرٍ أسودَ
نحنُ لَمْ نعدْ إلى طرفِ المَدينةِ المُظلمةِ
وأنا اختصرتُ كلَّ العالمِ في ثوبِكِ النَّاصعِ

رأيتُ الفَجرَ
واقفًا على بوابةِ الأفقِ في حِملِ حصانٍ عاصٍ،
ثم رأيتُ الصُّبحَ، وكانتْ أنفاسُهُ منقبضةً ويئنُّ،
مِنْ أناسٍ لَمْ تعُدْ في رؤوسهم طاقةٌ للحديثِ
يسألونَ عن ديارِ الغُربةِ
في تلك اللَّحظةِ
نظرَ بغضبٍ صوبَ المَدينةِ القديمةِ
وشتمَ أرضهم الذَّليلةَ والمُظلمةَ إلى الأبدِ

الآباءُ عادوا مِنْ المَقابرِ
والنُّسوةُ الجائعاتُ، النَّائماتُ على الحُصُرِ
حمامةٌ مِنْ القلعةِ القديمةِ حلَّقتْ صوبَ سَماءِ الغيبِ
ورجلٌ وضعَ جُثَّةَ طفلٍ يَتيمٍ على أعتابِ الظَّلامِ

لَمْ نعدْ إلى طرفِ المدينةِ الباردةِ
واختصرتُ كلَّ العالمِ في ثوبكِ الدَّافئ

الضَّحكاتُ كالقصيلِ اليابسِ لها خشخشةٌ مميتةٌ
وكانَ الجُنودُ السُّكارى يُعربدونَ في أزقَّةٍ مُغلقةٍ
وعاهرةٌ من قَعرِ اللَّيلِ كانتْ تنشدُ المآتمَ بِصوتِها المريضِ

الأعشابُ المُرَّةُ، ستنمو في المزارعِ العفنةِ
والأمطارُ السَّامَّةُ ستصبُّ في القناةِ الخَربةِ

لا تتركيني للحظةٍ وحيدًا
المسي جَسدي بدرعِ أصابعكِ!
أنا لا أخضعُ للظَّلامِ

اختصرتُ كلَّ العالمِ في ثوبكِ النَّاصعِ
ولَمْ أعدْ إليهم
مجدَّدًا!

مَع رفيقِ السَّفرِ

النَّباتُ المتسلِّقُ الأخضرُ
يغطِّي جدارَ البُستانِ القديمِ

ومِنْ الجانبِ الآخر، لا يملكُ الجِّدارُ سِوى بقايا الرَّبيعِ
الذي يشفي بمرهمِهِ الأخضرِ جراحاتِ الطُّوبِ

ومِنْ الجانبِ الآخر
النَّباتُ المُتسلِّقُ
كأثرِ الأمواجِ يمدُّ ظلَّهِ على أساسِ الجِّدارِ
رطوبةٌ مدمِّرةٌ، مِنْ حُمَّى الحرارةِ تتركُ النَّباتَ ليتمدَّدَ
والجِّدارُ، بِحرارتِهِ اللَّذيذةِ ظلَّ واقفًا بقوَّةٍ
والعابرُ المُتعَبُ يرقُدُ تحتَ ظلالِ البستانِ دونَ النَّظرِ إلى النَّباتِ والجِّدارِ
دونَ النَّظرِ إلى كلِّ الذين استسلموا للحُبِّ
هذا لأنَّ الإيمانَ فرَّ مِنْ القلوب:

في جسدي نباتٌ مُتسلِّقٌ

يغلبُني

وأنا، الآنَ، لا شيءَ سِوى انعكاسِ صورتِهِ!

أنا جزءٌ منكِ أيَّتها الطَّبيعةُ الممتدَّةُ

لا الزَّمانُ ولا الموتُ

لا شيءَ منهما يمكنُهُ أن يروي عَطشي مِنْ ينبوعِ وجودِكِ

أنا جِدارٌ طِينيٌّ، أنا المتسلِّقُ، أنا مزيجٌ مِنْ الجِّدارِ والمتسلِّقِ

أنتِ الجِّدارُ الطِّينيُّ أنتِ المتسلِّقةُ أنتِ مَزيجٌ مِنْ الأمِّ والطِّفلِ

أنتِ أيدٍ نقيةٌ، تحذِّرني وتغمرني حينَ أدركُ أنَّ أعداءً بقلوبٍ سودٍ يجلسونَ غرقى الحزن!

عودي بي إلى الأيمانِ بفترةِ تكوينِ الجنينِ

لكي أكتبَ مرَّةً أُخرى بالكلماتِ

تلك التي الآنَ لا شيءَ سِوى الخداعِ والشَّرِّ

أريدُ سماعَ ترنيمةِ الخير والصِّدقِ

يا رفيقةَ السَّفَرِ

سِرٌّ قواكِ اللاَّنهائيَّةِ مخفيٌّ عنِّي!

خذيني إلى مدينةِ الفَجْرِ

إلى واحةِ النَّقاءِ والصِّدقِ

عودي بي إلى فترةٍ كنتُ فيها أجهلُكِ

لكي تنموَ الأعشابُ قربي

دعيني كقفيرِ عسلٍ بلدغةِ ألفِ نحلٍ صغيرٍ

أمتلئُ بالعسلِ المقدَّسِ

لكي أكونَ كامرأةٍ حُبلى

بوحشةٍ لذيذةٍ

تنتظرُ أولى حركاتِ جنينِها

دعيني أتبدَّلُ إلى ولادةِ مولودٍ محبوبٍ صَغيرٍ

وأنا سأسميهُ الشِّفـاءَ

شريكُ سريرٍ أوحشٍ ليالي الفقدِ

أنا سأسميهُ الشِّفـاءَ!

بُستانُ المِرآةِ

ضوءٌ في يدي،
ضوءٌ أمامي:
أنا ذاهبٌ لمحاربةِ الظَّلامِ

المُهودُ متعَبَةٌ لِكثرةِ ما تكرَّرَ ذهابُها والمجيءُ
توقفتْ
وشمسٌ مِنْ الأعماقِ
توقدُ المَجرَّاتِ المنطفئةَ

صراخُ الصَّاعقةِ العاصيةِ
آنَ تولدُ حَبَّاتُ البَرَدِ في رحْمِ السَّحابِ
ووجعُ الكرمةِ الصَّامتِ
لحظةَ يولدُ الحِصرمُ
في نهاياتِ أغصانِ العنبِ

كان صراخي هروبًا مِنْ الألمِ
هذا لأنَّني دعوتُ الشَّمسَ
في أفظعِ لَيالي الوحشةِ
بدُعاءِ اليأسِ
أنتِ أتيتِ مِنْ الشُّموسِ
مِنْ الفجرِ
أنتِ أتيتِ مِنْ المَرايا والحَريرِ

في الفراغِ الذي لَمْ يكنْ فيهِ إلهٌ ولا نارٌ،
طلبتُ نظرتكِ وثقتَكِ بدُعاءِ اليَأسِ

أنتِ الجَّريانُ الحَادُّ
في مسافةِ ميتتينِ
في فراغِ وحدتِنا
«هكذا تبدو ثقتكِ»
فرحكِ جامحٌ ونبيلٌ
أنفاسُكِ في يديَّ الفارغتيْنِ مِنْ الغِناءِ والخُضرةِ...
أستيقظُ!

ضَوءٌ في يدي، ضوءٌ في قلبي

ألمَعُ صَداُ رُوحي

أضعُ مرآةً أمامَ مرآتِكِ

لكي أبني الأبديَّةَ معكِ.

المَرثيَّةُ

في الظَّهيرةِ
في الظَّهيرةِ

دونَ أنْ نرى الشَّمسَ مُجدَّدًا في مدارِها المُرعبِ
خلفَ سُلالةِ الغيومِ، وأقنعةِ الخِداعِ ولآلافٍ مِنْ ستائرِ المَطرِ
هل نَرى الزَّمنَ المَوعودَ الذي مَضى ثانيةً
واللَّيلُ الأبديُّ، هل هو بعيدٌ جدًّا؟
والنُّجومُ بانتظارِ الأمرِ النِّهائيِّ تميلُ إلى الانجمادِ
هل لأنَّها تمنحُ اللَّيلَ الأبديَّ الكمالَ النِّهائيَّ؟

الشِّفاهُ تبحثُ عن بسمةِ اسْتهزاءٍ جديدةٍ
وعندما تكفُّ عن البحثِ غيرِ المُجدي
تعودُ إلى شِفاهِنا
مِنْ الطُّرقِ المُغبرَّةِ، يصلُ المُسافرونَ المُتعَبونَ

«وفرنا لكم مياهًا معطَّرةً

لتغسلَ أقدامكم المتعَبَةَ

أيُّها الرِّجالُ المُرهَقونَ

تعالوا إلى بيوتِنا!»

«الأملُ ولدَ في سَريرٍ أخرقَ

يا عَذارى (أورشليمَ)! أين طريقُ (بيتَ لحمٍ)؟»

الزَّائرونَ المُرهَقونَ، ينشدونَ، يعبرونَ مِنْ بوابةِ « بيتَ لحمٍ»

وفي الجُلجُلةِ المُرتَقَبةِ، برعمُ الصَّنوْبرِ، بانتظارِ هيكلٍ سيرقى على شكلِ صليبٍ، في ظُلمةٍ منطفئةٍ تمدُّ طولَها الفارعَ إلى سَماءٍ خاويةٍ

في الظَّهيرةِ

في الظَّهيرةِ

«خلفَ الغيمةِ والقناعِ والسِّتارةِ،

هل عبرَ الزمنُ مِنْ منتصفِ النَّهارِ؟

واللَّيلُ الأبديُّ

أليسَ بعيدًا جدًّا؟»

والأرضُ التي تميلُ إلى الانجمادِ، لَمْ يعدْ لها حديثٌ
هناكَ حيثُ بكى المُحاربونَ القُدماءُ
البكاءُ إجابةٌ إلى الانطفاءِ الأبديِّ
ماتَ «عيسى» عَبثًا على الصَّليبِ
الحناجرُ الفارغةُ، تغنِّي ترانيمَ مختلفةً،
يبدو أنَّ اللهَ المَريضَ قد ماتَ!

أوَّاهُ، متى بدأ هذا العزاءُ الأبديُّ؟

وابلَ الدُّموعِ، لا تصدِّقِ البِركَ المِلحيَّةَ!
وابلَ الدُّموعِ، لا تخصِّبِ البِركَ المِلحيَّةَ!
الدّموعُ عقيمةٌ وصَنوبرُ الصَّليبِ مُثمرٌ جدًّا
حيثُ إنَّ «مريمَ» المُعزِّيَةَ
لَمْ تتعرفْ على وليدِها المَصلوبِ بعدُ

في نهايةِ السَّماءِ الفارغةِ، إنهارَ الجِّدارُ الكبيرُ
وصراخُكَ الضَّالُّ
لنْ يعودَ إليكَ.

النُّبوغُ

مِنْ أجلِ بلادٍ بلا ماءٍ وتُرابٍ
شعبُ «بروسيا»
تلطَّخَ بالدِّماءِ
مِنْ غضبِ «نابليونَ»،
وظلَّتْ فوقَ الأتون التَّعِسةِ
مِنْ مواكبِ «بونابرتَ»
على معبرِ «بروسيا»
قبورٌ
على التُّرابِ
بلا صخورٍ ولا شاهدةٍ ولا اسْمٍ ولا عنوانٍ
ثمَّ «فردريشُ» الوطنيُّ
زيَّنَ زوجتَهُ كالعروسِ
في فُستانِ الزِّفافِ،
ليستردَّ بلدهِ مِنْ هذا المَعبرِ مرَّةً أُخرى

(وهذهِ الزَّوجةُ لو أردتَ الحقَّ

في زمنِها

كانتْ أجملَ المحْصَناتِ في أوروبا!)

في المَساءِ ـ عندما تبدأ رقصةُ الحُزنِ

تحتَ ضَوءِ القَمرِ على جُثثٍ بلا قبورٍ

للشَّعبِ البروسيِّ

انطفأتْ في غرفةِ المَلِكِ «فردريشَ»

الشَّمعةُ والشَّهوةُ

وحين أشرقتِ الشَّمسُ

على القبورِ المُتناثرةِ في الطَّريقِ

(أي القبورِ التي بقيتْ إثرَ عبورِ موكبِ «بونابرتَ» في معركةِ «ماغديبورغ»)

ضحَّى المَلكُ بتُرابِ البروسيينَ

كما يُضحى بثيابِ المَوتى

إلى المَلك «فريدريشَ»

لأنَّ تلكَ البلادَ كانتْ أمَّ البُلدانِ

والأجملَ بينَ فاتناتِ أوروبا!

ثمَّ عادَ الملكُ السَّخيُّ

حينَ أشبعَ ترابَ «بروسيا»

من زبدِ دمِ فُرسانِها

وقامَ بتقبيلِ زوجتهِ «لويزَ»

ومن بين كلِّ الذينَ تُركوا على التُّرابِ

عبرَتْ مواكبُ «بونابرتَ»

مُبتهجةً وثمِلةً

عبرَ وثمَّةَ نجمةٌ، كبيرةٌ، وساطعةٌ

على هيئةِ رسالةٍ تجسِّدُ النُّبوغَ

كانتْ تُضيءُ وتلْمعُ

على رأسِهِ.

شِعارُ «نابليونَ» العَظيمُ

شِعارُ «نابليونَ» العظيمُ
في الحُروبِ الدوليةِ الكبرى

أخوةُ نسوةٍ مدعاةٍ للفخْرِ!
المستقبلُ مُلكٌ لأخواتِكم!

حكايةُ حُوريَّاتِ ملكةِ البحرِ

كانَ ما كانَ

لَمْ يكنْ هناك سوى اللهِ، تحتَ القُبَّةِ الزَّرقاءِ،

لا نجمٌ ولا نشيدٌ.

كانَ «العمُّ صحراء» البدينُ

بخدودٍ ورديةٍ، وأطرافٍ ناعمةٍ

لحيتُهُ بيضاءُ كروحِهِ

غليونهُ فارغٌ وباردٌ

قلبُهُ بحرٌ مِنْ الألمِ

كانَ قد أوصدَ بابَ بستانهِ

جالسًا أمامَهُ:

« ـ يا عمُّ صحراء! أين هم أبناؤك؟»

« ـ قربَ البحرِ يا بُني »

أبنائي يحبُّون حُوريَّاتِ البحرِ يا بُني

مساكينُ، يعودونَ مِنْ الحقلِ متعبةٌ أجسادُهم، ميِّتةٌ قلُوبهم ومُتشقِّقةُ أيديهم... ثيابُهم رثَّةٌ وأقدامُهم عاريةٌ،

يَجلسونَ على الصُّخورِ ـ قُربَ البَحرِ ـ بقلوبٍ مشتاقةٍ

مساكينُ يبكونَ حتَّى مطلعِ الفجرِ

محرومينَ مِنْ النَّومِ، منتظِرينَ

في البحرِ المالحِ يذرفونَ دموعَهم

ويغنُّونَ ـ أوَّاهُ، كم تحرقُ ألحانُهم القلبَ! ـ

«يا حُوريَّاتِ البَحرِ، متاعنا باردٌ وأسودُ

رجاؤنا باللهِ ثُمَّ بكنَّ يا حورياتُ»

بردتِ النَّارُ

اصْفرَّ الخَضارُ

وأصبحتِ الضَّحكاتُ مُوجعةً

مِنْ أعلى التَّلِّ، ليلاً

لا تسمعُ صهيلَ الخيولِ ولا العرباتُ تأتي

مِنْ عمقِ الغاباتِ، وقتَ الغروبِ
لا تأتي زقزقةُ الزَّرازيرِ ولا تغريدُ الكناري

لَمْ يعدْ يأتي فارسٌ مِنْ مَدينةِ الأناشيدِ

لا قمرٌ أطَلَّ
ولا يراعةُ اللَّيلِ
فرَّتِ البَركةُ مِنْ الأمتعةِ
وغادرَ «رستمُ» «الشاهنامةَ»

في الجوِّ، لَمْ يعدْ قوسُ القزحِ يخرجُ بعد المطرِ والصَّاعقةِ
وعلى الأرضِ لَمْ يعدْ الفارسُ الشُّجاعُ يخرجُ إلى الميادين
عندما يملأُ الذِّئبُ العالمَ بالدِّماءِ.

اللَّيلُ لَمْ يعدْ ليلاً بلْ جليدًا مِنْ الحُزنِ
والعناكبُ السُّودُ تنسجُ بيوتَها في هواءِ اللَّيلِ

لَمْ يعدْ اللَّيلُ مرصَّعًا باللُّؤلؤ

لَمْ تعدْ السَّماءُ ـ كما مضى ـ مليئةً بالأضواءِ
ثمَّةَ غُصَّةٌ يسيرةٌ مثلُ دمعةٍ باردةٍ أخذتْ مكانَ وميضِ النُّجومِ،
على كلِّ غُصنٍ جافٍّ تزمجرُ البُومةُ مِنْ الفجرِ
حتّى مَساءِ الغدِ.

القلوبُ سودٌ مِنْ الحُزنِ
أين إذَن بيتُ الشَّمسِ؟

مقفلٌ؟ نفتحهُ!
مستاءٌ؟ نصالحهُ!
نتحملهُ
نثمِّنُ سعيَهُ

حتَّى مع القوَّةِ لا أحدَ يحتملُ ظُلمةَ اللّيلِ
حتَّى الفأرُ الأعمى،
الذي يقالُ بأنَّهُ عدوُّ الضَّوءِ لا يحني عنقهِ لمُوسَى الظَّلامِ!

حُوريَاتِ ملكةِ البحرِ! لَمْ يعدْ على الأرضِ حُبٌّ
منذ زمنٍ طويلٍ شدَّ رحالَه وأقفلَ بابَ بيتِهِ
لَمْ يعُدِ القلبُ ينبضُ حُبًّا كالسَّابقِ
لَمْ يعدْ أحدٌ يعثُرُ في الكُتبِ على مثلِ هذه القصصِ

العالمُ أصبحَ كالسِّجنِ: لا حبٌ ولا أملٌ ولا شغفٌ
العالمُ أصبحَ كصحراءَ قاحلةٍ مليئةٍ بالجُثثِ والقُبورِ
لا أملَ، وأيُّ أملٍ؟ خسارةٌ هيَ كلُّ الآمالِ
لا ضوءَ وأيُّ ضوءٍ؟ هل سنرى شيئًا جيدًا؟
لا مرحبًا وأيُّ ترحيبٍ؟ كلُّهم متعطِّشونَ لدِماءِ بعضِهم البعض
لا بهجةَ وأيُّ بهجةٍ؟ هل يفسحُ لها الحزنُ مجالاً؟

رجُلُ الحكاياتِ، في قاعِ خندقِهِ
في بُستانِ الجَّدَّةِ، يرتجفُ كأوراقِ الخريفِ

لَمْ نَعُدْ نصطادُ مِن مياهِ القريةِ اللُّؤلؤَ كالسَّابقِ
بدتْ براعمُ الأشجارِ في الرَّبيعِ تحترقُ

مياهُ الينابيعِ أصبحتْ أنهارَ دَمٍ

لأجلِ قطراتٍ مِنْ المياهِ، تُقتلُ أربعونَ روحًا

الجُثثُ تتعفَّنُ وأراضي الأرزِ تحترقُ

عندَ المشانقِ، القاتلُ التَّعيسُ يحدِّقُ في الجوِّ

« ـ ما الذي يسرحُ في أفكارِهِ؟»

« ـ يفكِّرُ بالغيمةِ هل لها أنْ تمطرَ وتُنقذَ أراضي الأرزِ مِنْ الجَّفافِ، لتزدهرَ الشَّتَلاتُ؟

لو هطلتِ الأمطارُ!

آهٍ، لو هطلتِ الأمطارُ!»

«يا حُوريَّاتِ البَحرِ، متاعنا باردٌ وأسودُ

رجاؤنا باللهِ ثُمَّ بكنَّ يا حورياتُ»

لا نطلبُ منكنَّ المستحيلَ، نكتفي بِكنَّ

لا نريدُ منكنَّ الأثاثَ ونرتضي بالحَصيرِ والبِساطِ البسيطِ

دعوا بركةَ وجودكنَّ تبني أطلالَ القريةِ

قطراتُ ندى شعوركنَّ تروي عطشَنا
البهجةُ تشملُ مِنْ عطركنَّ الأخّاذِ
اطردوا عنَّا الحُزنَ والأسى!

أبناءُ العمِّ صحراء، قربَ الشَّاطئِ الأزرقِ
تحتَ الغيمةِ والضَّبابِ والدُّخانِ
يملأون اللَّيلَ مِنْ الأسرارِ السَّوداءِ
ويذرفونَ دموعَهم في البحرِ
فيفيضُ إناءُ البحرِ باللُّؤلؤ

حورياتُ ملكةِ البحرِ في عمقِ الماءِ
يجلسنَ بثمالةٍ وغنجٍ
أجسادُهنَّ نصف العارية
تغطيها الطَّحالبُ
أجسادهنَّ كوهمِ السَّرابِ
ضحكاتهنَّ كفَوَرانِ المِياهِ
شفاههنَّ كبِلَّورةِ المِلحِ
وصالهنَّ ضحكةُ شَكٍّ

قلوبهنَّ بحرٌ مِنْ الدّمِ
قربَ عريشةِ الطُّحلبِ يقرأنَ بأسًى

« ـ أبناءَ العمِّ صحراء! شفاهكم كحبَّاتِ السُّكَّرِ
ننذرُ عمرنا مئةَ عامٍ لأجلِ الوصالِ بكم
البحارُ أصبحتْ مالحةً مِنْ دموعِكم
وحظُّنا ابتعدَ مِنْ أعتابِ بابنا، وذهبَ
لا ترموا أسرارَ الحبِّ في الصَّحاري
لا تذرفوا دموعكم المالحةَ في البحرِ!
لو أصبحتِ المياهُ مالحةً، لن تصافحَ الأرضُ البحرَ،
وملكةُ البحرِ لَن تعيدنا إليكم بعدها،
ستكونُ قلوبنا حزينةً إلى يومِ القيامةِ
ولو بكينا طوالَ السَّنوات فذلك قليلٌ
أحزانُنا ستكونُ نافذةً للبحرِ
حبُكم سيُقضَى عليه، إلى يومِ القيامةِ!»

أليسَ لجدارِ الطُّحلبِ فأرٌ؟
أليسَ للفأرِ أُذنٌ؟

فأرُ الجِّدارِ سيخبرُ ملكةَ البحرِ:

والمَلكةُ بتلعثمٍ وعنادٍ

ستبدأُ لتقرأَ السِّحرَ

ستكتمُ الأصواتَ حتَّى لا تصلَ حافةَ البحرِ

ومِنْ العنادِ سَتوقظُ الغُيومَ:

خُيولُ الغُيومِ السَّوداء

ستصهلُ في الهَواءِ

وبراميلُ الرَّعدِ على سَقفِ السَّماءِ

ستبدأ بسكبِ المَطرِ الغَزيرِ!

وصخبُ الطُّبولِ سيصلُ عرشَ السَّماءِ

الصُّخُورُ مِنْ البهجةِ ستصرخُ

والجِّنيَّاتُ مِنْ عُمقِ الماءِ سيصرُخنَ:

«يا أبناءَ الصَّحراءِ

قلوبُنا ملكٌ لَكم

حذارِ أنْ تفكِّروا بأنَّنا صاحباتُ كيدٍ ماكراتٌ

ملكةُ البحرِ الحسودةُ

هي التي اشعلتْ هذه النَّار»

أبناءَ الصَّحراء، يا للأسفِ!

لا يوجدُ صوتٌ غيرُ ضجيجِ الرِّيحِ وصراخِها في مسامعهم

أحزانهم كالصَّخرةِ الصَّبورةِ

بقبَّعاتِهم العُوجِ

ونظراتِهم المتعَبةِ البعيدةِ

وقلوبِهم الحزينةِ

في صفيرِ الظَّلامِ الدَّامسِ

يذرفون الدُّموعَ المالحةَ

في البحرِ العليلِ.

* كُتبتْ هذه القصيدةُ باللُّغة الفارسيَّة العاميَّة/الدَّارجةِ، وقد حوَّلها الشَّاعرُ فيها بعدُ الى كتابٍ صوتيٍّ للأطفالِ. [المترجمة]

«آيدا» في المِرآةِ

1964 ـ 1965

البِدايةُ

في اللاَّوقتِ

في الغُربةِ

عندما لَمْ أكنْ قد تعرَّفتُ على ذاتي بعدُ؛

هكذا ولدتُ في غابةٍ مِنْ الكائناتِ والحَجرِ

وقَلبي

في الفراغِ

بدأ ينبضُ.

تركتُ مَهدَ التَّكرارِ

في أرضٍ لا طيرَ فيها ولا ربيعَ

أوَّلُ رحلةٍ لي

كانتْ عودةً مِنْ مُشاهدِ الرِّمالِ والأشْواكِ الحافلةِ بالأَملِ

دونَ أنْ أجرِّبَ قدميَّ الصَّغيرتينِ

مشيتُ في الطُّرقِ البعيدةِ

أوّلُ رحلةٍ لي
كانتْ عودةً

في البَعيدِ
لا إشارةَ للأملِ
بقدميْنِ ترتجفانِ
وقفتُ أمامَ الأفقِ الحَارقِ
أدركتُ ألاَّ بشارةَ هناك
لأنّي رأيتُ السَّرابَ.

في البعيدِ لا إشارةَ للأملِ
أدركتُ ألاَّ بشارةَ هناك:
كانَ هذا اللاَّنهائيُّ سجنًا كبيرًا، جدًّا
تذرفُ فيهِ الرُّوحُ الدَّمعَ خِفيةً...
بِعجزٍ وعارٍ.

لَيْلِيَّة 11

مِن بينِ الشُّموسِ الدَّائمةِ
جَمالُكِ
تدلِّي مِرساةٍ،
شَمسٌ تُغنِيني عنْ بزوغِ كلِّ النُّجومِ.

نَظرتُكِ
هزيمةٌ قاهرةٌ،
نَظرةٌ سترتْ بمحبَّتِها عُريَ روحي.

حيثُ أنا الآنَ
اللَّيلُ الذي بلا منفذٍ أبدًا
لنْ يهزأ بالبقاءِ.

عيناكِ قالتَا لي

إنَّ الغدَ، يومٌ آخرُ؛

وتلكَ الأعيُنَ، هي جوهرُ الحُبِّ!

والآنَ حُبُّكِ:

أداةُ مَعركةٍ

أُصارِعُ بهِ قَدَري!

خُيِّلَ لي أنَّ الشَّمسَ وراءَ الأفقِ

لا خيارَ لي سِوى اعتزامِ الهربِ المُبكِّرِ

هكذا خُيِّلَ لي...

لكنَّ «آيدا»، حطَّمتْ عزيمةَ الأبديَّةِ.

مِن بينِ الشُّموسِ الدَّائمةِ

جَمالُكِ

تدلِّي مِرساةٍ،

نَظرتُكِ

هزيمةٌ قاهرةٌ،

وعيناكِ قالتَا لي:

إنَّ الغدَ، يومٌ آخرُ!

أنا وأنتِ، الشَّجرةُ والمَطرُ

أنا الرَّبيعُ وأنتِ الأرضُ
أنا الأرضُ وأنتِ الشَّجرةُ
أنا الشَّجرةُ وأنتِ الرَّبيعُ.

لمسةُ أصابعكِ المُمطرةِ تجعلُني بستانًا
ومن بينِ الغاباتِ تَجعلني فريدًا

أنتِ كبيرةٌ، كاللَّيلِ
سَواءٌ بَزغَ ضوءُ القمرِ أم لا.
أنتِ كبيرةٌ،
كاللَّيلِ.

أنتِ قمرٌ، أنتِ القمرُ نفسهُ،
ساعةَ رحيلِ القمرِ

سيقطعُ اللَّيلُ طريقًا طويلاً ليصلَ
قُربَ أعتابِ النَّهارِ؛

أنتِ عميقةٌ، وكبيرةٌ
كاللَّيلِ.

وحينَ يأتي النَّهارُ
فأنتِ نقيَّةٌ كالنَّدى،
كالصُّبحِ.

أنتِ كمُخمَلِ الغُيومِ
كرائحةِ العُشْبِ
لطيفةٌ مثلُ «ململ»[1] الضَّبابِ
أنتِ «ململ» الضَّبابِ الذي ينزلُ على رائحةِ الأعشابِ
حائرًا ومتردِّدًا
بينَ

(1) مَلْمَل: نوعٌ من القماش القطني الأبيض الرقيق. [المترجمة]

البقاءِ والذَّهابِ
بينَ
الموتِ والحياةِ
أنتِ كالثَّلجِ

وعندما يذوبُ الثَّلجُ، وتتعرَّى قممُ الجِبالِ
أنتِ كقمَّةٍ عاليةٍ ومتكبِّرةٍ
تهزأ بالغُيومِ السُّودِ وبالرِّيحِ العاتيةِ.

أنا الرَّبيعُ وأنتِ الأرضُ
أنا الأرضُ وأنتِ الشَّجرةُ
أنا الشَّجرةُ وأنتِ الرَّبيعُ.

لمسةُ أصابعكِ المُمطرةِ تجعلُني بستانًا
ومن بينِ الغاباتِ تَجعلني فريدًا.

أنا وأنتِ

أنا وأنتِ فمٌ واحدٌ
بكلِّ غنائهِ
ينشدُ أجملَ الأناشيدِ

أنا وأنتِ عينٌ واحدةٌ
ترى العالمَ كلَّ حينٍ يتجددُ بتفرُّدهِ

نكرهُ
كلَّ ما يمنعُنا
كلَّ ما يُسجُننا
كلَّ مَنْ يحذِّرنا للرُّجوعِ.

يدٌ
ترسمُ خطًّا في الباطلِ بكلِّ تمرُّدٍ

أنا وأنتِ شوقٌ

أشدُّ مِنْ كلِّ لهفةٍ،

لنْ تَطغى عَلينا الهزيمةُ أبدًا

هذا لأنَّ جسديْنا

ينبضانِ بالحُبِّ

والسُّنونو الذي يعشِّشُ في بيتِنا

بمجيئهِ السَّريعِ

ملأ البيتَ بحضورِ الإلهِ الغائبِ.

مِنْ الموتِ

لَمْ أخفْ مِنْ الموتِ قطُّ
رغمَ قسوةِ يديْهِ حَدَّ الابتذالِ
إنَّ خَوفي مؤكَّدٌ مِنْ الموتِ
في بلدٍ أَجْرُ حفَّارِ القُبورِ فيهِ
أعلى مِنْ حُرِّيَّةِ الإنسانِ.

البحثُ
العثورُ
ثُمَّ
حريةُ الاختيارِ
ومِنْ ذاتِ النَّفسِ
الخلاصُ مِنْ القيودِ.

لو كانَ الموتُ أثمنَ مِنْ كلِّ هذا
حاشا، حاشا أنْ أخافَ مِنْ الموتِ!

النَّائمونَ

بمناسبة الذكرى العشرين لشجاعة غيتو وارسو

مِنْ الذين حدَّقوا
بعيونٍ مفتوحةٍ
في الموتِ،
مِنْ الأخوةِ الشَّامخينَ
في حيٍّ مُظلمٍ
لم يستيقظْ أحدٌ

مِنْ الذين هتفوا بالغضبِ في قبضاتِهم الفارغةِ
مِنْ الأخواتِ المُلْتاعاتِ
في الحيِّ المُظلمِ
لم يستيقظْ أحدٌ

من الذين ظلُّوا غرباءَ
عن رائحةِ الخُبزِ ومَرحِ جَرسِ نهايةِ الحِصَّةِ
لأنَّ المسافةَ بينَ المَهدِ واللَّحدِ كانتْ لديهمْ
قصيرةً جدًا

مِنْ الأولادِ البائسينَ الخائفينَ،
في الحيِّ المُظلمِ
لم يستيقظْ أحدٌ

أيُّها الأخوةُ!
ضَعوا الفوانيسَ على الأرضِ
ربَّما أعيُنُ النَّجمةِ تُنيرُ الشُّهداءَ
الذين سقطوا في وسطِ هياكلَ بنصفِ عذابٍ
ونصفِ موتٍ
في مسارِ حُلمِ إبليسَ الذي يتَّصلُ بالعَدمِ
ربَّما النُّجومُ تجسِّدُ صورةً تُشبهُ «يهوه» (1)

(1) يَهْوَه : هو اسم الله المذكورِ في «التَّوراةِ» من «العهد القديم» في «الكتاب المقدس». وأصلُ الاسم عِبريٌّ من جَذر (هايه أو هاوه) أي يكوِّن/ يصيِّر، وهو فعلُ الكينونةِ في اللُّغات السامية القديمة. وفي الصَّرف والنَّحو العبرانيينِ ـ كالعربيَّةِ ـ يكون اسمَ فاعل يعني حَرفيًّا المُكوِّن أو المُصيِّر. [المترجمة]

الذي ورثناهُ مِن الذَّاكرةِ
هؤلاء تغنَّوا بالموتِ
هؤلاء تغنَّوا بالموتِ بكلِّ مجدٍ وعلوٍّ
والرَّبيعُ أصبحَ كالحُطامِ يزحفُ على أوردةِ الجَّحيمِ

أيُّها الأخوةُ!
هؤلاء غنُّوا ترنيمةَ السَّنابِلِ الخُضرِ
في موسمِ الحصادِ
حتَّى أنَّ المُزارعَ احتقرَ نفسهِ وعضَّ شَفته السفلى حَسرةً
ضَعوا المشاعلَ في أرجاءِ أراضي «الغيتو» المنطفئ

لا وجهَ يُشبهُ وجهَ اللهِ
غيرَ وجوهِ الجَّلاَّدينَ

هؤلاء يشبهونَ الموتَ أكثرَ مِنْ الموتِ نفسهِ
هؤلاء يشبهونَ الموتَ أكثرَ مِنْ الحياةِ

هُمْ ظلالٌ مرتجفةٌ

مثلُ الموتِ

المفروشِ على الأراضي التي نسيها اللهُ

هؤلاء في دورانٍ أبديٍّ.

نشيدُ العائدِ من الزُّقاقِ إلى البيتِ

ليسَ فقط في الخيالِ،
إنَّما أرى
بأنَّني سأبدأ سنواتٍ مثمرةً

ذاكرتي حُبلى بالحُبِّ
وتستعيدُ
لذَّةَ أمومتِها
في تثاؤبِ انتظارٍ طويلٍ

بيتٌ هادئٌ
وشوقُكِ الصَّادقُ
لأنْ تكوني أوّلَ مَنْ يتغنَّى بقَصائِدي
مثلَ أبٍ ينتظرُ مولودَهِ الأوَّلَ
لأنَّ كلَّ أغنيةٍ

تنعقدُ نطفةُ جنينِها في يديْكِ الدَّافئتيْنِ
طاولةٌ ومصباحٌ،
أوراقٌ بِيضٌ وأقلامٌ برؤوسٍ حادَّةٍ سَلَفًا،
وقُبلةٌ
مَوصولةٌ بكلِّ شِعرٍ جَديدٍ

وأنتِ أيَّتُها الجاذبيَّةُ اللَّطيفةُ
التي تحوِّلين كلَّ سهلٍ جافٍّ إلى بَحرٍ،
هناك حقيقةٌ أكثرُ خِداعًا مِنْ الكذب،
بجمالِكِ ـ الأكثرِ عذريةً مِنْ الخِداعِ ـ تُلَقحُ أفكاري
بشتَّى الكائناتِ!
بجانبكِ أجدُ طِفولتي ترتدي ثيابَ عيدِها في تلك السَّنواتِ الضَّائعةِ بقُبحٍ،
لأنَّها لا تَتذكَّرُ خُطوطَ جسدِكِ.

بيتٌ هادئٌ
وشوقُكِ الصَّادقُ
لأنْ تكوني أوّلَ مَنْ يتغنَّى بقَصائِدي
بيتٌ فيهِ السَّعادةُ

مكافئةٌ للثّقةِ

والينابيعُ والنَّسيمُ

ينتعشانِ فيهِ

سقفُهُ قُبلةٌ وظلٌّ

نَوافذُهُ لا تطلُّ على الزّقاقِ

وليسَ لأصحابِ النَّظاراتِ الدَّنيئينَ طريقٌ فيهِ

دَعيهم ليجدوا معالمَ الحياةِ
في النُّفاياتِ التي نرميها في الزُّقاقِ
لكي نكونَ بمأمنٍ عَن الشَّياطينِ آكلي الكُتُبِ
بمظهرِهِم الذُّكوريِّ

أنا وأنتِ
نكتفي بزُقاقِ العُزلةِ المغلقِ!

لأنَّ حكايتي مَع هؤلاءِ، قصةُ حزنٍ موجعةٍ، ومُعادة:

لقد ربَّيتُهم بِدَمي
وماذا سيفعلونَ إذْ لا مهربَ مِنْ شُربِ دَمي؟

أنتِ وشوقُكِ الصَّادقُ

أنا وبيتُنا

طاولةٌ ومصباحٌ

أجل

في أكثرِ لحظةِ انتظارٍ مميتةٍ

أتبعُ الحياةَ في أحلامي

في الأحلامِ

والآمالِ!

التَّكرارُ

تهشَّمتْ غابةُ المَرايا
وهبطَ الرُّسلُ متعبينَ على هذه الأرضِ اليائسةِ

كتبُ بشارتهم
لَمْ تكنْ سوى سوادِ أسماءِ الذين
كانوا يكرّرونَ الشَّهادةَ
في قصصِهم

بأيدٍ متفحِّمةٍ
أزالوا الغُبارَ عنْ الشَّمسِ
ليتعرَّفوا على وجوهِ جلاَّديهم في مَرايا الذِّكرى
لكي يدركوا أنَّ جلاَّديهم جميعَهم مقيَّدونَ بالأغلالِ؛
لأنَّ انتفاضتَهم الدَّاميةَ
كانتْ ذاهبةً كأنشودةٍ في آفاقِ الحُريَّةِ.
جَميعُهم مقَيَّدونَ بالأغلالِ!

والآنَ انظروا

كيف بلا إيمانٍ ونشيدٍ

يشيِّدونَ سِجنَهم وسجنَ هؤلاءِ

انظروا!

انظروا!

تهشَّمتْ غابةُ المَرايا

وهبطَ الرُّسلُ متعبينَ على هذه الأرضِ المُظلمةِ

والصَّرخةُ الموجِعةُ

عندَ التعذيبِ تنزعُ جلودهم

وتقولُ:

« ـ كتابُ بشارتِنا المحبةُ والجمالُ

حتَّى بلابلُ القُبلِ تُغنِّي فوقَ أغصانِ الأرجوانِ

كنَّا نريدُ للبؤساءِ التَّوفيقَ

وللعبيدِ الحُريةَ

ولليائسينَ الأملَ

ليُستعادَ النَّسبُ الإلهيُّ للإنسانِ

في مملكةٍ أبديةٍ

على الأرضِ.

المحبةُ والجمالُ كتابُ بشارتِنا

حتَّى رحِمُ التُّرابِ

لا يلقِّحُ البُذورَ بالحقدِ»

تهشَّمتْ غابةُ المَرايا

والتحقَ الرُّسلُ مُتعَبينَ بموكبِ الشُّهداءِ

والشُّعراءُ التحقوا بموكبِ الشُّهداءِ

كحَمَامِ الحُريَّةِ حينَ يُذبَحُ بيدِ العَبيدِ

لِكي تتلوَّنَ مائدةُ الأسْيادِ

وهكذا

النَّشيدُ والجَّمالُ

ودَّعَ الأرضَ التي لَمْ تعدْ صالحةً للإنْسانِ

بقيَ قبرٌ ومأتمٌ

والإنسانُ

إلى الأبدِ بقيَ في الأغلالِ

في سِجنِ العُبوديَّةِ.

أربعةُ أناشيدَ إلى «آيدا»

نشيدُ الرَّجُلِ الضَّالِّ

1

يجبُ عليَّ في هذا المنعطفِ
- في انتظارِهِ الحارقِ -
الاحتماءُ بظِلالِ الخَشبِ والحجرِ

لأنَّ الأملَ
- في النِّهايةِ -
سيعودُ مِنْ سَفرِهِ المؤجَّلِ

أما الآنَ
يا للأسفِ!
ليس لديَّ سقفٌ فوقَ رأسي
ولا متاعٌ تحتَ قدميَّ

لَيسَ لديَّ ماءٌ

لأخمدَ عطشَ الشَّمسِ

ولا سَريرٌ لأخفِّفَ تعبي عليهِ

مُسافري المرتقبُ

سيعودُ فجأةً

أَيَتُها الآمالُ

امنحيني القوَّةَ

لأجلبَ هذا السَّقفَ!

نشيدُ اللِّقاءِ

2

مَنْ أنتِ

لكي أقولَ لكِ اسمي

هكذا

بكلِّ ثِقةٍ

لأضعَ في يدكِ مفتاحَ بيْتي

وأقاسِمَكِ خبزَ الفرحِ

أجلسَ بقربِكِ

وعلى ركبتيْكِ

لأنامَ هكذا

بكلِّ هُدوءٍ؟

مَنْ تكونينَ أنتِ؟

كيْ أتريَّثَ معكِ هكذا

وبكلِّ جديَّةٍ

في ديارِ أحلامي!

أيُّ شيطانٍ

3

أيُّ شيطانٍ
هذا الذي يوسوسُ لكِ بقولِ «لا»؟
وإنْ كانَ ملاكًا
فمن أي فخاخِ إبليسَ يحذرُكِ؟

هل هذا شَكٌّ؟
أمْ أنَّهُ صدى خطواتِكِ الأخيرةِ
لكي تعودينَ غريبةً لمسقطِ رأسِكِ؟

نشيدٌ لأجلِ الشُّكرِ والعِبادةِ

4

قُبلاتُكِ
تغاريدُ عصافيرِ البُستانِ
ونهداكِ قفيرا عسلِ الجِّبالِ
وجسدُكِ
سرٌّ أبديٌّ
يقصُّونهُ عليَّ
في العُزلةِ العظيمةِ
جسدُكِ لحنٌ
وجَسدي الكلمةُ التي تجلسُ فيه
لإنشاءِ أغنيةٍ:
نشيدٌ ينبضُ بالدَّيمومةِ
في عينيكِ كلُّ الحنانِ:
رسولٌ يبلِّغُ الحياةَ
وفي صمتِكِ كلُّ الأصواتِ:
صرخةٌ تجرِّبُ كلَّ الوجودِ.

النَّشيدُ الخامسُ

1

النَّشيدُ الخامسُ، ترنيمةُ اللِّقاءِ العَميقِ
نشيدُ حُزني وحُزنِها
وأيضًا
نشيدُ شُكرٍ آخرَ
نشيدُ تقديرٍ آخرَ:

تقديرُ يدٍ عَزفتْ أوتارَها
على روحي نشيدًا جديدًا
(و كم هذه الكلمات قديمة!)
يدٌ دافئةٌ مثل طفلٍ
تُترجمُ في امتدادِ أصابعها
الرقصةَ المَجيدةَ

هاتانِ الشَّفتانِ
قبلَ أنْ تتفوَّهَا بأيِّ كلمةٍ، تُسمعَانِ
هاتانِ اليدانِ
قبل أنْ تمسكا شيئًا، تُمنحَانِ

هاتانِ العينانِ
قبل أنْ تنظرَا، تُذهِلانِ

وهذا
عرفانٌ للنَّشيدِ العظيمِ
الذي يذهبُ لمحاربةِ الدَّمارِ
شفتانِ، يدانِ وعينانِ
قلبٌ يجعلُ مِنْ الجَّمالِ مذهبًا يُدرَّسُ.
أملٌ في مقابرِ الآلهةِ، نقاءٌ وإيمانٌ
امرأةٌ تمنحُ خبزَها وثوبَها
في مَذبحِ الظُّلمِ
لمحكومٍ مثلي.

2

لَمْ أُتعبْ قدميَّ في البَحثِ عنهُ
عندما قُطعَ حبلُ مَشنقتي
نزلَ عليَّ كأمرِ عفوٍ.

في ذلك الوقتِ
عندما فقدتُ الأملَ بتحرُّري مِنْ الأرضِ
وما عدتُ قادرًا على الانتقامِ
لمْ أُفكرْ بسِوى أنْ أكونْ بريئًا على الدَّوامِ!

لَمْ أُرهقْ قدميَّ في البحثِ عنهُ
لا عن الحبِّ الأوَّلِ
ولا الأملِ الأخيرِ
أيضًا
لَمْ تكنْ رسالتُنا الابتسامةَ
ولا الدَّمعَ
وكنَّا إذا ما تحدَّثنا مَع بعضِنا
قُلنا الذي يُقالُ؛
كما لو أنَّهُ ليسَ بيْنَنا ما لا يُقالُ

3

وَدَّعتُ الأرضَ والمدينةَ

لأَنَّها لَمْ تعدْ في الأرضِ ولا في المدينةِ ولا في البلادِ

ودَّعتُ السَّماءَ والقَمرَ

لأَنَّهما لَمْ يعودا عطرَ النُّجومِ ولا أغنيةَ السَّماءِ

لَمْ تكنْ بشرًا ولا ملاكًا

لأنَّ هؤلاءَ حطبُ الجَّحيمِ

وأولئكَ مسيَّرونَ

يسبِّحونَ هَمسًا خلالَ نومِ اللهِ

صَرختُ بسَعادةٍ وبهجةٍ:

« ـ يا قصائدي التي كتبتُها ولَمْ أكتبْها بعدُ!

لَمْ أشكَّكْ في سُلطتِكِ

لو أنَّها كانتْ قارئتَكِ الوحيدةَ!

لأَنَّها استغنائي عن التُّجَّارِ والخَليقةِ

وعنْ كلِّ الذينَ يقرأونَ قصائدي

ويلقونَ لومَ جهلهمْ عليَّ!

هكذا هو الأمرُ،

وأعرفُ كلَّ هذا مِنْ النَّظرة الأولى»

4

الآنَ،

أنا وهي

جزءٌ مِنْ قطعةِ الواقعِ المُتصدِّعِ

في الضَّوءِ المُنيرِ

في الظَّلامِ الجَّميلِ

أحبُّها أكثرَ في الضَّوء

وفي الظَّلام أحبُّها أكثرَ

في عزلتي اقرأ لها القصائدَ

ومحتاطًا لَمْ أكتبْها أبدًا على الورقِ!

أخشى أنْ أكتَبها

فتهبُّ الرِّياحُ لتُلقي بِها خارجَ البيتِ

أخشى مِنْ الغَضبِ، أنْ ينتزعَ جِلدَ القارئِ!

رغمَ ألاَّ وجودَ لهذه القوافي اللَّعينةَ في تلكَ القصائدِ، (التي في مصاريعها، يظنُّ حاكمٌ مجنونٌ زرعَ في كلِّ تقاطعِ شارعٍ فيها أصحابَ

النَّواقيسِ، وساعةَ يترنَّحُ عابرٌ قربَ أفكارهِ الرَّثَّةِ يضربُ بالمطرقةِ على النَّاقوسِ ليشتِّتَ نومَهُ كبطانةِ ثوبٍ ممزَّقةٍ كيلا يُنسى مَنْ هو حاكمُ المدينةِ) ـ لكنْ، غضبُ قارئِ تلك القصائدِ، ليسَ مِنْ عدمِ وجودِ أصحابِ النَّواقيسِ بأعناقِهم الضَّخمةِ، ولا لعدمِ وجودِ بندولِ الوزنِ فوقَ سَرجِ الحَيَواناتِ بآذانِها الطَّويلةِ في النَّثرِ الشِّعريِّ... بل لأنَّني ـ على سَبيلِ المثالِ ـ أسميتُ هذه القصيدةَ «غزلاً»!

5

غَزَلُ التَّحيَّةِ والوداعِ

تأتينَ للبيتِ بتحيةٍ وتغادرينهُ بوداعٍ
يا معمِّرةَ كلَّ لحظةٍ في عُمري!
المسافةُ بينَ التَّحيَّةِ والوداعِ ليستْ سِوى
هذه اللَّحظةِ الحَقيقيةِ
التي تنتظرُ اللَّحظةَ الأُخرى
رعشةٍ في مِرساةِ السَّاعةِ
التي تجرُّ مرساةً أُخرى لتحرِّكها
إنَّها خطوةٌ قبل الخطوةِ الأخرى
تلكَ التي توقظُ الطَّريقَ
إنَّها ديمومةٌ تعمِّرُ زماني
لحظاتٌ تملأُ عُمري.

6

يغضبُ القارئُ

لأنَّنا لا نقيسُ الحقيقةَ والجَّمالَ بمقياسهِ

لذلكَ يعجزُ عنْ قِراءةِ قصيدةٍ صَعبةٍ،

يعودُ دائمًا فارغَ اليديْنِ مِنها

ذاتَ يومٍ، على سَبيلِ المثالِ، كتبتُ قصيدةً موزونةً على الورقِ ومفارقةُ الرِّيحِ دفعتْها خارجًا نحوَ الزُّقاقِ، سقطتْ قُربَ رجُلٍ متَّشحٍ بالسَّوادِ، كان عائدًا مِنْ المَقبرةِ ليلةَ الجُمُعةِ، بعينيْنِ حمراويْنِ وذابلتيْنِ - إذْ بكى كثيرًا على قبرِ والدِهِ - وهذه هي القطعةُ، التي أخذتها الرِّياحُ النَّمَّامةُ وأوصلتْها إلى ذلكَ البَاكي على قبرِ والدِهِ:

7

إلى جُمجمةٍ

والدُكَ كانَ يئنُّ كقطَّةٍ بالغةٍ
وأمُّكَ كانتْ تفكِّرُ في ألمِ النِّهايةِ اللَّذيذِ
أخذتْ مِنْ عابرِها
قِماطكَ الفارغَ
وكانَ ينبغي عليها أنْ تملأهُ،
مِنْ مهرِّجٍ حَقيرٍ
كانَ ذلكَ الحبلُ ما تحلمُ بهِ الأمُّ
وكانتْ تريدُ أنْ تخيِّطَهُ على رأسِ قبَّعتِكَ
هكذا؛
حركةُ المَهدِ بدأتْ مِنْ أنينِ أعضاءِ والدِكَ
المَقبرةُ العجوزُ كانتْ جائعةً،
والأشجارُ اليانعةُ تبحثُ عن سَمادٍ لها!
تلكَ هي كلُّ الحكايةِ
أجلْ!
وإنْ لَمْ تكنْ كذلك
فرعشةُ الرِّجالِ والمُهودِ
ليستْ سوى أعذارٍ.

الآنَ جُمجمتُكَ العاريةُ
تبتسمُ على كلِّ ذلكَ الجهدِ الفلسفيِّ العَدميِّ
تضحكُ على حماقةٍ لجأتَ إليها مِنْ وحشةِ الموتِ:
للعيشِ
بأغلالٍ في قدميكَ
وبالطَّوقِ في عُنُقِكَ

الأرضُ تلهو مَعي ومعكَ ومَع أسلافِنا
والآنَ، في انتظارِ بوقِ «إسرافيلَ» الهزيلِ بإيقاعِ «الجّازِ»
لا شيءَ أفضلَ مِنْ ابتسامةٍ صفراءَ.

لكنَّني ـ في ذلك الحينِ ـ أريدُ الحراكَ
وإنْ على شكلِ مغازِلِ الحلاَّجِ
لأنَّني مِنْ بين جميعِ الآلات
أجدُ «سُورنا»(1) حزينةً للغايةِ.

(1) سُورنا: آلةٌ موسيقيَّةٌ إيرانيةٌ أقرب إلى «المزمار». [المترجمة]

8

أنا محكومٌ بالتَّعذيبِ المُضاعَفِ

أحيا هكذا،

وكذلك هي الحياةُ بينكم

أنتم الذين أحببتُكم منذُ القِدمِ

خرجتُ مِنْ النَّارِ والمياهِ

مِنْ الطُّوفانِ والطَّيرِ

مِنْ الفرحِ ومِنْ الألمِ،

لكنِّي لَمْ أعرفْ أبدًا

كيف تديرُ زهرةُ الشَّمسِ ظلامَ اللَّيلِ!

رأيتُ عددًا لا يُحصى جَرَّدوا قلوبَهم مِنْ أيِّ حُزنٍ

لكيْ يرفعوا رايةَ الإنسانيَّةِ،

ثُمَّ كانوا يبصقونَ بعدَ ذلكَ على كلِّ ما هو إنسانيٍّ!

رأيتُ عددًا لا يُحصى كانتْ دوافعُ عَداواتِهم حمقاءَ للغايةِ

حد أنَّهم جعلوا ضحايا الحُروبِ يضحكونَ عليهم بإفراطٍ،

وكانتِ الكراهيةُ ونفيُ الرِّجالِ والنَّاسِ
إلى حدٍّ دفعَ إبليسَ ليلعَنهم
يا «كلوديوس»[1]!
أنا أخُ «أوفيليا» المسكينُ،
التي أخذتها الأمواجُ العاليةُ نحوَ الأبدِ
لقد رَمتني على أرضكِم.

(1) كلوديس هو ملك الدَّنمارك وعمُّ «هاملت». أمَّا أوفيليا فهي حبيبة «هاملت»، وابنة «بولونيوس». في إشارة إلى ثيمة الخيانة و«مأساة هاملت أمير الدنمارك» التي تُختصر كثيرًا إلى هاملت (Hamlet)، المسرحية التراجيدية (المأساويَّة) الشهيرة لـ «شكسبير»، والتي كتبها بين عامي 1599 ـ 1602، حيثُ تقعُ أحداثُها في الدَّنمارك حولَ قصة انتقام الأميرِ «هاملت» من عمه «كلوديوس» الذي قتل أخاه (والد هاملت)، وتزوج من أرملته (والدة هاملت) مستوليًا على عرش الدَّنمارك. وتُعدُّ «هاملت» أطول مسرحيات «شكسبير»، وواحدة من أكثر الأعمال الأدبية قوَّةً وتأثيرًا وإلهامًا على مرِّ التَّاريخ. [المترجمة]

9

عشتُ أكثرَ ضياعًا مِنْ الرِّيحِ
في أرضٍ لا ينمو فيها زرعٌ

أيُّها المُسرعونَ!
عرجُ قدمي
كانَ مِنْ عدمِ استواءِ طريقِكم

10

تعالي لنذهبَ يا حبيبتي الوحيدةُ!
امسكي يدي!
حديثي لَمْ يكنْ بسببِ وجعِهم
بل كانوا همُ الوجعَ نفسهُ!

هؤلاءِ هم الوجعُ
جعلوا ذواتِهم جراحاتٍ تتقيَّحُ،
فلو شُنَّتْ حربٌ وهكذا بالجُّروحِ والفسادِ والسَّوادِ
يشدُّون بأوزارِهم بالحقدِ عليكَ أكثر

تعالي لنذهبَ يا حبيبتي الوحيدةُ!
لنذهبَ!

واحسرتاه!
جعلوا خَطواتي تمشي مَع اليأسِ والرُّعبِ
وقدمًا بقدمٍ مع هذا اليقين سنبتعدُ عنهم،
ونكشفُ زيفَهم، وندركهُ!

بأيٍّ حُبٍّ وشَغفٍ
أشرتُ لكِ على نوافيرِ قوسِ القزحِ
على أطلال الحقدِ
التي تخرجُ أغصانَ أشجارها
من قعرِ الجَّحيمِ
وتشيرُ بأصابِعها إلى ذكرى شيطانٍ سَعيدٍ

ويا للحسرةِ!
يا رفيقتي في الهُروبِ
يا مَنْ تسرينَ في شراييني،
عندما علموا براءتي،
عندما حُرقتُ في جحيمِ الظُّلمِ،
كانتْ ذنوبي ـ بعدَ العدِّ ـ أقلَ عددًا مِنْ خطاياكِ!

11

الآنَ سوف أشدُّ رحالي إلى دارٍ سماويةٍ أُخرى
السَّماءُ الأخيرةُ
ونجمُها الوحيدُ: أنتِ.

سماءٌ صافيةٌ،
غطاءٌ بلَّوريٌّ للبُستانِ
وأنتِ زهرتهُ الوحيدةُ،
أنتِ نحلتُها الوحيدةُ،
بستانٌ...
أنتِ شَجرتُهُ الوحيدةُ،
وعلى تلكَ الشَّجرةِ تجلسُ زهرةٌ واحدةٌ: أنتِ.

يا سَمائي وشَجرتي وبُستاني، زَهرتي ونَحلتي وقفيرَ عَسلي!
بهمسكِ، الآنَ، أشَدُّ رِحالي إلى نَومٍ
حلمُهُ الوحيدُ: أنتِ.

12

عطرُ الهَواءِ الرَّماديِّ الذي يدلُّ على قدومِ الصَّباحِ
يقولُ إنَّ الأرضَ حُبلى بيومٍ آخرَ.
هذا الهَمسُ الأبيضُ
هذه الشَّمسُ التي تطلعُ
والنُّجومُ التي تَذوبُ
واللَّيلُ الذي يتقطَّعُ
إلى أجزاءِ ظلالٍ ويتحلَّلُ
وراءَ كلِّ شيءٍ
يبحثُ عَن مأمنٍ له.
ونسيمُ الفجرِ البارِدِ
يشبهُ لمسةً لطيفةً.
حبُّنا قريةٌ لا يأخذها النَّومُ
لا في اللَّيلِ
ولا في النَّهارِ.
وحيويةُ وشغفُ الحياةِ
لا تأفُلانِ فيه للحظةٍ.
حانتِ اللَّحظةُ التي

أرتشفُ فيها أسنانَكِ
في قبلةٍ طويلةٍ
مثلَ شُربِ حليبٍ دافئٍ!

لكي أمسكَ يدكِ بيدي
مِنْ أيِّ جبلٍ عليَّ أنْ أمضي
لأمضي
مِنْ أيِّ صحراءَ
مِنْ أيِّ بحرٍ عليَّ أنْ أعبرَ
لأعبرَ.

النَّهارُ الذي يبدأُ بكلِّ هذا الجمالِ، (عندما ودَّعتُ آخرَ الكلماتِ المُظلمةِ الحزينةِ ليلةَ أمسِ وسلَّمتُها لرياحِ النِّسيانِ).

ليسَ عليه أنْ يَمضي وهو يتحسَّرُ عليكِ
أنتِ نسيمٌ وبرعمٌ وثمارٌ، يا كلَّ فُصولي!
امضي معي كعامٍ جديدٍ
ليبدأَ الخلودُ!

«آيدا في المِرآةِ»

شَفتاكِ
بظَرافةِ الشِّعرِ
تحوِّلانِ أشْهى القُبلِ إلى خجلٍ
يكتسبهُ ساكنُ الكهوف ليصبحَ آدميًا

ووجنتاكِ
بخُطوطٍ مائلةٍ مِنْ الجهتيْنِ،
تحدِّدُ كبرياءَكِ
وقَدري
أنْ أحتملَ اللَّيلَ
دونَ أنْ أتسلَّحَ لأنتظرَ الصَّباحَ

جلبتُ مَعي بفخرٍ عُذريتي البِكرَ
من بيوتِ الدَّعارةِ التِّجاريةِ

لَمْ يقتلْ أحدٌ نفسَهُ بتفجُّعٍ هكذا؛
كما أعيشُ، أنا، في الحَياةِ!
عيناكِ سِرُّ النَّارِ!
وحبُّكِ انتصارُ الإنسانِ
عِندما يذهبُ لمحاربةِ القَدَرِ.

وحِضنُكِ
مكانٌ صغيرٌ للعيشِ
مكانٌ صغيرٌ للموتِ
وللهروبِ مِنْ مدينةٍ بألفِ أصبعٍ وقحةٍ
متَّهِمةً طهارةَ السَّماءِ.

يُخلقُ الجبلُ بالصُّخورِ الأولى
والإنسانُ بأوَّلِ ألمٍ.

كانَ في داخلي سِجنٌ جائرٌ
كنتُ قد تأقلمتُ على نغمةِ أغلالِهِ،
خُلقتُ بأولى نظراتكِ

بالعواصفِ
خلالَ رقصكِ العظيمِ
بكلِّ مَجدٍ
تُعزفُ النَّاياتُ
وأغنيةُ شرايينكِ
طلوعُ شَمسٍ دائمةٍ.

دعيني أخرجُ مِنْ النَّومِ
لأزقةِ مدينةٍ تدركُ حُضوري

يداكِ مُصالحةٌ
تساندُني
لأنسى العَداوةَ مِنْ الذَّاكرةِ
جَبينُكِ مِرآةٌ شَامخةٌ
مُضيئةٌ وطَويلةٌ
لينظرْنَ فيها «الشَّقيقاتُ السَّبعُ»
ليدركْنَ جمالهنَّ.

طائرانِ يغنِّيان بنَفادِ صَبرٍ في صدركِ
الصَّيفُ مِنْ أيِّ طريقٍ سيأتي
ليرويَ ظمأَ الماءِ الشَّهيِّ؟

لكيْ تَظهري في المِرآةِ
حدَّقتُ فيها عُمرًا طَويلاً!
بكيتُ الينابيعَ والبَحارَ فيها
أيَّتُها الملائكيَّةُ في هيئةٍ بَشريةٍ
جسدُكِ لا يحترقُ إلاَّ في دفءِ كبوةِ النِّيرانِ!
حضورُكِ جنَّةٌ
يبرِّرُ الهروبَ مِنْ الجَّحيمِ
البحرُ الذي يغرقُني
ليغسلَ منِّي كلَّ الذُّنوبِ والأكاذيبِ

لتستيقظَ كلُّها بين يديك، فجرًا.

الميعادُ

أحبُّكِ أبعدَ مِنْ حدودِ جسدِكِ

هاتي المَرايا واليرقاتِ المُشتاقةَ
الضَّوءَ والنَّبيذَ
السَّماءَ العاليةَ وقوسَ الجِّسرِ الواسعَ
هاتي
الطيُّورَ وقوسَ القَزحِ
أعيدي الطَّريقَ الأخيرَ
الذي تسدلينَ السِّتارةَ فيهِ
أحبُّكِ
أبعدَ مِنْ حدودِ جَسدي
في ذلك الطَّريقِ البَعيدِ
عندما تَنتهي رِسالةُ الأعضاءِ
ويهدأ اللَّهيبُ والشَّغفُ والنَّبضاتُ والرَّجاءُ

وكلُّ مَعنًى في قالبِ اللَّفظِ يتوقَّفُ

كوني كالرُّوحِ

في نهايةِ السَّفرِ

عندما لا تستسلمُ لنُسورِ نهايتِها

أبعدَ مِنْ الحُبِّ

أحبُّكِ

ما وراءَ السِّتارةِ واللَّونِ

ما وراءَ جسديْنا

حدِّدي موعدَ لقاءٍ مَعي!

الطَّريقُ، عَبْرَ الجِّسرِ

لَمْ تعدْ لي رغبةٌ في السَّفرِ
لَمْ يعدْ لي شَوْقٌ في السَّفرِ

القِطارُ الذي يصرخُ ويعبرُ في مُنتصفِ اللَّيلِ مِنْ قريتِنا
لا يحجبُ سمائي
والطَّريقُ عبْرَ الجِّسرِ
لا يأخذُ أُمنياتي معه إلى آفاقٍ أُخرى
البَشرُ ورائحةُ عالمِهم الكريهةُ
هم جهنَّمُ مطويةٌ في كتابٍ
إنْ قرأتَهُ لُغةً بلُغةٍ وحفظتَهُ
أدركتَ سِرَّ الانعزالِ الشَّاهقِ
وسرَّ البئرِ العميقةِ
مِنْ ابتذالِ العطشِ

فلتغفُ الأمكنةُ والتَّاريخُ

عبرَ جسرِ القريةِ في ذلك الجانبِ

الذي يفغرُ فمهُ في تثاؤبٍ أبديٍّ!

يهدي ضياعَ البحثِ

في منحدراتهِ

لكوخِنا الثَّابتِ

ليهرِّبَهُ إلى منحدرِ الطَّريقِ

لَمْ تعدْ لي رغبةٌ

للسَّفرِ

الحَقيقةُ العقيمةُ

وجِدتْ عيونُ اليَقَظةِ مُجدَّدًا:

كحُلمِ الحياةِ الجميلِ

في نومٍ أعمقِ مِنْ الموتِ

وأبعدِ مِنْ يأسِ الانتظارِ

لتتلوَ نشيدًا فقيرًا مُجَّددًا

والإنسانُ

هبطَ إلى معبدِ تسبيحِهِ

إنسانٌ في أرضِ دهشةِ عينيَّ

في أرضِ دهشةِ يديَّ النَّاسكتيْنِ

إنسانٌ بكلِّ أبعادِهِ

- بصرْفِ النَّظرِ عن قربِهِ أو بعدِهِ -

الذي لا تحتويه زوايا الرؤيةِ

غريبٌ مع طبيعةِ الكونِ

التي تَجعلُ المُشاهدَ

يظنُ سوءًا بسلامةِ عينيهِ

لأنَّ البُعدَ والقُربَ

في عَظمتِهِ

لا يتأثَّرانِ

والنَّظراتِ

في حضرتِهِ

بقانونِ الأزلِ والأبدِ

تقعُ أرضًا

والإنسانُ

عادَ إلى معبدِ تسبيحِهِ

والإنسانُ قد عادَ إلى معبدِ تسبيحهِ

الرَّاهبُ

لا يرغبُ بالسَّفرِ

الرَّاهبُ لا يشتاقُ إلى السَّفرِ.

اللَّحَظاتُ والدَّيمومةُ

مُختارات من 1952 ـ 1961

النَّشيدُ

إلى برويز شابور

ارحلْ، أيُّها الرَّجُلُ اليَقِظُ
لو لَمْ تسلِّمْكَ قلبَها، لا تبقَ لحظةً معها!

كلُّ أيَّامِكَ مضتْ بمَرارةٍ
لا تطلبْ شَهدًا مِن الحَنظلِ!

بحثتَ عبثًا ثمَّ ذبلتَ
وألبستَ جسدَكَ العناءَ

ثوبٌ ممزَّقٌ وبالٍ
تحتَ حريرِهِ ضَغينةٌ

قدمايَ ممزَّقتانِ مِنْ التَّعبِ

لا طريقَ لي للعودةِ أو للمضي

لا فرصةَ للبقاءِ،

لن يحالفَني الحَظُّ لأقعَ في البئرِ

لا خوفَ ولا أملَ مِنْ الماضي والمُستقبلِ

أمامي صحراءُ مغبرةٌ!

ما الغايةُ لو كسرتُ الصَّمتَ؟

إنَّ: «الأصدقاءَ في هذا السَّهلِ تركوني وحيدًا»

أغلقتُ فَمي أمامَ صَرختي

ليحرقَني ألمي وأكونَ رمادًا

ما نفعُ القَبضِ على الصَّاعقةِ

لا لهبٌ - في هذه الصحراءِ - ولا دُخانُ

نهضتُ لأصرخَ

طعنتُ روحَ اللَّيلِ

لَمْ تنقذْني صرختي البتّارةُ
ولا حيَّ بينَ الأمواتِ هنا
ارحلْ، أيُّها الرَّجُلُ اليَقِظُ
لو لَمْ تسلِّمْكَ قلبَها، لا تبقَ لحظةً معها!

امضِ للنَّومِ!
الذِّكرى نهايتُها موجعةٌ

يستولي عليكَ اللَّيلُ لو تنظرُ
ومِنْ دموعِكَ ستخرجُ النُّجومُ

اذا تعفَّنَ اللَّيلُ كجثَّةٍ في هذه الصَّحراءِ المُميتةِ
اذا بقيَ هناكَ أملٌ أيضًا
اغلقْ بابَ العُزلةِ في البيتِ
ستذرفُ الدُّموعَ خشيةَ اللَّيلِ
مثلَ فُرنِ الشَّمسِ
ارحلْ، أيُّها الرَّجُلُ اليَقِظُ
لو لَمْ تسلِّمْكَ قلبَها، لا تبقَ لحظةً معها!

أيُّها الرَّجلُ،
أنتَ تطلبُ الأزهارَ
والطَّريقُ مفروشٌ بالأشْواكِ
تكفي الكلماتُ المَريرةُ لمنْ يطلبُ الخيرَ!

الميلادُ

كانتْ نفحةُ الرِّيحِ البسيطةُ تهبُّ وينسدلُ الحَريرُ الرَّقيقُ لضوءِ القمرِ، وكانَ ليلٌ ونافورةٌ وبستانٌ، وكانَ اللَّيلُ في منتصفِ الرَّابعةِ عندما أتتِ العروسُ الجديدةُ إلى البُستانِ الذي يضيئُهُ القمرُ. كانتْ تفكِّرُ في الدِّفءِ الجَّديدِ الذي يدخلُ في شرايينِ نهديْها الزُّرقِ، وكانَ هذا أشبهَ بدِفءِ التُّرابِ عِندما يتمتَّعُ اللَّيمونُ غيرُ النَّاضجِ فيهِ، وفي عينيْها المُحدِّقتيْنِ في الخُضرةِ والقمرِ ثمَّةَ خجلٌ مِنْ الشُّعورِ بالظَّمأ الغريبِ الذي كانَ يحرقُ جَسدَها، إنَّه ظمأٌ لا يرتوي كظمأ العُشبِ الدَّائمِ، كأخضرَ في الصَّحراءِ. كانتْ خجلةً مِنْ ذكرى، هاربةً عمَّا يحدثُ بِجسدِها، بِجوارِها، غريبٌ مَع الحكايةِ، ورجلٌ غريبٌ حادٌّ مع طُرقاتِ جسدِها وسَريعٌ وفريدٌ، وهكذا بِجشعٍ كانَ يلمسُ جسدَها النَّائمَ، وحركتُه أشبهُ بالنَّسيمِ المُحمَّلِ برائحةِ العُشْبِ عِندما يكشِفُ سِتارَ البراعمِ لتخرجَ البذرةُ الصَّغيرةُ. كانتْ نفحةُ الرِّياحِ بسيطةً، الحريرُ الرَّقيقُ لضَوءِ القَمرِ، نافورةُ البُستانِ بِحركاتِ الأذرعِ الرَّقيقةِ على اليَنبوعِ الصَّغيرِ الرَّاقصِ، والعَروسُ الجديدةُ نامتْ على العُشبِ، في منتصفِ الرَّابعةِ، حينها، بدأتُ بالنُّمو بينَ البَتلاتِ الصَّغيرةِ أو في النَّسيمِ العابرِ، بينما المياهُ العميقةُ ونفحةُ الرّياحِ مع البراعمِ الصَّغيرةِ على جسدِ الشَّجرةِ كانتْ تئنُّ في داخلي، وينابيعُ المَطرِ المُضيء بكتْ في داخلي. كانتْ نفحةُ الرِّياحِ بسيطةً، والحريرُ الرَّقيقُ لضوءِ القمرِ، والعروسُ

الجديدةُ تنامُ في منتصفِ الرَّابعةِ على سَريرِ العُشبِ، وشُعلةٌ مِنْ النَّارِ في داخلِها ورَجُلٌ بِجوارِها... هكذا ارتعشَتْ ولَمْ أكن ورقةً ولا ينبوعًا لا ريحًا ولا مَطرًا، يا روحَ النَّباتِ! كان جسدي مَسجونًا والعَروسُ الجديدةُ، قبل أنْ تَشعرَ بشفتيْ أبي على شفتيها حبلتْ بروحِ الشَّجرةِ والرِّيحِ واليَنبوعِ، في اللَّيلةِ الرَّابعةِ، سجنتُ مدينةً بلا أوراقٍ ولا رياحٍ ولا ذِكرى في داخلي دونَ أنْ تهربَ أيُّ واحدةٍ منِّي، وعِندما ولدتُ فإنَّ عَينيَّ كانتا تُشبهانِ أوراقَ الدَّردارِ وعروقي كسيقانِ اللُّوتسِ، ويديَّ كأغصانِ القيقبِ وروحي تدورُ كالرِّيحِ والينبوعِ، كما المطرُ، كشجرةِ الدَّردار الكبيرةِ مِنْ غَضبِ الرَّعدِ تَقعُ على التُّرابِ... وجعٌ وحشيٌّ كصرخةِ موتٍ تحطَّمتْ فيَّ ـ وأنا أيَّتُها الطَّبيعةُ المُضطربةُ، يا أبي ـ كنتُ ولدَكَ!

هاربٌ

إلى السيدة عاليه جهانگير يوشيج

عبرتُ مِنْ الطَّريقِ الضَّيِّقِ
مِنْ جانبِ قطيعٍ صغيرٍ كذلك.

كان جرسُ العنزةِ النُّحاسيُّ
- بصوتهِ العاري من بعيدٍ -
يرسمُ السَّعيَ والإرهاقَ.

من خلفِ الأدغالِ، حلَّقَ خائفًا الطَّائرُ الحَزينُ،
في الوديانِ الضَّيِّقةِ
موجةٌ هاربةٌ مَذعورةٌ
تحطَّمتْ كإناءٍ من خزفٍ
مِنْ صخرةٍ إلى صخرةٍ أُخرى

مِنْ حجرٍ إلى حجرٍ آخرَ
ومِنْ خلفِ الجِّبالِ،
كنتُ أرى في منحدرِ الوادي المظلمِ
لهيبَ القريةِ التي كانتْ تحترقُ:
حريقُ الطّاحونةِ
حريقُ المَوقدِ
دخانُ التَّنُّورِ
الفوانيسُ في المَعابرِ
بانحدارٍ والتواءٍ.

ثم رأيتُ
أمامي،
منظرَ الجِّبالِ
بطرقِها المُلتويةِ.

قلتُ بشوقٍ:
«أيُّها الجَّبلُ!
حملتُ مَعي إليكَ قلبًا مِنْ الطَّريقِ

بأعماقِهِ حكايةٌ ميِّتةٌ

هناك في القريةِ، لا يحبُّني أحدٌ»

دونَ إجابةٍ منه، قلتُ:

«أيُّها الجَّبلُ!

عذابٌ أنْ تحترقَ

دون التفاتةٍ مِنْ قومٍ موقدُهم عامرٌ مِنِ شَررِكَ

ومنكَ هناك ابتسامةٌ على شفاههم»

دونَ إجابةٍ منهُ

التفَّ الضَّبابُ حولَ الوادي المَتمرِّدِ

مِنْ بعيدٍ،

في اللَّيلِ عندما كانتْ كلابُ القطيعِ تَنبحُ أشباحَ الصُّخورِ بصخبٍ على المُنحدراتِ

كانتْ أعماقُ الوادي تظلُّ صامتةً

مِنْ تغاريدِ القُبَّراتِ والعصافيرِ

تبدو قممُ الجِّبالِ، كالصَّبايا

يغسلْنَ عباءةَ الجوِّ الرَّماديةَ

ـ مِنْ دمِ الشَّمسِ ـ

وتتناثرُ فوانيسُ القَريةِ

في سَماءٍ أُخرى

في الوادي الأسودِ.

عَاصمةُ العَطَشِ

«اطلبْ القليلَ مِنْ الماءِ، تحصلْ على العطشِ!»

ـ الرُّومي

1

الشَّمسُ، نارٌ سَخيَّةٌ
وحلمُ الشَّلاَّلاتِ
ينعكسُ في حدودِ كلِّ نظرةٍ

في كلِّ ثقبٍ
الظِّلالُ
عاهراتٌ هادئاتٌ
أما أنا، فأسعى وراءَ الظّلِ الكبيرِ،
الذي يَروي عطشَ السَّهلِ الجَّافِّ

إنْ كانَ مبكِّرًا أو مُتأخرًا

هنا

في الظَّهيرةِ

إنَّها مَظهرُ «كُن»:

النَّارُ المُشتعلةُ لا لَونَ لها ولا اعتبارَ

بوَّابةُ المُمكنِ مُغلقةٌ أمامَ المَطرِ

الرَّملُ يتحدَّثُ بذُعرٍ عَن «أبدًا»

وعَن قُدسيَّةِ النَّهرِ وسَريرهِ الرَّمليِّ الجَّافِّ

نباتُ الصَّحراءِ عبثًا يبحثُ عَن الظِّلِ

أيُّها اللَّيلُ الظَّامئُ! أين الله؟

أنتَ

يومٌ آخرُ

بلونٍ آخرَ

معكَ

في خلقكَ

الظُّلمُ يتبدّدُ

أنتَ صَداُ الزَّمنِ

2

تركتُ جواركِ

وتحتَ هذه السَّماءِ الحزينةِ، الفارغةِ مِنْ حركةِ الطَّيرِ والهلالِ

معتمٌ، كسمكةٍ ميِّتةٍ تطفو

مثلُ مَسكوكةٍ تحتَ الماءِ

رجعتُ لأبحثَ عنكِ

حتَّى في عاصمةِ العطشِ

في شكلٍ آخرَ

أجدُكِ مجدَّدًا

أيَّتُها المياهُ المُضيئةُ!

أقيسُكِ بمقياسِ العَطشِ

في هذا السَّرابِ

هلْ

قاربُ العَطشِ

هو ما يدفعُني نحوكِ

أمْ همسُكِ

وأنا مأخوذٌ منّي؟

وهمسكِ

هلْ هو ما يدفعُني نَحوي؟

يا نَخلتي، يا واحتي!

في اللُّجوءِ إليكِ

هناك ينبوعٌ عذبةٌ ذكراهُ؛

يُعرِّيني

ما بينَ البَقاءِ والذَّهابِ

ما بينَ البقاءِ والذَّهابِ خَلقنا حكايةً
عُرِضتْ مباشرةً على سِتارةِ الكنايةِ
كانتْ حكايتُنا كلَّ ما نملكُ
ويا للحسرةِ!
تركناها تصبُّ سُدىً في حكايةٍ منسيَّةٍ

لمْ يَبقَ ثمَّةَ ما يُقالُ

إلى Evlin-thamin Bahceban

لم يبقَ ثمَّةَ ما يقالُ
يهبُّ النَّسيمُ بالأملِ،
ولكنْ، لو تهمسُ الألحانُ
في عُزلةِ الصَّحراءِ
في طريقِها
لا
شجرةَ دردارٍ هناك
لم يبقَ ثمَّةَ ما يقالُ
وراءَ الأبوابِ المغلقةِ
اللَّيلُ مليءٌ بالخناجرِ والأعداءِ
جالسٌ بأفكارٍ عوجٍ
بانطفاءِ

السُّطوحِ
تحتَ ضغطِ اللَّيلِ

عوجٍ،
الأزقَّةُ
متعبةٌ مِنْ ذَهابِ اللَّيلِ السَّمجِ وإيابِهِ

لم يبقَ ثمَّةَ ما يقالُ
في عُزلةِ هذه المَدينة،
لا صوتَ غيرَ صوتِ الفأرِ الذي يأكلُ الكَفنَ

وفي هذا المكانِ المُظلمِ
لا شيءَ سوى نواحِ الأراملِ الكئيبِ

لو هبَّ النَّسيمُ
في طريقِهِ
لا
شجرةَ دردارٍ هناك
لم يبقَ ثمَّةَ ما يقالُ

مَلحمةٌ!

في مفترقِ الطُّرقِ، لا يحدثُ شيءٌ
يذهبُ البعضُ
ويعودُ البعضُ متعَبًا

والإنسانُ
ـ بلا شَكٍّ إلهٌ مَجنونٌ قديمٌ ـ
بلا شوقٍ وأملٍ
لأجلِ رغيفَيْ خبزٍ
يبيعُ قَلَنْسُوَةً
في مَعبرِ الزَّمنِ

في الزُّقاقِ
وراءَ علبِ السَّجائرِ
شاعرٌ، أستاذٌ ببداهةٍ كتبَ هذه المَلحمةَ:

« ـ الإنسانُ، هو اللّٰه

هذا ما أعنيه!

إنْ كانَ هذا البيانُ كفرًا أو حقيقةً

الإنسانُ هو اللّٰه

أجل، تلكَ هي كلمتي!»

بإثرِ صوتِ جرسِ دراجةٍ غَبيٍّ

قفزَ الشّاعرُ مِنْ مكانهِ

وانكسرَ رأسُ قلمِهِ!

العابرونَ

جاؤوا مُطأطئي الرؤوسِ مِنْ الطَّريقِ المهجورِ
والتِّلالُ التي كانتْ تغطيها زهورُ الرَّبيعِ
عبثًا كانَ انتظارها كما يزعمونَ

مرُّوا أمامي ببطءٍ دونَ أنْ ينظروا إليَّ
لقد عرفتُهم مجدَّدًا
إذْ كانتْ بحَوزتِهم رسالةٌ مِنْ آبائهم لي

في طريقِ الثمالةِ كانوا يقرأونَ الأدعيةَ
وتحتَ ضوءِ القَمرِ المليءُ بذكرى
عيونِ الصَّبايا المبتسماتِ
كانوا يحدِّقونَ بهنَّ، مِنْ أسرّتِهم الهائجة

ورأيتُ أنَّهم يعلِّقونَ آمالهم على أبوابِ مغلقةٍ كاذبةٍ

ومِنْ خلفهم
الطَّريقُ فارغٌ ومرهِقٌ
كنتُ أعلمُ أنَّهم لنْ يعودوا مِنْ هذا الطَّريقِ مرَّةً أُخرى
كنتُ أعلمُ أنَّهم لنْ يأتوا مِنْ هذا الطَّريقِ مرَّةً أُخرى،
لأن منزلهم الموعود لم يكن سوى سَرابٍ مترنِّحٍ

كنتُ أعلمُ

أخبرتُهم:
«ـ سأقفُ هنا أيضًا
وعندما يعبرُ أولادكم
سأسلِّمُهم رسالتكم»

الجِّبالُ

الجِّبالُ مَع بعضِها لكنَّها وحيدةٌ

مثلنا تمامًا:

معهم ووحيدونَ.

دَوافعُ الانطفاءِ

إذَنْ «آدمُ» ـ أبُ البشريَّةِ ـ نَظرَ إلى ثيابِهِ ونظرَ إلى الأرضِ العاريةِ ونظرَ إلى الشَّمسِ التي تكسو البابَ، وفي تلكَ اللَّحظةِ كانتِ الرِّياحُ البَاردةُ تنغرسُ في التُّرابِ الباردِ، وانتشرتْ روحُ الظُّلمةِ على قالبِ التُّرابِ، وكلُّ ما تبقَّى كانَ صنيعةَ وهمٍ آخرَ. و«آدمُ» ـ أبُ البشريَّةِ ـ نظرَ إلى زوجتِهِ التي كانَ الخوفُ يخيِّمُ في عينيْها، وفي الانطفاءِ نظرَ إليها وحلَّ الظَّلامُ في عالمِهِ.

تلكَ كانتِ المرَّةَ الأولى، على الأرضِ وفي السَّماءِ بقيَ الذي يجبُ أنْ يُروى ولَمْ يروَ بعدُ.

فلمَّا نظرَ «هابيلُ» خلفَهُ رأى «قابيلَ» ووجدَهُ يزأرُ كصواعقِ السَّماءِ ووجدَهُ ملتويًا مثل مياهِ الأنْهارِ والأخُ رأى دمهُ كحجرِ الجَّبلِ باردًا وصلبًا، وأدركهُ ووجدهُ بأفكارٍ سوداء، كالنَّعجةِ مع حَمَلِها خلفها، ووجدَهُ مثلَ طائرِ صيدٍ بمخالبَ مفتوحةٍ، ووجدَ أخاهُ طامِعًا بدمِهِ. نظرَ «هابيلُ» إلى دمِ أخيهِ وكانَ في عينيهِ عجبٌ لا يصدَّقُ، وفي صمتٍ نظرَ إلى «قابيلَ» فتكسَّرتْ في روحهِ مِرآةُ القمرِ بأغصانِها الرَّفيعةِ.

وتلكَ لَمْ تكنْ أوَّلَ مرَّةٍ، في الأرضِ وفي كلِّ الأرضِ، التي تظلُّ فيها الكلمةُ غير منطوقةٍ على الشِّفاهِ. ومِنْ ذلك الحينِ، بقيَ الذي يجبُ أنْ

يُروى ولَمْ يروَ بعدُ ـ لأنّنا ـ أنا وأنتِ ـ في اللِّقاءِ الأوّلِ، عِندما حدَّقنا ببَعضِنا انطفأتْ الأحاديثُ، ومُذّاكَ، كم مِنْ الأحاديثِ غير منطوقةٍ على شِفاهِ البَشرِ حيثُ تحطُّ حمامةُ الصُّلحِ على السُّطوحِ لحظةَ الاعترافِ واللِّقاءِ والوداعِ ـ والقُبلةِ ـ ولحظةَ يلتفتونَ لينظروا خلفَهم؟

بعدَئذٍ، إن لم تُروَ الأحاديثُ كما هي، فثمَّة دوافعُ كثيرةٌ لذلك.

غزلٌ غيرُ مُكتملٍ

على كلِّ وترٍ في روحي هناك مئةُ أغنيةٍ
ويا للحسرةِ! لا يدٌ ضربتْ على وترٍ،
أمضيتُ اللَّيلَ أحلمُ وأتحسَّرُ
انتهى، وليسَ هناكَ من أنامُ بقُربِهِ.

لَيْلِيَّة 12

«ذلك الذي علِمَ الخبرَ، لم يأتِ منهِ الخبرُ»

ـ سعدي

مَنْ عرفَ صمتَ،
ومَنْ تحدَّثَ، لا يعلمُ.

يا لها مِنْ ليلةٍ حزينةٍ!
المُسافرُ الذي شقَّ الظُّلمةَ الصَّامتةَ
وأيقظَ الكلابَ بصوتِ وقْعِ حوافرِ حصانهِ على الحَجرِ
دونَ أنْ يفكِّرَ لحظةً
بأنْ يتوقفَ خلالَ اللَّيلِ،
يبدو
أنَّهُ كانَ في حُمَّى حلمٍ ما...
يا لها مِنْ ليلةٍ حَزينةٍ!

لَيْلِيَّة 13

الآنَ، مرَّتْ ليلةٌ أُخرى
عبرَ مِنْ جانبي بلُطفٍ محمَّلٍ بكلِّ اللَّحظاتِ

كعذراءَ عاشقةٍ
بكلِّ منحنياتِ جَسدِها
مِنْ الشَّعرِ حتَّى الأظفارِ
دونَ لمسةٍ واحدةٍ مِنْ يدِها الحنونةِ
السَّيِّدةُ ذات الجَّديلةِ الطَّويلةِ
لَمْ تعكِّرْ للحظةٍ صفوَ النَّبعِ الذي تدورُ فيه سَمكةُ الحُلمِ
فغطستْ

تبدو كالمعشوقةِ، حدَّقتُ
فيها بشعورٍ مِنْ الخَجلِ

كانتْ تتجنَّبُ الضَّوءَ

قلتُ، أرغبُ في رؤيتها عندَ الفجرِ أمامَ الشَّمسِ

وقتلتُ الضَّوءَ

وعِندما طلعتِ الشَّمسُ

كانتْ قد تكثَّفتْ

كالنَّدى!

أُنشودةُ المَوتِ

الآنَ، موجةُ الوقتِ الثَّقيلةُ، هي التي تعبرُ مِنْ خلالي
الآنَ، موجةُ الوقتِ الثقيلةُ، هي التي تعبرُ مِنْ خلالي
وتبدو كنهرٍ حديديٍّ
الآن موجةُ الوقتِ الثقيلةُ، هي التي تعبرُ مِنْ خلالي
وتبدو كبحرٍ مِنْ الفُولاذِ والحَجرِ

في معبرِ الرِّياحِ بدأتُ أغنِّي نشيدًا مغايرًا
في معبرِ المَطرِ بدأتُ أغنِّي نشيدًا مغايرًا
في معبرِ الظِّلِ بدأتُ أغنِّي نشيدًا مغايرًا

كانَ اللُّوتسُ والمطرُ فيكِ
الخَنجرُ والصَّرخةُ فيَّ
اليَنبوعُ والحلمُ فيكِ
والمستنقعُ والظَّلامُ فيَّ

فِي معبرِ الرِّياحِ بدأتُ أغنِّي نشيدًا مغايرًا
غنَّيتُ الورقةَ باخضرارٍ
أكثرَ مِنْ الغابةِ

غنَّيتُ الموجةَ بنبضٍ
أكثرَ مِنْ الإنسانِ

غنَّيتُ الحُبَّ بصخبٍ
أعلى مِنْ الموتِ

أكثرَ اخضرارًا مِنْ الغابةِ
غنَّيتُ الورقةَ

أعلى مِنْ قلبِ البَحرِ
غنَّيتُ الموجةَ

أكثرَ صخبًا مِنْ الحياةِ
غنَّيتُ الموتَ.

الوِصالُ

1

أمامَ فضاءٍ لانهائيٍّ ساكنٍ
حركةُ وريقةِ زهرةٍ صغيرةٍ
كانتْ تشبه الفراشةَ

قامَ الزَّمنُ بخطوةٍ سريعةٍ
وهامَ في العَدمِ
في البُستانِ الجَّافِّ
معجزةُ الوصلِ
خلقتْ ربيعًا

السَّرابُ الظمآنُ
صارَ نبعًا زُلالاً،
والعصافيرُ تلامذةُ القُبَلِ
رقَّصوا الفرحَ في جفافِ البُستانِ

2

الآنَ! العينُ النَّجيبةُ
يندبُ فانوسُ دَمعِها
قَدرَ رجلٍ وحيدٍ
كانَ يبتسمُ في الظَّلامِ
هذا أنا أُهيمُ بضياعي
إلى قمَّةِ «الجُلجلة»
ها أنا
أستلُّ بأسْناني مِنْ كفَّيَّ
المساميرَ التي صَلبتْني
هذا أنا
أضعُ قَدمي على صَليبٍ مقلوبٍ
بقامةٍ شاهقةٍ، كصرخةٍ.

3

نزلتْ في بلادِ الحسرةِ، معجزةٌ
(وتلكَ بحدِّ ذاتِها معجزةٌ)

صرختُ:
« ـ أيُّها المُسافرُ!
كنتُ أحبُّ سَلاسلَ قَدري كثيرًا
أين ذهبَ مَنبعُ العَداءِ؟
ماذا كان عليَّ أنْ أفعلَ بِهم؟»

« ـ لا تؤاخذْهم!»
قالَ ذلك وفعلتُ هذا
نزلتْ طبقةٌ ثقيلةٌ
البِركةُ العكرةُ
أصبحتْ زُلالاً

وهمسُ الحَصى

أضاءَ

في عمقِ الزُّلالِ

أسنانُ الغَضبِ

أصبحتْ بسمةً جميلةً

العذابُ القَديمُ

ضحكَ كلَّ ضَغائنهِ

بقدمٍ مَجدورةٍ

وطأتُ مروجَ الشَّمسِ

دونَ أنْ أحملَ ضَغينةً على ليلةِ الخِصامِ

4

كلاَّ، لَمْ أصدِّقْ اللَّيلَ قطُّ
لأنَّني
خلفَ دهاليزِهِ
كنتُ متأمِّلاً بنافذةِ الأملِ

5

مَجدٌ يشتعلُ في روحي

أبدو كمن شربَ قدحَ هواءٍ نقيٍّ من قِممِ الجِّبالِ

في مسافةٍ ما بينَ النُّجومِ

أبسطُ يدي وأرقصُ بشغفٍ

تعالْ أيُّها المجنونُ

لمُشاهدتي!

لَيْلِيَّة 14

إلى گوهرمراد

الأزقَّةُ ضَيقةٌ
الحوانيتُ مُغلقةٌ،

البيوتُ مُظلمةٌ
الأطواقُ مُهشَّمةٌ،

وقعتْ مِنْ الأصواتِ
القيثارُ والأوتارُ

ينقلونَ أمواتًا
مِنْ زقاقٍ لآخرَ

انظرْ!

موتى لا يشبهونَ المَوتى

بل لا يشبهونَ الشَّمعَ المُنطفئَ

إنَّهم شكلُ فانوسٍ لو انطَفأَ

ليس لنفادِ النفطِ

فالكثيرُ مِنْ النفطِ فيه

أيها النَّاسُ!

ليسَ لديَّ مزاجٌ

لا أتأمَّلُ في «الجَيِّدِ»و لا أشكو مِنْ السَّيِّءِ

رغم أنِّي لَمْ أبتعدْ

عنْ الآخرين

لكن ليسَ لي شأنٌ بهذهِ القافلةِ!

الأزقَّةُ ضَيقةٌ

الحوانيتُ مُغلقةٌ،

البيوتُ مُظلمةٌ
الأطواقُ مُهشَّمةٌ،

وقعتْ مِنْ الأصواتِ
القيثارُ والأوتارُ

ينقلونَ أمواتًا
مِنْ زقاقٍ لآخرَ

«آيدا»: الشَّجرةُ والخَنجرُ والذِّكرى

1965 ـ 1966

لَيْلِيَّة 15

لقد رأيتُ المَوتَ
في لقاءٍ حَزينٍ،
وطحنتُهُ بيديَّ

لقد عشتُ الموتَ
غنَّيتُهُ بصوتٍ حَزينٍ
حزينٍ جدًّا
ولِعُمرٍ طويلٍ وصَعبٍ، صَعبٍ ومدمِّرٍ

آهِ، دعوني! دعوني!
لو كانَ المَوتُ
تلك اللَّحظةَ الوشيكةَ،
عندما تتوقَّفُ عَن النَّبضِ
تلك السَّاعةَ الحمراءَ

والشمعةَ - في معبرِ الرِّيحِ -
لا تتأمَّلْ
بينَ الوجودِ والعَدمِ!
طُوبى لتلكَ اللَّحظةِ
كأنثى
بأسعدِ رغبةٍ أضمُّها إلى جَسدي
حتَّى القلبُ بتهاونٍ يتوقَّفُ عَن العملِ
ونظرُ العينِ
يحدِّقُ
بالفراغِ الأبديِّ
والجسدُ
يُعطَّلُ!

يا للوجعِ!
يا للوجع أنَّ الموتَ
ليسَ موتَ شَمعةٍ
ولا توقُّفَ ساعةٍ،
ولا راحةَ أحضانِ امرأةٍ

تسترجعُها في العودةِ الأبديَّةِ،
وليسَ ليمونةً طازجةً تَمتصُّها
وتتخلصُ مِنْ بقاياها:
إنَّه تجربةٌ حزينةٌ
حزينةٌ جدًا لسنواتٍ وسنواتٍ
عندما يحيطُ بكَ أجملُ الأمواتِ
أو المقرَّبونَ الذين يحتضرونَ
إنَّهم يربطونكَ بهم
بأغلالِ الهُويَّاتِ الرَّسميَّةِ.
أوراقُ الهُويَّةِ
أوراقٌ مثقِلةٌ
مِنْ الطَّوابعِ والأختامِ والحبرِ
ـ عندما تكونُ حولكَ فكوكٌ لا تتوقفُ لحظةً عَن المَضغِ دونْ أنْ يكونَ في كلِّ الأصواتِ صوتٌ تعرفهُ ـ
عندما لا تجتازُ الأوجاعُ الحسدَ الحقيرَ
وكلُّ الأسئلةِ تقفُ في محورِ الأمعاءِ
أجلُ الموتُ، انتظارٌ مخيفٌ
انتظارٌ طويلٌ غيرُ رؤوفٍ

إنَّه مسخٌ موجِعٌ

يرفعُ سيفَ «المَسيحِ» السَّاكنِ في يَدِه

في أزِقَّةِ الشَّائعةِ

مدافعًا عن براءةِ أُمِّهِ

ويدفعُ «بوذا»

بصُراخِ شوقٍ وهلاهيلَ

لارتداءِ ثيابَ الجُنديِّ المَقدَّسةَ

أو «ديوجين» (1)

بياقةٍ عَاليةٍ وجَزمةٍ لمَّاعةٍ

مُبتهِجًا يذهبُ لمَأدبةِ «إسكندرَ»

لقد عشتُ الموتَ

غنَّيتُهُ بصوتٍ حزينٍ

حزينٍ جدًّا

ولِعُمرٍ طويلٍ وصَعبٍ، صَعبٍ ومدمِّر.

---

(1) عاش الفيلسوف «ديوجين» ما بين القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، ويُعتبر من أبرز رواد المدرسة الكلبيَّة الأوائل. عاصر «الإسكندر الأكبر»، واختار أن يعيش حياةً غريبةً وآمنَ بفلسفةٍ خاصَّةٍ. لقد كان حكيمًا فاضلاً متقشِّفًا بتطرُّفٍ، لا يقتني شيئًا ولا يأوي إلى منزل. [المترجمة]

لَيْلِيَّة 16

قليلٌ مِنْ السُّوءِ في ذاتكَ
قليلٌ مِنْ السُّوءِ في ذاتي
قليلٌ مِنْ السُّوءِ في ذواتنا،
ولعنةٌ أبديَّةٌ تحلُّ على سُلالةِ البَشرِ.

خريرُ مياهٍ مِنْ كلِّ مِيزابٍ على الطَّريقِ،
ـ حتَّى لو كانَ مَكانًا مُنعزلاً للقاءِ العُشَّاقِ ـ
حسبُ المدينةِ أنَّها لا تركدُ في مستنقعٍ آسنٍ!

لَيْلِيَّة 17

كنَّا صبورينَ

وحدَها، هذه الكلمةُ، قادرةٌ على أنْ تصفَنا

كنَّا صبورينَ

مثل صبرِ برميلٍ وضِعَ على الطَّريقِ،

وبصمتٍ مُوجعٍ يرى كيفَ أصبحَ مكبًّا للنِّفاياتِ

وموضعَ بهجةٍ مُبتذلةٍ للقِططِ والكلابِ السَّائبةِ

وأنوفِ المارَّةِ، كذلك، عندما يعبرونَ مُسرعينَ مِنْ جانبِهِ

ويرمونَ مناديلَهم القذرةَ فيهِ!

أيّها المحتضرونَ

ما مِنْ أملٍ وقحٍ

يدورُ في شرايينكم

أنا لا أتحدَّثُ عَن زوالِ الكلمةِ

(أو عَنكم يا فاتحي الزوالِ

يا مَنْ تفرزونَ وراءكم

أهوالَ قرنٍ بهذا التلوُّثِ والخَيبةِ والنِّفاقِ كما تفرزُ الكلبةُ رائحتَها الحادَّةَ)

أنا أتحدَّثُ عَن ذلك الأملِ الهَزيلِ

الذي يؤجِّلُ إنقاذَكم مِنْ الموتِ

إلى اليومِ، أو الغدِ:

«المُسافرُ الذي تجلسونَ آملينَ عودتَهُ،

كيفَ لكمْ أنْ تَعرفوا...

ربَّما أنسحبَ مِنْ مُنتصفِ الطَّريقِ؟!»

لَيْلِيَّة 18

الوَيلُ للإنسانِ
الذي اعتادَ على وجعِ قُرونهِ
الوَيلُ!

كنّا نَجهلُ كَم صرخنا
في الأزقّةِ المليئةِ بأنْفاسِ الثَّورةِ

قامتِ الآلهةُ مِنْ أماكنها،
وأصبحَ الإنسانُ مَنشأَ السِّحرِ الذي يقدِّمُ أجملَ البُطولاتِ، بعري دمهِ.
الوَيلُ للإنسانِ الذي اعتاد وجعَ قرونهِ!

بِهيَجانٍ مرتعشٍ
كهديلِ الحَمامِ للتَّزاوجِ
صَرخنا باسمِ الإنسانِ

وازدهَرنا
كزهرةِ دوَّارِ الشَّمسِ
حينَ تفتحُ فمَها للشَّمسِ
هكذا صرخَنا بازدهارٍ

لكنَّ الإنسانَ، يا للويلِ!
اعتادَ وجعَ قرونهِ

الأقدامُ في الأغلالِ والجسدُ عارٍ
كان ينظرُ إلى سَعينا
كنظرةِ حكيمٍ
لمجموعةِ مَجانينَ
فَرحينَ وغافلينَ في عريِّهم

في معركةٍ نهايتُها حتميةٌ
وبدايتُها كانَ لابدَّ أنْ
تكونَ مثارَ شَكٍّ
ما كنَّا نملكُ درعًا غير عُري أرواحِنا

وهذا العريُّ أشبهُ بأصبعِ إشارةٍ نحو العدوِ
حتَّى سهامُ غضبهِ
تفقعُ صرخةَ ألمِنا
كالدُّمَّلِ المتقيِّحِ،
أوَّاه! الجحيمُ أيضًا
عندما يدخلهُ الخِداعُ
سيغوي أكثرَ
بُغضًا بِغَوايةِ الجَنَّةِ!

كنَّا نظنُّ أنَّ الفجرَ الملوَّنَ
ـ عندما نضعُ خطواتِنا على أرصفةِ اللَّيلِ ـ
سوف يزدهرُ بقُبلةٍ
على دمِنا المترقِّبِ

والرِّفاقُ تساقطوا واحدًا تلوَ الآخرِ
(لأنَّ الإنسانَ، يا للويلِ!، اعتادَ وجعَ قرونهِ)

وانمحتْ أسماؤهم

مِنْ الذَّاكرةِ
ـ ربَّما فقط في زاويةِ دفترٍ (البعضُ يؤمنُ بهذا!) ـ
لأنَّ الإنسانَ، يا للويلِ!، اعتادَ وجعَ قرونهِ.

في الظَّلامِ حيثُ يكونُ الشَّيطانُ والـلهُ بنفسِ الهَيئةِ
لنْ أكررَ تلك الصَّرخةَ الهزَيلةَ

المَذاهبُ ليستْ سِوى أعذارٍ للنِّزاعِ
على كرسي السُّلطةِ
والإنسانُ، يا للويلِ!، اعتادَ وجعَ قرونهِ.

يا رفيقتي، نظرتكِ فجرٌ آخرُ
أكثرُ إشْراقًا مِنْ الفجرِ الذي في حلمي
فجرٌ برثاءِ رفاقي جَفَّ في دَمي
وانغمسَ في ظلامِ الحقيقةِ
أرضُ اللهِ مسطَّحةٌ
والحبُّ
بلا كبوةٍ،

هذا لأنَّ الجحيمَ المَوعودَ
قد بدأ
فلتكنْ قُبلاتُنا الأولى،
تذكارًا لتلك القُبلاتِ
التي وضعها رفاقُنا بشفاههم الحُمرِ
إثرَ جروحهم على أرضِ النُّكرانِ

حبُّك عزائي الوحيدُ،
يا فزعي مِنْ هذا القَطيعِ النَّاكرِ؛
لو متُّ دونَ أنْ أعرفَكِ!

لَيْلِيَّة 19

وأنتُم ولِدْتُم في تلك السِّنين البعيدةِ

ـ إذْ كانَ لا يزالُ ثمَّةَ «عالمٌ» لَكم و«كتابٌ» تقرؤونَ فيه قَصيدتي!

لا تلعنوا روحي، ولا تشتموها لو كنَّا مصدرَ دَمارِ هذه المعمورةِ التي أسمها الدُّنيا!

سَعينا أنْ نطرقَ بِمطرقتِنا على النَّواقيسِ والأواني،

على سكاكرِ الأطْفالِ

وعلى جماجمِ أهلِ السِّياسةِ الفارغةِ

الذينَ يرتدونَ ملابسَ رسميَّةً،

سَعينا مِنْ دهليزِنا المُغلقِ

نَفتحُ نافذةً على العالمِ،

كنَّا نحملُ آمالاً كبيرةً

وحسرةً على عَصرِنا

الذي ولِدَ فيه الأطفالُ مَوتى!

فإذا لَمْ تعدْ لدينا القدرةُ على المَشي

هذا لأنَّ حرَّاسَ القلعةِ

أخبَرونا

إذا أردْنا البقاءَ على هذه الأرضِ

فعلينا عقد صفقة مَع الشَّيطانِ!

لَمْ يكنْ مجيئنا محسوبًا

ولا بقاؤنا خيارًا

وضعتْ امرأةٌ المرآةَ بضَجرٍ وبرودٍ على الرَّفِّ

جميعُنا عذارى حواملُ:

دونَ أنْ تزهرَ أثداؤنا مِنْ ربيعِ رجلٍ

جَرحُ أشواكِ الأزهارِ ووقعُ الفأسِ

كانَ موجعًا على روحِ يسوعِنا الحزينِ

لذلك صرخَنا؛

لأنَّ ذكرياتِ أمومتِنا تعفَّنتْ.

وصرخةُ شهيدِهِم

عندما عُلِّقَ على صَليبِ الجَّهلِ، قال:

«أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ!»

لَيْلِيَّة 20

زمنُ عظمةِ ناطحاتِ السَّحابِ والكذبِ.

زمنُ القَطيعِ الكبيرِ الجائعِ
وأهوالِ وحشةِ الصَّمتِ

عندما يذهبُ قطيعٌ هائلٌ مِنْ البشرِ إلى أفواهِ
أفرانِ الحَرقِ
(والآن إذا رغبتَ
تستطيعُ بصرخةٍ
تمزِّقُ حنجرتَكَ:
الجِّدارُ مصنوعٌ مِنْ الخرسانةِ المسلحةِ!)

زمنُ الحياءِ والحقِّ
حسابُهم معزولٌ،

والحبُّ
سوءُ فهمٍ
يُنسى بمفردةٍ: «آسف»!
(عندما تُرْفعُ القبعةُ بتهذيبٍ
وبكياسةٍ تبتسمُ،
ووراءَ الأشجارِ
تمسحُ دموعك بِالمنديلِ)

زمنٌ فيهِ
فرصةٌ مثيرةٌ
رؤيةُ مُدانٍ مشنوقٍ،
فجرٌ رخيصٌ مبتذلٌ ومنحطٌّ
مبادئُ كثيرة باتتْ مُجرَّدَ ذكرى:
(بعد هذا، بسبعةَ عشرَ يومًا
التقيتُكِ لأوَّلِ مرَّةٍ يا حبيبتي!)

إنَّه ليسَ وهْنًا كبيرًا ولا ذُروةَ خزيٍ
إنَّه سياحةٌ وجهدُ التَّسلُّقِ نحوَ مكانٍ أفضلَ:

(مِنْ فوقِ سَقفِ السَّيارةِ
يمكنُ رؤيتِهِ وهو ينازعُ
أفضلَ مِنْ مُشاهدتِهِ مِنْ الغُرفِ في البلديَّةِ)
المَذمَّةُ وتناولُ حَبِّ الشَّمسِ
بانتظارِ رفعِ السِّتارةِ
بمصاحبةِ جنازةٍ
تهمةُ صاحبِها الوحيدةُ: أراد أنْ يعيشَ
قبلَ أنْ يموتَ!

زمنُ أقذرِ الأسْنانِ في ضِحكةٍ،
والنَّحيبِ الأصيلِ
في اليأسِ.

زمنُ أيدٍ
لا تصنعُ القَدرَ
ولا الإرادةُ
تأخذكَ إلى مكانٍ.

زمنُ ضمانِ عملكَ
ثمنُ الشَّاي الذي تضعهُ في جيبِكَ
مقابلَ قدرتِكَ، مِنْ السَّماسرةِ والرؤوساءِ
ومثلُ هذه المواضيعِ
يضعُ المدينةَ في هيئةِ غَزلٍ
وتقفيةِ أبياتٍ
وتناغمِ مصارعَ
وبناءِ سُلَّمٍ هو في حدِّ ذاته شعارُ التَّعالي،
تعبرُ مِنْ بين كلِّ الصُّخورِ والسُّهولِ
إلى طريقِ البَحرِ
تَمرضُ مِنْ لقاءِ الأوباشِ والمبتزِّينَ
لتجلسَ في زورقِ يقينِ أشخاصٍ لا يتردَّدونَ أبدًا
ويذبحونَ البشرَ بمهارةٍ عاليةٍ
كخطَّاطِ مدرستِنا بثيابهِ الرَّثَّةِ
عندما يُبري الأقلامَ
في حانوتِ كُفرهِ
يمكنُ شراءُ كلِّ شيءٍ مقابلَ عملةٍ معدنيةٍ
زمنُ الأمامِ والخلفِ،

حيثُ الجّنرالاتُ
يموتونَ تمامًا
دونَ أعذارٍ
والرِّجالُ الذينَ يكرهونَ الحَربَ
بصدورٍ ممزَّقةٍ
وجِلدٍ ككيسٍ مليءٍ بالرَّصاصِ
زمنٌ، رجالِ العِلمِ فيه أرسلوا إلى أعماقِ الرَّبِّ
الحزنَ والأسَى بالصَّواريخِ
وتسوَّلوا خبزَ يومِ أولادِهم
مِنْ الثَّكناتِ،
والسجونُ مليئةٌ بعقولٍ
تعتبرُ الزِّيَّ الموحَّدَ زيفًا
هذا لأنَّ رسالةَ البشرِ
لَمْ تكنْ هذه أبدًا
لَمْ تكنْ هذه أبدًا!
زمنٌ، الإنسانُ فيه مهانٌ
وميِّتٌ
بفرصةٍ ضئيلةٍ للاحتضارِ

وإنَّه بعيدٌ جدًّا عمَّا يليقُ به

أبعدُ مِنْ الأفقِ

ففي زمنٍ كهذا الزَّمنِ العظيمِ

حيثُ رحلةُ جلبِ الخُبزِ إلى طاولةِ الطَّعامِ

صعبةٌ مثل ابتكارِ اسمٍ!

لَيْلِيَّة 21

واحسرتاه!

على الوادي الأخضرِ وشَجرةِ الجَّوزِ القديمةِ،

وشَدْو النَّهرِ السَّعيدِ

عندما غطستِ القريةُ في النَّومِ على جانبيْ الماءِ المُغنَّى مساءً،

ورجاءُ الأجسادِ المَحمومةِ

كانَ يُحرِمُ الآذانَ أنْ تسترقَ السَّمعَ داخلَ أيٍّ كوخٍ

وحرصُ رجلٍ وحياءُ امرأةٍ

كان يحوِّلُ السَّمرَ

إلى همساتٍ هادئةٍ

وطيورُ اللَّيلِ

كانتْ تغرِّدُ وتعيدُ صَدى تغاريدها.

واحسرتاه! مِنْ القمرِ

واحسرتاه! مِنْ الضَّبابِ

كانا يحجبانِ عنَّا منظرَ الجِّبالِ والغاباتِ المغطَّى بِستارةٍ مِنْ الشَّكِّ
بينَ أنْ تكونَ أو لا تكون.

واحسرتاهُ! مِنْ شغبِ المَطرِ
ربَّما حجبَ بقطراتِهِ المُنهمرةِ
رؤيةَ الوادي.

واحسرتاه!
على عُزلةِ اللَّيالي التي قضيناها مستيقظينَ
حتى مطلعِ الفَجرِ
نجلسُ على حوافِّ الوادي
نَرى مُخملَ أراضي الأرزِ
كذكرى مَنسيةٍ
نبدأ شيئًا فشيئًا بتذكُّرِها
ونستعيدُ ألوانَها مِنْ اللَّيلِ المُملِّ،
بينَ الصُّلحِ والخِصامِ،

واحسرتاه على «بامداد» [1]

كيف غادرَ الواديَ الأخضرَ وعادَ إلى المدينةِ مجدَّدًا،

ففي زمنٍ كهذا الزَّمنِ العظيمِ

حيثُ رحلةُ جلبِ الخُبزِ إلى طاولةِ الطَّعامِ

صعبةٌ مثل ابتكارِ اسمٍ!

(1) بامداد: لقبُ «أحمد شاملو» الشِّعريُّ، وله تأويلٌ آخرُ بمَعنى الفَجرِ أو مَطلعِ النَّهارِ. [المترجمة]

لَيْلِيَّة 22

أحبُّها
لأنّني أعرفُها
بوحدانيةٍ ومحبَّةٍ

ـ كلُّ المدينةِ غربةٌ وعداوةٌ ـ

عندما آخذُ يديها الحنونتينِ بيدي
أدركُ وحدةَ حزنِها

حزنُها، غروبٌ شَجيٌّ
في الغربةِ والوحدةِ

كما أنَّ فرحَها
طلوعُ كلِّ الشُّموسِ
والإفطارُ

والخبزُ السَّاخنُ،

ونافذةُ الصَّباحِ

تشرعُ أبوابَها

على الهواءِ النَّقيِّ،

ونضارةُ المزهرياتِ

أسفلَ الحوضِ.

يمكنُ أنْ يغمرَها الفرحُ

بنبعِ ماءٍ

فراشةٌ وزهرةٌ صَغيرةٌ

ويغمرها يأسٌ بريءٌ

عندما تَعرفُ أنَّ (بامدادِها)

لَمْ يكتبْ قصيدةً جديدةً

وعندما أقولُ: «سأكتبُ، اللَّيلةَ، قصيدةً»

بشفتيْنِ مبتسمتيْنِ تغرقُ في نومٍ هادئٍ

كحصىً في البحيرةِ

كـ «بوذا»

في «نيرفانا»

وفي تلكَ الأثناءِ
تشبهُ فتاةً صغيرةً
تحضنُ دُميتها المفضَّلةَ
لو قلتُ إنَّ السَّعادةَ
حادثٌ عَن طريقِ الخَطأ
سيغطِّيها الحزنُ كلُّها
كالبحيرةِ والحَصاةِ
كـ «نيرفانا» و«بوذا»
لأنَّها لَمْ تعرفْ السَّعادةَ إلاَّ في مملكةِ الحُبِّ
حبٌّ لا يعرفُ سِوى الوضوحِ
على وجهِ حياتي
عندما الحزنُ يحفرُ جروحًا بالغةً عليه
«آيدا»
ابتسامةٌ مغفِرةٍ
في البدءِ
حدَّقتُ فيها لفترةٍ طويلةٍ
وعندما التفتُّ عنها صارَ كلُّ شيءٍ على شاكلتِها
حينها، فقط، عرفتُ ألاَّ مفرَّ مِنها!

لَيْلِيَّة 23

أنوي إيذاءَكم!
لو هكذا بجنونٍ
أحدِّثُكم عَن نَصري،
- بثمالةٍ وصراحةٍ -
لا فكرةَ في رأسي سِوى إيذائكم!

الآنَ، تحتَ نَجمةٍ بعيدةٍ
فوقَ سطحٍ عالٍ
حيثُ يغنِّي طائرُ اللَّيلِ،
الآنَ بعدما انفصلتِ الأجسادُ عن بعضِها
والحَقيقةُ عن حلمِها،
وخوفًا مِنْ العاصفةِ
هربَ العبيدُ
إلى طَرْقِ بواباتِ أسيادهم مجدَّدًا

وزهرةُ دوَّارُ الشَّمسِ بلونيْنِ
صارتْ تطلبَ الظَّلامَ ليلاً
وكانوا يَزِنُونَ النَّاسَ
مثل التَّمرِ والعدْسِ
بميزانِ الذَّهبِ،
وكلَّما رجحتْ كفَّةٌ
زادتْ الثَّروةُ
اللاَّنهائيَّةُ،
كانوا يقيسونَ الشَّجاعةَ بالذَّهبِ الذي قمتَ بتخزينِهِ -
الآنَ حينَ أصبحَ الدِّينُ
مجرَّدَ ذكرى
أو كتابٍ في مكتبةٍ،
والصَّديقُ
سُلَّمٌ
يمكنُ أنْ تتسلَّقَ كتفيْهِ لتخرجَ مِنْ الحُفرةِ
ومفردةُ الإنسانِ
تعويذةُ إحضارِ الوحْشَةِ
والتَّفكيرُ بها كابوسٌ يُختمُ بأحلامِ المجانين،

وأنتم!

أعتبرُ

حكايةَ سعادتِكم

ليستْ سِوى عذابِ أرواحِكم غيرِ المدرِكة!

لَيْلِيَّة 24

لا قرابةٌ مع نبتةِ الصَّحراءِ
ولا وصالٌ

رغمَ وجعِ النُّموِّ والتَّجذُّرِ مَعي
والخوفِ مِن العُقمِ

في هذا الموقدِ الكئيبِ
أضعُ قَدمي كما تضعُ الشَّجرةُ العَجوزُ
جذورَها في ضيقِ الوادي

وجذوري الفولاذيَّةُ في ظلامِ الصَّخرِ
تقصدُ سَفرًا أبديًّا قاسيًا

موتي ليسَ سَفرًا

ولا هجرةً

لا أحبُّ البلادَ بسببِ جُبنائها

ومنذ متى وضعتم الإيمانَ هكذا بيدِ النَّاسِ

ليسَ لديَّ جناحانِ لأُحلِّقَ بهما

لكنْ، لديَّ قلبٌ وحَسرةُ الكراكي

حينَ تجدِّفُ الطُّيورُ المُهاجرةُ بأجنحتها

في بَحيرةٍ مقمرةٍ

طوبى لها وبوركَ تَحليقُها وذهابُها!

حلمٌ آخرُ

لمستنقعٍ آخرَ!

طوبى للمستَنقعِ القادمِ!

طوبى للشَّاطئ القادمِ!

وللبَحرِ القادمِ!

طوبى للتَّحليقِ، طوبى للنَّجاةِ،

طوبى، إذا لَمْ تَكنْ قد عشتَ حُرًّا، ومتَّ حُرًّا!

آهِ، هذا الطَّائرُ
في ذلكِ القفصِ الضَّيِّقِ
لا يغرِّدُ.

غريزتكم، باتِّساعِ السَّماءِ
حتَّى قبلَ أنْ يخلقَ اللهُ النَّجمَ والشَّمسَ

ابتعتم كلَّ العبيدِ
العُبُوديَّةُ
إشارةٌ لِلزَّوالِ والدَّمارِ،

والآنَ حيثُ الانتصارِ
تتصافحونَ
بألاَّ تنتموا إلى قَبيلةِ العَبيدِ (طوبى لَكم!)

وتحسبونَ التِّجارةَ بالبشرِ عارًا!
ومنذ مَتى وَضعتم اللهَ

هكذا بيدِ النَّاسِ؟
رغمَ أنَّ لا أغلالَ بقدميَّ
حُرقةُ نشيدِ الأسْرى مَعي،
رغمَ أنَّ لا أملَ في نَجاتي
لكنَّ يدًا تَمسحُ دُموعي
وإنْ لَمْ تَكنْ هناك بِشارةٌ
فثَمَّ عزاءٌ لي!
وأمامَ إرثِ محنِ المصائبِ
الحبُّ،
وحدَهُ الحبُّ عزائي
بهِ رَجَحتْ كفَّةُ الميزانِ
إلى الغدِ.

لَيْلِيَّة 25

النَّهرُ يكرِّرُ قَصيدةً صباحيةً
في دِلْتا اللَّيلِ

والنَّهارُ يبدأُ
مِنْ آخرِ نفسٍ في اللَّيلِ المليءِ بالتَّرقُّبِ
والآنَ الفَجرُ
يُضعفُ ضياءَ سِراجي على الرَّفِّ
لكيْ يوقظَ الطُّيورَ الملوَّنةَ الأصيلةَ
في نقوشِ السِّجَّادةِ مِنْ نومِها الطَّويلِ
كأنَّ شَمسًا متسامحةً أشرقتْ في دَمي!

هنا حيثُ محرابُ المذهبِ الخالدِ
فيه العابدُ والمَعبودُ والعِبادةُ والمَعبدُ

لهم صورٌ متساويةٌ:

العبدُ يَعبدُ ربَّه

مثلَما يعبدُ الرَّبُّ عَبدَهِ

كلُّ الأوراقِ والرَّبيع

على رؤوسِ أصابعكِ

الهواءُ الغزيرُ يحترقُ في فضةِ أصابعكِ

وزُلالُ اليَنابيع

تُروى مِنْ مَطركِ وشمسِكِ

قولي أجملَ ما لديْكِ

«اكشفي تعذيبَ صمتِكِ الخَفيّ»(1)

ولا تَخافي ممَّا يقولونَ

يغنُّونَ أغنيةً باطلةً،

لكنْ، أغنيتُنا لَيستْ باطلةً

لأنَّ الحُبَّ ليسَ حرفًا عبثيًا

كيْ تمنعي الشَّمسَ تشرقُ وتمنُّ علينا بنورِها

لأنَّ الحُبَّ

(1) مقتبسٌ من شاعرٍ فرنسيٍّ. [المترجمة]

هو الغَدُ

لأنَّ الحُبَّ هو الامتدادُ

أجلبُ لكِ أعظمَ حُبٍّ في العالمِ

مِنْ مَعبرِ الصَّيحاتِ والملاحِمِ

إذْ ليسَ بجواري مَن هو أعظمُ مِنكِ

وقلبُكِ

فراشةٌ

مرهفةٌ وصَغيرةٌ وعاشقةٌ

أيَتُها المعشوقةُ المليئةُ بالأنوثةِ

لأجلِ حبِّكِ،

والفخورةُ بِها!

أيَتُها الصَّبورةُ

يا ممرِّضَتي!

أيَتُها المُؤمِنةُ!

انتصارُكِ ثمرةُ حقيقتِكِ

بِتسامحٍ وصبرٍ
حطَّمتُ العواصفَ والرَّعدَ والثُّلوجَ
كوني كي تنضجَ ثمارُ كبريائكِ
أيَّتُها المرأةُ التي فطورُ الشَّمسِ في فستانكِ
ليكنْ انتصارُ الحُبِّ مِنْ نصيبِكِ!

مِنْ دونكِ لا مَعنىً للَّحظةِ، إنَّها ليستْ سِوى
فراشةٍ ترفرفُ بجناحَيْها
فوقَ نَهرٍ يتدفَّقُ.

ينتهي العمرُ
ولا يتكرَّرُ شَيءٌ.
الفراشةُ
جالسةٌ على زهرةٍ
والنَّهرُ
في النِّهايةِ سَينضَّمُ إلى البَحرِ.

وبدأَ الدَّمارُ

وضعَ قَدميهِ، بثباتٍ على الأرضِ، استقامَ ظَهرُهُ، رفعَ رأسهِ بفخرٍ، وهتفَ: هذا أنا! الإنسانُ! مَلِكُ الأرض!

وجميعُ الكائناتِ خافتِ مِنْ صَرختهِ، والكبرياءُ الذي كانَ يخبئُهُ تغلَّبَ على الجميعِ، وقادَ الإنسانُ جميعَ الكائناتِ، وابتعدَ عَنهم، وأمرَهم بعد ذلك أنْ يحرِّروا أيديهم المغلولةَ بالأرضِ.

إذَنْ، التِّلالُ والتُّرابُ خَضعا لأمرِ الإنسانِ، والجَّبلُ أطاعَ الإنسانَ، والبِحارُ والنَّهرُ أطاعا الإنسانَ، كذلك الغاباتُ والرِّيحُ والنَّارُ أصبحوا عبيدًا للإنسانِ، والضَّوءُ والظَّلامُ وجميعُ ما تبقى مِنْ الكائناتِ صاروا عبيدًا له، مَنْ في المياهِ ومَن في الأرضِ ومَن في السَّماءِ، مَهما كانوا وأينما كانوا. كلُّ مُلْكِ العالمِ أصبحَ لَهُ، ومُلْكُ المياهِ واليابسةِ أصبحَا طواعيةً لَه. العالمُ كلُّه صارَ خاتمًا بإصبعهِ، والزَّمنُ صارَ تحتَ قبضةِ قوَّتهِ، وجعلَ ذهبَ الشَّمسِ فلسًا باسمهِ عندما حرَّر يديهِ مِنْ عُبُوديَّةِ الأرضِ.

إذِنْ، قلَّبَ وجهَ التُّرابِ، ووسمَ بميسمِ العبوديةِ النَّهرَ والبحرَ، وكلَّ مكانٍ. غرسَ قبضتَهِ في قلبِ التُّرابِ مظفَّرًا، وأعادَ خلقَ الأرضِ مجدَّدًا بيديهِ. خلقَ إلهًا بيديهِ، بالتُّرابِ وبالخَشبِ والأحجارِ، ونظرَ بدهشةٍ إلى ما خلقَ، حيثُ لمْ يُخلقْ بجمالِ صَنيعهِ أحدٌ مِن قبلُ، وصلَّى عَليهِ، لأنَّ يديهِ صنعتا معجزةَ التَّحرُّرِ مِنْ عُبوديَّةِ الأرضِ.

إذنْ، الإلهُ الذي ابتكرهُ كانَ صنيعةَ يديهِ الخارقتيْنِ وفكرهِ الخاصِّ. ويدا إلههِ كانتا سلاحَ مملكتهِ. فتوسَّلَ على أعتابهِ واستجدى الحاجةَ والبَركةَ فكفرَ بالنِّعمةِ، واليدانِ اللّتانِ أُهينتا لعنتا الإنسانَ. لأنَّ مكانتَهما ليستِ العُبُوديَّةَ.

وبدأ الدَّمارُ...

غزلٌ في العَجْزِ

أستطيعُ قولَ الكَثيرِ
عن يديْكِ الدافئتيْنِ،
الطِّفليْنِ التَّوأمِ
لو سَمحَ هَمُّ الخُبزِ!

تمزجينَ اللَّحنَ باللَّحنِ
يا أمَّ المَسيحِ، أيَّتُها الشَّمسُ!
مِنْ حنانِ روحكِ الكبيرةِ بألحانكِ التي لا تنضبُ بإمكاني كتابة الكثيرِ،
لو سَمحَ هَمُّ الخُبزِ!

تتداخلُ الألوانُ في الألوانِ،
مِنْ قوسِ قَزحِ ربيعكِ
الذي يرفعُ سِتارَ الخَريفِ عنْ هذا البُستانِ
أستطيعُ رسمَ نقوشًا كثيرةً

لو سَمحَ هَمُّ الخُبزِ!

ينبوعٌ في القَلبِ

شلالٌ في الكفِّ

شَمسٌ في العينِ

وملاكٌ في ثوبٍ

مِنْ الإنسان الذي هو أنتِ

يمكنُ أنْ أرويَ القصصَ

لو سَمحَ هَمُّ الخُبزِ!

نشيدُ مَنْ غادرَ ومَنْ بقي

توقَّفتُ، عندَ مُنحدرِ الأمواجِ
التي كانتْ مليئةً بملحِ البَحرِ وسَوادِ المَساءِ

متّكئًا
بَلعتُ لِساني،
هَربتُ مِنْ نَفسي، التجأتُ لِذاتي
مضطربًا
متعبًا
أسترجعُ شَهقتي
مِنْ أفعالِ الضَّائعينَ

في ظلامِ الشَّاطئِ المالحِ
كنتُ أنصتُ إلى هِجاءِ المَوجِ المُتكرِّرِ
وفي تلكَ الأثناءِ

حجبَ ظِلُّ العاصفةِ
ببُطءٍ
مِرآةَ اللَّيلِ
في ركامِ اللَّيلِ العاصي
خرجَ صوتٌ
لَمْ يكنْ مِنْ طيرٍ ولا مِنْ البحرِ
في تلكَ الأثناءِ
قاربٌ عَجيبٌ
اتَّكأ على الحوافِ المغطاةِ بالضَّبابِ
كانَ مَزيجًا غريبًا بينَ السَّريرِ والتَّابوتِ
كان حاكمًا وآمرًا
ما كانَ يخشى السَّيلَ ولا يخافُ الأمواجَ
لَمْ يكنْ زورقًا فحسبُ
بل جبلاً ثابتًا باتِّساعِ السَّهلِ
وفي قلبِ اللَّيلِ الحالكِ
كانَ واضحًا جدًّا
كأنه مِلكُ الظَّلامِ
وكانَ يتحرَّكُ بسرعةٍ

يبدو كتابوتٍ مرفوعٍ فوقَ آلافِ الأيدي
ثمَّ نادى، أبي،
على الملاَّحِ
لَمْ يكنْ هناك أملٌ مِنْ الإجابةِ
بَدتْ صرختهُ إجابةً
وليستْ مناداةً
وسمعتُ ردَّ الملاَّحِ
خلفَ ضجيجِ الأمواجِ
واضحٌ وحادٌّ
يبدو أنَّه الآمرُ

ثمَّ وضعَ المجرفةَ التي كانتْ أشبهَ بِمنجلٍ
على سَطحِ القاربِ
ودونَ النَّظرِ إلينا
أخبرنا:
« ـ واحدٌ فقط! الأكثرُ تَعبًا»
وصخورُ الشَّاطئِ
دارتْ حَولنا

وسادَ الصَّمتُ والقُبولُ

وعلى طاسةٍ مَقلوبةٍ

تقدَّمنا

وظِلُّ العاصفةِ

كانَ يحجبُ لمعانَ الأمواجِ

وعمَّ الهدوءُ هكذا كما منذِ الأزلِ

بدتْ النَّسائمُ لا تغري هذه الآفاقَ

ولا تجولُ فيها

صرخَ أبي بالملاَّحِ:

« ـ نحنُ اثنانِ!

كلانا متعبانِ للغايةِ

لأنَّنا قطعْنا كلَّ هذه الأرضِ الوعرةِ

وفي ليلٍ كهذا

غريبٌ مَع الفَجرِ!

(وكلُّ شيءٍ على هذا الشَّاطئِ في خِصامٍ مَع الشَّمسِ)

لَمْ نَكنْ نعرفُ منذِ البدايةِ

ما نهايةُ الرِّحلةُ

وقبِلنا ما نجهلُ

وكنَّا نعلمُ بِهِ

وضعْنا أعناقَنا أمامَهُ

وبفخرٍ تقدَّمنا

في معركةٍ مُهينةٍ وغير لائقةٍ بِنا

قاومْنا

(مثلَ قَلعةٍ عاليةٍ ومحاصرةٍ)

لكنَّنا الآنَ غيرُ قادرينَ على الاستمرارِ

كان انتصارُنا في هذا الشَّاطئِ المدمَّرِ

ياللحَسرةِ!

إنَّ قوَّتَنا وزمنَنا

انتهيا في مثل هذه الحربِ المُهينةِ

أمَّا الآنَ

فنمقتُ أجسادنا كبناتِ اللَّيلِ

ونتعذَّبُ

في هذا الخرابِ المُظلمِ

لن نبقى فترةً أطولَ»

قالَ الملاَّحُ:

« ـ واحدٌ فقط! الأكثرُ تَعبًا،
تلكَ هي الأوامرُ»

رفعَ رِداءَهِ المُهترئَ عنْ عظامِ كتفيْهِ
وضعَهُ على رأسِهِ،

بدا مُنزعجًا مِنْ الضَّبابِ الذي كانَ ممتدًّا إلى البحرِ العَفنِ.
في هذه الأثناءِ مرَّ نَظري عبرَ نسيجِ الظَّلامِ
وحدَّقتُ في وجهِهِ
رأيتُ حدقتي عينيه كانتا فارغتيْنِ مِنْ البَصرِ
وقطراتُ الدَّمِ تخرجُ مِنْ حفرتي عينيهِ المظلمتيْنِ
لتُذرفَ على عظامِ خَديهِ!
والغرابُ الذي كانَ جالسًا على كَتفهِ
كانَ منقارُهِ ومخالبُهُ
ملوثينَ بالدِّماءِ

وخلفنا منحدرُ الأمواجِ على الشَّاطئ
وعلى كلِّ الصُّخورِ
سادَ الصَّمتُ والقبولُ

تحدَّثَ أبي مرّةً أُخرى،
وهذه المرَّةُ
بدا أنَّه يحدِّثُ نَفسَه:

«ـ نقصانٌ
تحلُّلٌ
ضَعفٌ
ضَعفٌ مِنْ الدَّاخلِ»

فوجئتُ كيفَ لِرجُلٍ يمسكُ بسيفِ الألفاظِ
ويختبرُ المفاهيمَ؛
هو أيضًا تحدَّثَ مَع نفسِهِ:

«ضَعفٌ

ضَعفٌ مِنْ الدَّاخلِ
أنْ يتجوَّفَ عمقُكَ
أنْ تُحفرَ بئرٌ في قاعِكَ
بئرٌ
لتسكبَ نفسكَ فيها
بحثًا عَنْ ذاتكَ

أجلْ
مِنْ هنا تبدأ الفاجِعةُ:
أنْ تلجأ لذاتكِ
وتضيعَ
في عالمِ الظَّلامِ
والسَّعادةُ
يا للوجعِ!
يا للوجعِ!
يا للوجعِ!
هي أيضًا تِيهٌ آخرُ.

وفي عالمٍ آخر:
بينَ قُطبي الحُمقِ والوقاحةِ»

ثمَّ أطلقَ شَتيمةً مريرةً، وصرخَ:

«ـ رغمَ ألاَّ أملَ في الفجرِ بهذه الحفرةِ،
لأجلِ مَنْ فُتحتْ الحربُ الرَّخيصةُ والمُهينةُ؟
الفجرُ أمرٌ خطيرٌ
وعظيمٌ:
أنْ تُكشفَ
ويُتناقَلُ أمرُكَ على الألسنِ والأيدي
وصرخةُ الشَّعبِ:
«ـ الفاتحُ، ها هو الفاتحُ المنتصِرُ!»
إنْ لَمْ تخجلْ مِنْ النَّاسِ،
فكيفَ أمامَ خجلِكَ مِنْ نَفسكَ!

قبلَ أنْ ينتهيَ اللّيلُ ويأتي الفَجرُ
يجبُ الهربُ مِنْ هذه اللُّجَّةِ المخيفةِ»

ثمَّ صعدَ القاربَ
هذا المزيجَ الغَريبَ بينَ التَّابوتِ والسَّريرِ
لَمْ يخشَ مِنْ سيلِ الأمواجِ
وضعَ المجدافَ على سَطحِ المياهِ
ذهبَ الزورقُ مُسرِعًا نحو البحرِ المظلمِ
وبدا كأنَّه تابوتٌ مرفوعٌ فوقَ آلافِ مِنْ الأيدي

بقيتُ وحيدًا ومحتارًا
قُربَ الأمواجِ مِن حَولي
وعلى كلِّ الصُّخورِ
سادَ الصَّمتُ والقبولُ

وفي ظَلامِ الشَّاطئِ الضَّبابي
حدَّقتُ بالزَّورقِ المُخيفِ
بدا كأنَّه أملٌ يُفقدُ
كأنَّه جبلٌ ثابتٌ على سطحِ السَّهلِ
لا يَخشى سيلَ الأمواجِ

أبي لَمْ يحدِّثني
بل لَمْ يرفعْ يَدَهُ للوداعِ
لَمْ يلقِ نظرةً أخيرةً للوداعِ

كان مثل حبلٍ على الصُّخورِ اليَبابِ
على الشَّاطئِ الفَسيحِ
ونحنُ اثنانِ
واحدٌ يَمضي على أمواجِ البَحرِ
وآخرُ لَمْ يكنْ أنا
وفي تلكَ الأثناءِ بدوتُ كقاربٍ فُصلتْ عنهُ مرساتُهُ
ويعلمُ بتيهِهِ الأبديِّ
ويعلمُ، أيضًا، بأنَّ حقيقةَ اللُّغةِ المخيفةَ
هي أنْ تُسلِّمَ عنقَكَ، وتقبلَ
في ركامِ اللَّيلِ المُتعجرِفِ،
خرجَ صوتٌ لَمْ يكنْ مِنْ الطَّائرِ، ولا مِنْ البَحرِ
وشَعرتُ بثقَلِ التَّعبِ وعبئِهِ
فوقَ كتفيَّ المنسدلتيْنِ.

مِنْ القفَصِ

على حدودِ نَظرتي
مِنْ كلِّ جانبٍ
هناك جدرانٌ طويلةٌ
طويلةٌ، كاليأسِ

هل في كلِّ جدارٍ هناك سعادةٌ
وسعيدٌ
وحسدٌ؟

ألهذا السببِ المَشاهدُ أمامي متشابكة،
والجُّدرانُ والنَّظراتُ
تلتقي
في أقاصي اليَأسِ؟

هل السَّماءُ
سجنٌ مِنْ البِلَّورِ؟

الشَّقُّ

سِحرٌ ماهرٌ
يتبعُ ذكرى لَيلةِ حُبٍّ ويصرُّ على بَقائها
مُنتصرةً، هاربةً...
مَتى حدثَ ذلكَ وفي أيِّ وقتٍ؟

على زُجاجِ هذه الكأسِ الفاخرِةِ
حيثُ فيها
سمكةٌ حمراءُ تخطو خطواتِ فرصَتها الوجيزةِ
وترشفُها مثل جرعةٍ سامَّةٍ قاتلةٍ

مِنْ النَّافذةِ
أرنو إلى الرَّبيعِ
الذي يوقظُ العروسَ الخَضراء
مِنْ سحرِ حلمِها الخَشَبيِّ

ويدُ عقاربِ ساعةٍ عَجولةٍ
تجعلُ هذا الحَشدَ المُضطربَ
يحدِّقُ.
على وصالٍ غيرِ مُجدٍ:
أنا والكأسُ والذِّكرى، والرَّبيعُ
والسَّمكةُ الحَمراءُ
التي تبدو كـ «نقطةِ نِهايةٍ» ملوَّنةٍ وذهبيةٍ
تصرُّ على
نهايةِ نَسبها العائدِ للزِّينةِ
غيرِ المُثمرةِ.

اللَّوحُ

عَبَرَ كسحابةٍ سوداءَ
في ظلِّ القمرِ الدَّاكن
رأيتُ السَّاحةَ والأزقَّةَ
كانَ مثلَ أخطبوطَ يضعُ مِنْ التَّعبِ أحدَ أطرافهِ في واحدةٍ مِنْ الحُفرِ المُظلمةِ
وعلى الرَّصيفِ الباردِ
وقفَ حشدٌ مِنْ النَّاسِ
يرافقهم اليأسُ والتَّعبُ
وفي كلِّ مرَّةٍ
كانَ الانتظارُ المقلقُ يضيفُ الإرباكَ على حشدِهم
كحيوانٍ ينفضُ جسدَهُ بعد الماءِ الباردِ ليحكَّ جِلدَهُ
نزلتُ مِنْ السَّلالمِ المظلمةِ
بلَوحٍ مغبرٍّ في اليَدِ
وقفتُ عندَ منبَسطِ السُّلَّمِ
المُطلِّ على السَّاحةِ

رأيتُ الحُشودَ،

كانوا يجتمّعونَ حولَ السَّاحةِ

وفي الأزقَّةِ

ظِلالُهم تمتَدُّ والسَّوادُ

كحبرٍ يتَسرَّبُ في الظَّلامِ

سادهم الصَّمتُ والانتظارُ

رفعتُ اللَّوحَ الطِّيني بيَدي

وصرختُ:

« ـ كلُّ شيءٍ، وكلُّ ما كانَ هنا،

في هذا العلوِّ،

لا شيءَ غيرهِ

لوحٌ قديمٌ

انظروا لَه بهدوءٍ الآنَ!

لو كانَ ملوَّثًا بالدَّمِ والقَيحِ

فهذا مِنْ جَرحٍ يرْشحُ بالرَّحمةِ والصَّداقةِ والنَّقاءِ»

كانوا ينصتونَ، فقط، ولَمْ يكنْ قلبُهم مُعي

وكما قلتُ

لا نفعَ مِنْ انتظارِهم، ولا مسرَّةَ

زأرتُ:

« ـ لو كانتْ نواياكُم سَليمةً

عبثًا تنتظرونَ خطابًا مِنْ أحدٍ...

هنا كلُّ شيءٍ!»

صرختُ:

«ـ حانَ الوقتُ كيْ تندبوا مَسيحَكم المصلوبَ،

فالآنَ

كلُّ امرأةٍ هي «مريمُ»

وكلُّ «مريمَ» «يسوعُ» على الصَّليبِ،

بلا إكليل شَوكٍ وصَليبٍ و«جُلجُلةٍ»

بلا «بيلاطس»[1] وقضاةٍ ومَحكمةِ عَدلٍ: ـ

تلامذةُ «المسيحِ» بنفسِ المَصيرِ

تلامذةٌ بالثِّيابِ نفسِها

(1) بيلاطس البنطي: الحاكم الروماني لمقاطعة« يهودا» التي تعرف كذا باسم «أيوديا»، ولد في عام 10 قبل الميلاد، تولى محاكمة «المسيح»،والحكم بإعدامهِ صلبًا. [المترجمة]

بنفسِ الخُفِّ ولفافةِ السَّاقِ

ـ الخُبزُ والحساءُ بالتَّساوي ـ

(أجل! المساواةُ إرثٌ ثمينٌ للأصلِ البَشري)

فإنْ لَمْ يكنْ لديكَ الإكليلُ

ضَعْ كبرياءكَ فوقَ رأسكَ

وإنْ لَمْ يكنْ لديكَ صليبٌ لتحملهُ على كَتفكَ

فثمَّةَ مسدسٌ،

(دليلٌ كبيرٌ، الجَميعُ على استعدادٍ)

وكلُّ عشاءٍ

قد يكونُ «العشاءَ الأخيرَ»

وكلُّ نَظرةٍ قد تكونُ نظرةَ «يهوذا»[1]

فلا ترهقْ قدمكَ للبحثِ عَن البُستانِ

لأنَّكَ مَع الشَّجرةِ

(1) بحسب الأناجيل القانونية، فإن «يهوذا الإسخريوطي» هو أحد تلاميذ المسيح، خانه وسلّمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة فضّةٍ، ثمَّ ندمَ بعد ذلك وردَّ المالَ لليهود وانتحرَ. ليحلَّ الرسولُ «متياس» بديلاً عنه ويكونَ من جُملة الإثني عشر. [المترجمة]

ستلتقي بالصَّليبِ
عندما يتشتَّتُ حلمُ الإنسانيَّةِ والرَّحمةِ أمامَ عينيْكَ
كالضَّبابِ الخَفيفِ والنَّاعمِ
ووضوحُ الحَقيقةِ الحارقِ
كالخَنجرِ تحتَ شَمسِ الصَّحراءِ
ينغرسُ في عينيْكَ

هناكَ تدركُ كم أنتَ بائس! يا لكَ مِنْ بائسٍ!
كانَ يكفيكَ أجرٌ قليلٌ
لتشعرَ بأكبرِ قدرٍ مِنْ السَّعادةِ:
كترحيبٍ حسنٍ
ويدٍ دافئةٍ
وابتسامةٍ صادقةٍ
وهذا الشَّيءُ القَليلُ لَمْ يتوفَّرْ لكَ!
كلاَّ!
لا ترهقْ قدمكَ في البحثِ عن البُستانِ
وليسَ هناك وقتٌ للدُّعاءِ أو اللَّعنِ
لا مغفرةٌ

ولا حقدٌ

ولا حَسراتٌ

لأنَّ طريقَ الصَّليبِ

ليسَ طريقًا للعُروجِ إلى الجَنَّةِ

بل هو طريقٌ إلى الجَحيمِ

وضياعِ روحكَ الأبديِّ»

وأنا أصرخُ مِنْ شدَّةِ الحُمَّى على النَّاسِ وقلوبهم؛

لا عليَّ

عرفتُ أنَّ هؤلاء لا ينتظرونَ لوحًا طينيًّا

بل ينتظرون الكتابَ

والسَّيفَ

حراسًا يهاجمُونهم

بالسِّياط والعِصيِّ

يَجلسُونهم على رُكبِهم

في استقبالِ مَن ينزلُ السَّلالمَ المُظلمةَ

حاملاً السَّيفَ والكِتابَ

لقد بكيتُ كثيرًا

ـ وكلُّ دمعةٍ منِّي كانتْ حقيقيَّةً
رَغمَ أنَّ الحقيقةَ هي
مجرَّدُ كلمةٍ
أبدُو بهذا البُكاءِ
كما لَو أنَّني أعيدُ حَقيقةً مُخيِّبةً للآمَالِ
آهٍ، هذه الجماعةُ
يبحثونَ عَن الحقيقةِ المخيفةِ
فقط في الأساطيرِ
لهذا يعدُّونَ السَّيفَ، سلاحَ العَدلِ الأبديَّ
لأنَّ السَّيفَ في زمانِنا
سلاحُ الأساطيرِ

ولهذا أيضًا
يقبلونَ شهادةَ مَنْ في طريقِ الحقيقةِ
حَمَى بالدِّرعِ صدرَهِ أمامَ السَّيفِ
وكأنَّ التَّعذيبَ وعذابَ الشَّهادةِ
ـ التي تعدُّ شيئًا قَديمًا للغايةِ ـ
لا تُفضَّل بالأدواتِ الحديثة،

كلُّ الذين احترقوا بنارِ البَارودِ،

كلُّ تلك الأنفُس التي بقيَت مِنها؛

ظلُّ رقمٍ، في مجموعةٍ مخيفةٍ مِنْ الملايين!

آهٍ

هذه الجماعةُ

تبحثُ عَن الحَقيقةِ المخيفةِ

فقط في الأسَاطيرِ

رغم أنَّ الحَقيقةَ

ليستْ مجردَ أُسطورةٍ

نارُهم لَمْ تَحرقْني

لأنَّني قلتُ عَن السَّماءِ

حديثي الأخيرَ

دون أنْ أذكرَ مفردةَ السَّماءِ

على لَساني!

مِنْ المَوتِ تحدَّثتُ

حتَّى سُمعَ ضَجيجُ الرَّبيعِ الآخرُ
في تلك الجهةِ مِنْ الأسابيعِ التي كانتْ
تَمضي مَع الثَّلجِ القديمِ
تحدَّثتُ مِنْ الموتِ.

حتَّى أتتِ القافلةُ ووضعتْ حملَها
بأيِّ مكانٍ في السَّهلِ فاحَ عِطرُ الكَرزِ النَّاضجِ
عَن الموتِ تحدَّثتُ
مع صاحبِ موقدِ البُستانِ.

وصلَ مِنْ الطَّريقِ الطَّويلِ
الصَّيفُ الكَهْلُ
متعبًا ومتْرَبًا
فرشَ بساطهِ بثقلٍ تحتَ ظلِّ الجّدارِ

والأطفالُ سعداءُ
اجتمعوا حولَهِ
كعادتِهِ القَديمةِ
يفتحُ عقدةَ كيسهِ الرَّثِّ
ليملأَ الجيوبَ والتَّنانيرَ
مِنْ المشمشِ الأخضرِ والتُّفاحِ الأحمَرِ والجَّوزِ الطَّازجِ

خبَّأتُ مَوتي كالسِّرِّ
وجَعلتُهُ أمينَ سِرِّي
ومعهُ فقط
تحدَّثتُ عَن الموتِ!

ومع اللَّبلابِ
الذي يمدُّ حصارَهُ ببراعةٍ على شُرفاتِ البيوتِ
ومع العطشِ
الذي يغيِّرُ وجهَ كلِّ شلالٍ صغيرٍ
تحدَّثتُ
عن الموتِ

وعندَ الخَريفِ

تحدَّثتُ مَع البئرِ

مع الأسماكِ الصغيرةِ في الجَداولِ

وهمسِها الأبديِّ الخالي من أيِّ نشيدٍ

مَع النَحلةِ الذَّهبيةِ

التي كانتْ تنهبُ الغابةَ

وتظنُّ أنَّ بائعَ العَسلِ المُسنَّ ينتظرُ عودتها

أنا، تحدَّثتُ مَعها عَن الورقةِ الأخيرةِ

التي كانتْ أغصانُها الجَّافَّةُ

تبحثُ بيأسٍ عَن متّكأ

في فضاءٍ

كانَ فارغًا، بقساوةٍ

حتَّى سُمعَ صوتُ الشِّتاءِ

في ذلك الجانبِ مِنْ الأسابيعِ القَادمةِ

والسَّمُّور والقُمريُّ

أخرجا رأسيهما مِنْ العُشِّ والبيتِ

تحدَّثتُ مَع فراشةِ البُستانِ

عن الموتِ

تحدَثتُ عَن مَوتي مَع الفصولِ

مع الفَصلِ الذي كانَ يَمضي

تحدَّثتُ عَن موتي مَع الثُّلوجِ

مع الثَّلجِ الذي كانَ يهطلُ

مع الطُّيورِ

مع طيرٍ كانَ يبحثُ عَن طعامِهِ في الثَّلجِ

مع الجداولِ

مع الأسماكِ الصَّامتةِ

شاركتُ حديثَ موتي

مع الجِّدارِ الذي ما كانَ ليعيدَ لي الصَّدى

إذْ كانَ عليَّ أن أخفيَ مَوتي

عن نفسي أيضًا!

جِدَالٌ في المِرآةِ والصُّورةِ

1

منذُ وقتٍ طويلٍ تتحدَّثونَ مَعي بقسوةٍ
هل بإمكانكِم سَماعُ الإجابةِ اللاَّئقةِ؟

لا تتعذَّبوا مِنْ التَعقيدِ
مِنْ الغموضِ
وكلُّ ما في الشِّعرِ
- برأيكم -
تزعمونَ بأنَّه لغزٌ مبدَّلٌ
ولكنْ، الحَقيقةُ
وما قبلَها
عذابُكم بسبب عجزِكم
في منطقةِ «الإدراكِ»

وهنا لو نتحدَّثُ عَن «الحُبِّ»
ليسَ عَن حُبٍّ يستوفي أغراضكم
ولو كانَ هنا صراخٌ وعويلٌ
فكلُّ الصُّراخِ والعويلِ مِنْ الخِداعِ والفاجعةِ

عمَّ تبحثونَ
أنتم الخُدعةُ نفسها، والبلوى
لا محالةَ تتضايقونَ مِنْ ذواتِكم

وتتحدَّثونَ مَعي
منذ وقتٍ طويلٍ بقسوةٍ
هل بإمكانكم سَماعُ الإجابةِ الصَّحيحةِ
الإجابةِ الفَظَّةِ؟

2

أصبحتِ الأرضُ على شكلِ يد الإنسانِ
حينَ أصبحتْ كلُّ صحراءَ بستانًا
وكلُّ نَهرٍ رفيعٍ
صبَّ في طريقِ البُحيرةِ
لأنَّ الإنسانَ
ـ شكلَ أصابعِهِ ـ
كان مُتشابكًا مَع الطَّبيعةِ

مِنْ أيِّ طائفةٍ أنتم؟
أخبِروني،
أنتم الذين تَصرخونَ!
فوقَ رؤوسِ المَظلومين المقيَّدينَ
بكلِّ وقاحةٍ
في ظلِّ المُنتصرينَ

ترتجزونَ

أو ترمونَ الأحجارَ في معركةِ الجِّدالِ

مِنْ فوقِ أسْطحِ بيوتِكم العاليةِ

لتهويَ على أيِّ رأسٍ

أنتم المشانقُ في كلِّ ميدانٍ

لا تساعدونَ أحدًا بِصدقٍ

ولا تخاصمون أحدًا بِصراحةٍ

مِنْ أيِّ طائفةٍ أنتم؟

أخبروني!

ـ تبدونَ ممرِّضينَ متسامحينَ على هيئةِ بشرٍ ـ

ولكنْ، أيُّ مصابٍ على وجهِ الأرضِ مِن صنائعكم؟

أو أيُّ غرفةٍ في هذه المدرسةِ؟

3

اخترتم العُزلةَ وليسَ لديكم سِواها
لتحكموا في كلِّ شيءٍ كالمِرآةِ
بينَ السَّيِّءِ والجَيِّدِ
حتَّى بملائكيةِ وجوهكم
ما لا ينفعُكم تضعونه في شَطرِ القبحِ
وترسمونَ باطمئنانٍ الحدَّ على الحُشودِ
لأنَّكم اخترتم العُزلةَ وليسَ لديكم سِواها
لتضعوا وجودَكم نقطةَ انطلاقِ أوّلِ الطُّرقِ والأزمنةِ
تقيسونَ الأفعالَ بأفعالِكم
والأقوالَ بأقوالِكم
لا حيلةَ لكم
عندما أكتبُ أنا، أيضًا
تكتبونَ
وتسطِّرونَ مَلحمةً مِنْ بطولاتِكم

عندما أبدأُ بوضعِ نقطةِ النِّهايةِ
على هذا التّكرارِ الأحمقِ فجرًا، ومساءً
ولا أنتظرُ رؤيةَ القَدرِ.

مؤلمٌ
مع ذلك، مؤلمٌ جدًّا
تخيُّلُ قناعِ الحُزنِ الذي تضعونه على وجوهِكم
عندما تأتونَ لتوديعِ جُثَّةِ العَجزِ
التي أودعتم كلَّ أرازقِها
ـ مثلَ حبَّاتِ الماسِ المَنهوبةِ بخفاءٍ ـ
بين النِّفاياتِ والخِرقِ المُمزَّقةِ في قمامةٍ عفنةٍ.

4

عندما لا يكونُ الحبُّ غزلاً بل مَلحمةً،
كلُّ شيءٍ يقلبهُ وجهُ الحاضرِ:
السِّجنُ
بُستانُ الشَّعبِ الحُرِّ
والتَّعذيبُ والجَلْدُ والأغْلالُ
ليسَ غريبًا في العالمِ البَشريِّ
بل معيارًا للقيم
القتالُ
قداسةٌ وزهدٌ
الموتُ والحياةُ
والذي يُرفعُ على المشنقةِ
موتهُ مستحقٌّ
يُحشرُ مَع الأنقياءِ والخالدينَ
هناك

حيثُ الحُبُّ ليسَ غزلاً بل مَلحمةً
كلُّ شيءٍ يحوِّلهُ
وجهُ الحاضرِ:
الفضيحةُ
شجاعةٌ
والصَّمتُ المُطوَّلُ
عجزٌ

أحدِّثكمْ عَن مَدينةٍ، أنتم الرَّبُّ فيها!

منذ وقتٍ طويلٍ تتحدَّثون مَعي بقسوةٍ،
هل بإمكانكم سَماعُ كلمتيْنِ؟
هل بإمكانكم ذلك؟

أحمد شاملو شاعرٌ إنسانيّ، فيما وراء الإيديولوجيّة. كان أوّلاً، ذاته وذاتيّته، بعمق وتأصُّل. هكذا أتقن الانفتاحَ على الآخر، واعياً أنّه لا يقدر أن يكون ذاتَه إلاّ بقدر ما يكون الآخر. واعياً أيضاً، أنّ انخلاّق، شعراً وفنّاً وفكراً، يتعلّم دائماً، ولا يقدّم نفسه إلى الآخرين بوصفه معلّماً. غير أنّه يحاول فيما يتعلّم أن يُضيء وأن يُشير، وأن يرمز، وأن يطرح الأسئلة على الأشياء لكي يزداد فهماً لها في علاقاتها ـ وفي مآلاتها. هكذا ليست قصائده تعاليم ـ وإنّما هي أماكنُ رحبةٌ وفاتنة للّقاء بينه وبين من يعرف كيف يقرأ. وهو مكانٌ للفرادات: مكانٌ لمزيدٍ من التّساؤل، والفهم، والاستقصاء، والإحاطة. فلا يطرح الشعر أسئلته على العالم وحده، وإنّما يطرحها كذلك على نفسه، كي يظلَّ يَقِظاً في حدوسه وفي رؤاه وفي رؤيته.

القصيدةُ أفقٌ، وليست رغيفاً. وهي بحثٌ متواصلٌ وليست يقيناً جامداً. وهي، بوصفها كذلك، وفي الوقت نفسه، سؤالٌ عن العالم، وسؤالٌ عن الإبداع، وسؤالٌ عن الشعر.

إنّها، معاً، رؤيةٌ في الاستقصاء، وفي التّجاوُز، في التأصُّل وفي التّخطّي. في الاختراق وفي التّحَوُّل. في القطيعة وفي الوصل بين الكائن وما يكون. إنّها مكانٌ تتلاقى فيه الأزمنة ماضِياً وحاضِراً وآتياً.

أدونيس

إخراج وتصميم: MYK
Designing Your Future Design Studio

ISBN 978-9-9226716-4-2
9 789922 671642

daralrafidain
dar.alrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين